المركز القومي للترجمة

هنري حبيب عيروط

ميراث الترجمة

الفلاحون

ترجمة
محيي الدين اللبان
وليم داوود مرقص

الطبعة الثانية

2/448

الفلاحون

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ٤٤٨/ ٢
- الفلاحون
- هنرى حبيب عيروط
- محيى الدين اللبان
- وليم داوود مرقص
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة:

Moeurs et coutumes des Fellahs
Par: Henry Habib Ayrout
(1938)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com **Tel.:** 27354524 - 27354526 **Fax:** 27354554

الفلاحون

تأليف: هنرى حبيب عيروط

ترجمة: محيى الدين اللبان

وليم داوود مرقص

٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٥٢٤ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 9 - 377 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

التعريف بالمؤلف

ولد بالقاهرة سنة ١٩٠٧
ودرس بمدرسة العائلة المقدسة
(الجزويت) . ثم فى ليون (فرنسا)

أسس جمعية المدارس المجانية
فى قرى الصعيد فى سنة ١٩٤٠
وهى تدير الآن ١٠٠ مدرسة
ومركز فى الريف القبلى .

عين رئيس مدارس الجزويت
فى سنة ١٩٦٢ ، عضو المجمع
العلمى والجمعية المصرية للمدارس
الاجتماعية .

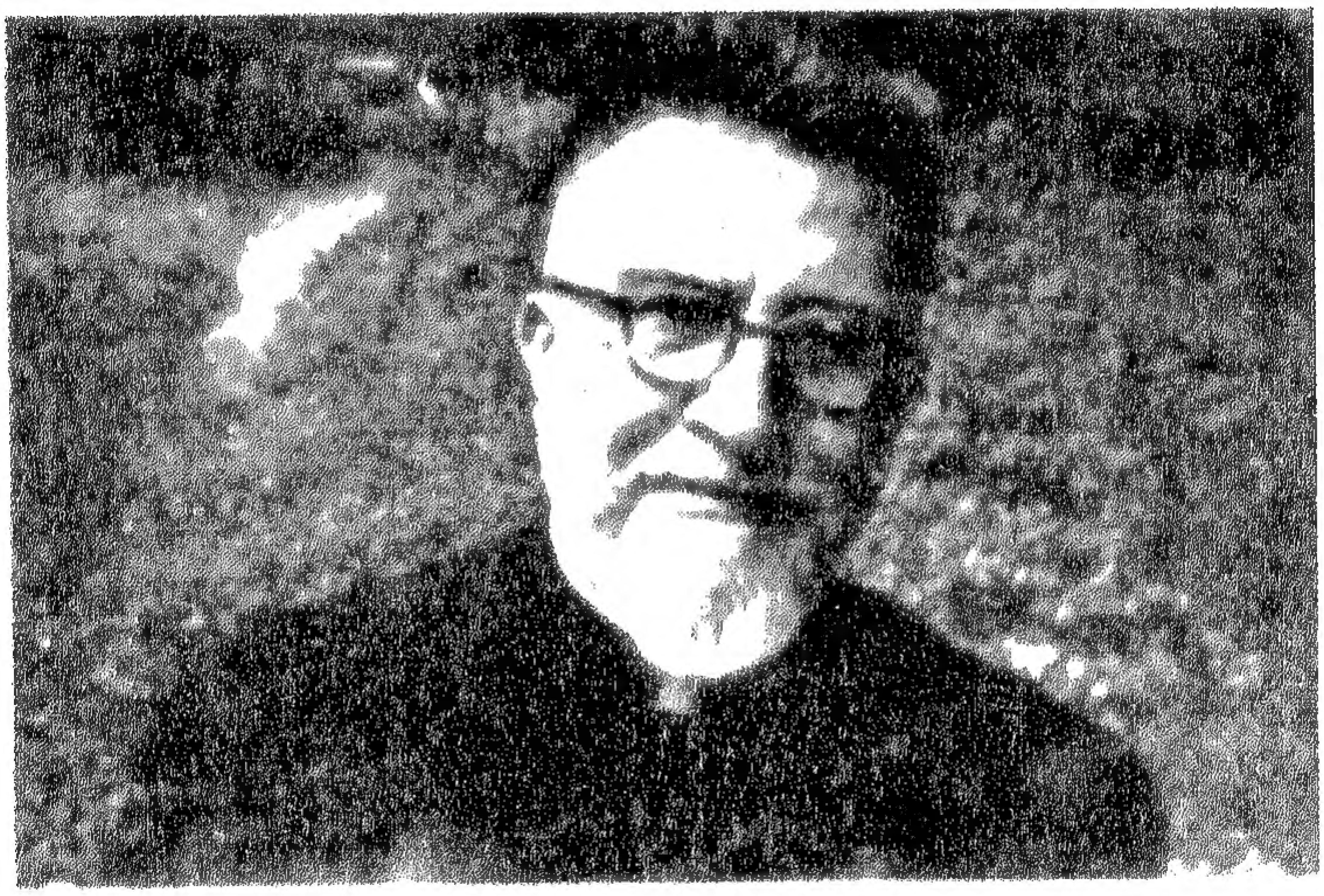

المــــؤلف

التعريف بالكتاب

نشر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٣٨ فى باريس باللغة الفرنسية تحت عنوان « أخلاق الفلاح وعاداته » نشرته إذ ذاك دار بايو Payot فى مجموعة وثائق كتابة التاريخ المعاصر وكتب مقدمته إذ ذاك الدكتور اندريه اليكس André Allix عميد جامعة ليون ، وقد نفدت هذه الطبعة عقب ظهورها .

وفى سنة ١٩٤٢ ترجمه إلى العربية الدكتور محمد غلاب ، وقد نفد جميع ما طبع منه منذ عهد بعيد .

وفى سنة ١٩٤٣ أعيد طبعه فى القاهرة باللغة الفرنسية تحت عنوان « الفلاحون » بمقدمة للأستاذ فؤاد أباظه « باشا » ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية بقلم هيلارى ويمنت Hilary Wayment سنة ١٩٤٦ بمقدمة لمحمد طاهر « باشا » .

وفى سنة ١٩٥٢ ظهرت طبعة فرنسية ثالثة نشرتها دار الكتاب الفرنسى .

وفى سنة ١٩٥٨ ترجم الكتاب إلى اللغة الروسية دون تصريح من المؤلف مع مقدمة هادفه . . .

وقد قامت النقطة الرابعة Point Four بترجمة أخرى لأجل الموظفين الأمريكيين الذين يفدون إلى مصر .

ثم فى سنة ١٩٦٢ ظهرت ترجمة إنجليزية جديدة تحت عنوان الفلاح المصرى The Egyptian Peasant .

وقام بهذه الترجمة مستر جون الدن وليمز John Alden Williams بمقدمة لمستر تشستر بولز Chester Bowles وتقديم لمستر مورو برجيه Morroe Berger .

وقد أصبح الكتاب من المراجع الكلاسيكية التى يعتمد عليها وذلك يدل على ماله من أهمية فى الأوساط الثقافية والاجتماعية .

ولما كانت هذه الدراسة قد أصبحت وثيقة تاريخية ذات أهمية كبرى وكانت حافزاً فعالا سبق الثورة المباركة ومهد لها وكانت الحاجة ماسة إلى ترجمة عربية بليغة لآخر طبعة فرنسية منقحة ، رأينا ، أن نعهد إلى الأستاذ محيي الدين اللبان والأستاذ وليم داود مرقص ، بالقيام بهذه الترجمة وقد قام الأستاذان بما عهد به إليهما والله وحده ولى التوفيق .

المؤلف

تصـــــدير

الألفاظ كائن حي ، كالإنسان والنبات ، وهي تخضع لقوانين تفرضها طبائع الأشياء وحاجات المجتمع وضروراته .

وإذا كان الإنسان يستمد حياته من الماء والغذاء والهواء ، فإن النبات لا ينمو إلا في تربة طيبة وري منتظم وهواء طيب وشمس لطيفة . وكذلك الألفاظ لا تؤدي واجبها إلا إذا تفهم المجتمع طبيعتها وعرف وقائعها ، وأخلص في اختيارها لتعبر عن مدلولاتها .

الألفاظ هي العملة التي تتداولها العقول البشرية ويستخدمها الإنسان في كافة معاملاته وشئونه الخاصة والعامة . وإذا كانت العملة الجيدة تطرد العملة الرديئة من أسواق البيع والشراء والاكتناز ، فإن الألفاظ الرديئة لا تجد مكاناً طيباً في حياة المجتمعات والأمم والشعوب والأفراد . ونحن نمتحن العملة قبل أن نتسلمها ونفحصها وندقق في ذلك حتى لا نحمل المزيف منها ، وكذلك نرى الألفاظ التي نحسن اختيارها للتعبير عن مشاعرنا وأحاسيسنا وحمل ما نرغب فيه إلى غيرنا هي القادرة على حمل آرائنا إلى الغير .

والإنسان عرضة للقوة والضعف ، والألفاظ خاضعة لهذه الظاهرة . ونرى أن القوة تلازمها حيناً ، وقد يعتورها الضعف في أحيان كثيرة . وقد تبرز على مسرح الحياة كلمة بعينها فترة من الزمن ثم تعود نفس هذه الكلمة إلى التغيب عن مسرح الحياة بحكم الأحداث والوقائع والظروف والمناسبات . ويتطور معنى الكلمة وفقاً لعصور التاريخ وتطور الحياة فتكون دلالتها في قرن غير دلالتها في قرون ذاهبة . وليس غريباً — إذن — أن يحفل تاريخ الكلمة الواحدة بمعان مختلفة لم يعرفها الناس من قبل . غير أن ما تحتاج إليه الكلمة هو المهاد الصادق لتؤدي واجبها من حيث القوة والروعة والانطلاق ، وما المهاد الصادق الذي نرمي إليه إلا الحرية الصادقة في الخطاب .

ولنأخذ مثلا لذلك . كلمة — فلاح — فى العصور الغابرة تعطينا شخصية ذلك الإنسان الذى ربط حياته بحياة سيد الأرض . نراه يعكف على التربة ويعيش بين طبقات عناصرها المتباينة ، غارقاً فى عرقه ، خالى الوفاض هزيل الجسد ، يمشى فى أسماله البالية وفوق رأسه ثمار الأرض الطيبة وليس له من نصيب فيما أنتج وأخرج ، الكفاف نصيبه ، والخير كله يصيب به سادة الأرض وأمراءها . ويعيش بعيداً عن سير ركب الحضارة ، وموكب الإنسانية ، يعيش فى مسالك نفس ذات إرادة تمنعها قوة القانون والعرف والتقاليد ، وظل كذلك آلة يستخدمها السادة والحكام فى معاركهم السياسية والاجتماعية ولكنهم لا يستطيعون أن يسهموا حقاً فى إدارة شئون حياتهم العامة والخاصة إلا بقدر معلوم .

أما اليوم فقد برزت كلمة فلاح على مسرح الحياة على هيئة جديدة لم تكن مألوفة من قبل ، إنها تعطينا صورة الإنسان الذى يسهم فى الحياة بنصيبه الرائع فى الإنتاج وقد بدأ ارتباطه بالأرض . أصبح سيدها بعد أن كان عبداً لمالكها ، وهو يعمل فى إطار لوحة جديدة رسمتها القوانين التقدمية ، وحمتها الحكومات التى آمنت بحق هذا المواطن فى الحياة ، ولم تعد حقوق الإنسان وقفاً على طائفة بذاتها بل أنها شركة بين الناس جميعاً فى إطار القوانين الإنسانية العامة . فالعطف على الفلاحين بالأمس كان مناورة بارعة مكشوفة رجاء الوصول إلى أغراض طبقات غير الفلاحين وتحقيق أهداف أبنائها ، أما العطف على الفلاحين اليوم فهو القوانين التى نقلت فئات المنتجين من حالة العدم والزراية والسخرية إلى حالة الوجود والعزة والكرامة . وما كان للقادة الملهمين أن يهملوا الفلاح وهو المحور الذى تدور حوله البشرية العادلة العاقلة . صار اليوم حقيقة بعد أن كان آلة . أصبح اليوم قضيب المغناطيس الذى يجذب المواد المختلفة التى يتألف منها صلب هذه الحياة . هو الطيف الذى يرهص بقدوم الخير والبركة للإنسانية جمعاء .

وإذا كان الفلاحون هم القوى الفعالة التى أبدعت هذه الحياة التى نتغنى بها — نحن سكان المدن — وهم القوى التى ساندت ماء النهر الخالد فخلقت حضارتنا الباقية على مر العصور وكر الدهور ، فإننا نضاعف تقديرنا للفلاحين كلما ذكرنا

أنهم يؤلفون ثلاثة أرباع سكان البلاد فمصر ليست هبة النيل وحده ، لأن النيل يشق طريقه فى أكثر من بلد ، ولم تستطع إحداها أن تنشىء حضارة مثل الحضارة المصرية الخالدة ، بل أن السواعد المصرية هى التى استطاعت الاستفادة من النيل وأقامت حضارتها على النحو المألوف الذى يجذب سكان العالم للتمتع بأهبة الآثار ، والإقامة زمناً بين بساط الطبيعة النضر . فالعقل المصرى المبتكر وسواعد الفلاحين الدائبة على العمل هى التى روضت النهر وهذبته واستخدمته فى سبيل تدعيم الحضارة المستمرة . لم تنم عين الفلاح يوما عن التربة الخصبة ، ولم تتقاعس همته عن ممارسة الأعمال الشاقة ، بل أحكمت الرباط بين القوى البشرية والقوى الطبيعية فتشكلت مصر على النحو الذى نراه . ومما لا شك فيه أن الفلسفة الحديثة لمفهوم الفلاحة والفلاحين ستثمر خيراً جديداً وكبيراً لهذه البلاد . وهى فلسفة توثيق العلاقات الإنسانية بين المنتج الحق وبين الأرض التى تخرج من باطنها الخير والبركات .

ومن لطائف فلسفة أجدادنا الفلاحين أنهم رأوا فى نهر النيل القوة الخلاقة التى أعطتهم أسباب الحياة والعيش الدائم فاتجهوا إليه واتخذوا منه إلهاً وجعلوه معبوداً يتقربون إليه ويقدمون القرابين ، وكان يحلو لهم أن يذوبوا بين أمواهه وأن يقيموا بين تبره لا يعنون بمظاهر المدنية البراقة ، نزعوا عن أنفسهم دثار الترف واللهو واتزروا برداء العمل الشاق ، يعطون كما يعطى النهر ولا يبغون جزاء ولا شكورا . ينشدون الأناشيد ، ويهزجون الأهازيج ، وينثرون على ضفتيه حبات قلوبهم كما ينثرون على تربته البذورَ ويغرسون الأشجار ويعرشون النبات ، يفعلون ذلك فى ثياب الإحرام ، الجلاليب الزرقاء ، والوجوه التى لوحتها الشمس فأكسبتها اللون البرنزى الرائع ، وأناملهم تنتقل من شجرة إلى شجرة ، ومن فنن إلى فنن ، ومن ثمرة إلى ثمرة ، ومن زهرة إلى زهرة ، فتجرى من بينها أسباب الترف والنعيم ، تقيم الفراديس النضرة على تربته الغبراء . وهم سعداء بما يفعلون ذلك أنهم اطمأنوا إلى سر الحياة التى تعطى ولا تأخذ ، تمنح ولا تمنع ، تسعد ولا تشقى . تبسط ولا تقبض . يؤمنون بإنسانيتهم قبل أن يؤمنوا بذاتيتهم . يرضون بشملة الألم المطروحة على أجسادهم الذاوية ، وثوب القسوة يلفون فيه العذاب الدائم . وهم يشيحون عن صداقة الحاكمين ، وينظرون إليها فى سخرية وتقزز ، ويرونها حبة الدواء المسكن لا تمتد إلى أصل الداء .

وعلى هذا فإنهم فى سمرهم وفى أحاديثهم الخاصة يلاحقون السادة والحكام والأمراء بما يخفف عنهم بعضاً من الألم ، وقليلا من المظالم التى ترهقهم يوما بعد يوم. وأخذوا ينتهزون الفرص العابرة ليستشعروا وجودهم فيعلنون عن حقيقة ذاتهم ، ورفع شأو مكانتهم كلما أراد السادة أن يستغلوا هذه القوى ذات العدد الكبير فى المعارك السياسية ، أو الظواهر الاجتماعية التى يركن الحاكمون إليها لا عن عقيدة وإيمان بل رغبة فى كسب أصوات الفلاحين لمساندتهم فى الاستئثار بالسلطة والنفوذ. ولم يلق الفلاحون من الكتاب ورحاب الرأى والفكر معاونة أو مساعدة وذلك أن الكتاب كانوا يمالئون من بيدهم السلطة والأمر، ويحرصون على عدم إغضابهم . وإذا تناول أحد الكتاب المسألة ، فإنما هو تناول هين لين ليس فيه ما يغضب السادة ، وليس به ما يغنى الفلاح عما هو فيه من مذلة وكسر خاطر .

ثم خرج من بين الصفوف فى الجيل الأخير ، رجل وقور . عليه عباءته السوداء ، تزينه لحية جميلة ، ويغادر صومعته ويضرب فى مسالك الأرض وضروبها .

يسعى إلى الفلاح بين ركام مساكنه المتهالكة ، ويحج إليه وهو يضرب بفأسه الأرض ، تبلله مياه النهر . . ذلكم هو الأب — هنرى حبيب عيروط .

والأب عيروط رجل دين ؛ شغلته مشكلة الفلاحين ولم يجد فائدة فى إلقاء عظة من فوق المنابر ، ولا فائدة من وراء أثارة الجماهير بحماسة المؤمن ، بل رأى أن يفعل شيئاً من أجل طبقة تؤلف ثلاثة أرباع سكان هذه البلاد . تفاعلت هذه الأفكار فى نفسه وبدء يخلق الأجواء المناسبة لرسم سياسة صادقة تؤتى أكلها . وأحس الأب عيروط أن النجاح مقرون بالاستفادة من الدرس والفحص والعلم ، فأمعن فى درس تاريخ الفلاح وفى الوقوف على خلجات نفسه ، وتعمق قضاياه الخاصة ، فجمع لهذه الغاية الوثائق والمستندات وجعل يديرها بين يديه ليصل إلى الصادق الذى يمثل الواقع ، ويضع أصابعه على العلة الحقيقية لهذه المشكلة التى لم تجد حلا منذ قديم الأزمان . وتعتصره فى كل لحظة مرارة الألم كلما رأى الفلاحين ينوءون يوماً بعد يوم تحت أثقال الجهل والفقر والمرض . ووجدان الدمع وحده لا يحل المشكلة ، وأن ترديد الآهات يزيدها وطأة وشدة ، وضاعف من همومه وأحزانه أنه لا يملك حولا

ولا طولا ينفذ عن طريقهما إلى مواجهة هذه التركة المثقلة ؛ ولكنه عكف على الدرس والبحث والتدقيق ، وخرج وهو واحد من أئمة رجال الكهنوت برسالة ؛ لاهى مقارنة بين الأديان ، ولاهى خاصة بالتوحيد ، ولا هى تتناول الخصومة بين الفلسفة والدين ، ولا تتحدث عما وراء الطبيعة ، أو أى شيء مما يعنى به رجال الدين ؛ بل رسالة عن الفلاح المصرى ، وتقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه .

حصل الأب عيروط على درجة الدكتوراه ؛ وأول من أثارتهم الرسالة هم أعضاء لجنة الإمتحان ؛ وما كاد نبأ الرسالة يذاع حتى تخطفتها عقول الأساتذة فى الجامعات العالمية ، ثم وقف إلى جانبها رجال الفكر والرأى والثقافة ، فشقت طريقها إلى رجال الاصلاح والمعنيين بأمر الفلاحين . ليس الأب عيروط غريباً عن هذه البلاد فقد ولد بمدينة القاهرة ، وهو من أسرة عريقة ذات طابع فنى بديع . أبوه مهندس فنان ابدع العمارة الحديثة ، ونشأ الابن هنرى حبيب عيروط فى بيئة تؤمن بالإنشاء والتعمير . وعاش يدور فى هذه الحلقة المفرغة وهى أن يفعل شيئاً لوجه الله والوطن كما يقيم أبوه الصروح ويرفع البنيان . ووجد ضالته فى أن يترجم هذه الرسالة من بحوث ودراسات إلى واقع يعود على طبقة الفلاحين بالخير . وقام فى زهنه إن مصدر العلة كامن فى الجهل المطبق الذى يغشى جماهير الفلاحين ؛ ورأى أنه لو صرع هذا الجهل لأخذ الفلا ... طريقهم إلى حياة النور ، تعينهم على التحرر من الفقر والمرض . ووضع نصب عينيه أن الطريق شاق ، والمعركة متشعبة ، والأعداء يتربصون بالفلاحين الدوائر ؛ وإن المسألة لاتعالج بالصيحات ، ولا العظات ، ولا تدبيج المقالات ؛ بل تقوم على العمل الصامت والإيمان الراسخ بحق الفلاح فى هذه الحياة .

وتلفت الرجل فى ذلك الحين حوله فوجد أن الميزانيات الحكومية غير راغبة فى مواجهة المشكلة على هيئة صادقة ، ورأى أن خطب العرش حافلة بفقرات معسولة عن محاربة الجهل والفقر والمرض ، وأن تصريحات المسئولين الرسمية تدور فى فلك خطب العرش ولكن الأعوام تمضى فى أعقاب الأعوام دون أن تتحقق هذه الأقوال وشرع من فوره فى إنشاء المدارس المجانية فى القرى النائية المحرومة من معاهد التعليم والثقافة ، فارتادى هذه القرى وعاش بين رحابها ينشىء مدرسة تلو مدرسة ، حتى

تجاوز عدد مدارس الأب عيروط المائة مدرسة . وفى الوقت الذى كان الالتحاق بالمدارس وقفاً على أبناء الطبقات ذات الوفرة ، وعلى أبناء الطبقة المكافحة التى تريق ماء وجهها عن طريق كسب الحقوق بالوساطة ، فى هذا الوقت ، فتحت مدارس الأب عيروط أبوابها لراغبي العلم بالمجان . وأدار الأب عيروط مدارسه بحزم وصدق وإيمان لا ينظر إلى منفعة ذاتية ولا يبغى من وراء ذلك جزاء بل يريد صوغ المواطن صياغة جديدة ليشعر أن بلاده لا تنساه ، فأنشأ بذلك جيلا جديداً من الشبان الذين عرفوا متعة العلم والنور ، وزود مناهجه بما يبعث روحا جديدة بين هؤلاء الطلاب والتلاميذ ، فنفث فيهم من روحه وذلك ليعينهم على التحرر من الفقر والمرض ، وبذلك يكونون النواة الصالحة للوطن الجديد . وقد أعان الرجل على النجاح ، أنه يحمل بين برديه أروع الفضائل الإنسانية فإذا بها فى نفوس أبنائه التلاميذ وبين أسراتهم المتعددة فى ريف البلاد . استجابت هذه النفوس المتعطشة للعلم ، والنور والتقت بحكمة الشيخ المجرب ، وفلسفة العالم المتدين فامتزجت الأرواح وقام بينها مفهوم جديد لإصالة الحياة . والأب عيروط يزرع فى نفوسهم حقيقة واضحة وهى أن الفقر والجهل والمرض ليست هبة من الله يختص بها عباده الكادحين بل أن بارىء السماوات والأرض أوجب على عباده أن يعملوا وأن يأكلوا من ثمار أرضهم حلالا ، وأن يغسلوا أوضار العلة ، فتحركت النفوس للثورة على هذه الأوضاع المزرية .

وبدت فى القرية روح جديدة تتطلع إلى مستقبل جديد وبخاصة أن دور الفلاح فى الحياة المصرية دور فعال ولم يقف الفلاح منها يوما من الأيام موقفا سلبيا برغم حالته الاجتماعية السيئة . القرية هى المصنع الأول للرجولة وهى المصنع الذى يديره الفلاح طوال السنة ، يصدر عنها الكثير من أسباب الرغد والعيش ولا تشاركها فى ذلك المدينة . أن قدرة الفلاح أتاحت لنا ألوانا متباينة من الغذاء ، وصبر الفلاح وجلده على العمل هيأ لنا هذه السواعد التى أقامت صرح الحضارة المعمارية ، شقت الترع والجسور ، وأنشأت منذ قديم العمائر الضخمة ، وتوجت جهادها بإقامة السد العالى فى مدينة أسوان . كل نبضة من نبضات الحياة المصرية تخفق متأثرة بجهاد الفلاحين منذ أن كان التاريخ . ولم ير الفلاحون يوما من الأيام أحد أبناء

الطبقات الأخرى يهرع إلى الحقل ليعاون الفلاحين أو يساعدهم فى أوقات الحصاد وأوقات الغرس بل نرى الفلاحين يهبون إلى المدينة كلما حاق بها خطر أو هددتها كارثة . ومن عجب أن يلقى أبناء المدينة الأعباء على المتطوعين ليفرغوا هم إلى ملذاتهم وإسرافهم فى حياتهم الخاصة .

وهكذا يعيش الفلاحون بعيدين عن الوجدان الذى تزخر به المدينة ، وقد تطلعت القرية فى الماضى إلى وجوه القادة وأصحاب الرأى والفكر فلم تفز بواحد منهم ، إلا أبان المعارك الانتخابية حيث تزحف أرتال السيارات . ويكثر الخطباء ، ويبرع الشعراء ، ويتنافس عملاء الدعوات الحزبية فى استرضاء الفلاحين والإلحاح فى شرف الحصول على أصواتهم فى المعارك الانتخابية ، وهنا تبرز حقيقة الفلاح على ألسنة السادة الشرفاء والنبلاء . وتصبح هذه المعارك بمثابة أحكام رد الاعتبار للذين ظلموا طوال السنوات الماضية ، والفلاح لا تخدعه هذه الظواهر السياسية فقد مرن عليها وعرفها ولكنه بدوره يسخر فى أعماق نفسه من أولئك المشعوذين والدجالين والنصابين . ويعلم أنه سيعود إلى عزلته عند إغلاق صناديق الاقتراع . ويظل منتظراً عودة الفرص فى مناسبة جديدة . ومن المؤلم حقاً أن يستهدف الفلاح إلى كوارث الأوبئة فلا يتحرك له ضمير الإنسانية المهذبة المستقر فى وجدان السادة الأثرياء والقادة من السياسيين ، غير أن هذا الضمير قد اهتز مرة واحدة يوم أن تفشت فى البلاد الكوليرا ، هذا هو الحادث الفريد الذى زلزل وجدان الزعماء والرؤساء والنبلاء ، فتسابقت جحافلهم إلى القرى فى صعيد فى مصر وفى أشهر الصيف القاتلة . وقد دق الفلاحون كفا بكف ، وأعلنوها كلمات شكر لهذه الإنسانية الرائعة الكريمة ، ونسى المسكين ألمه أمام الخدمات الصحية والاجتماعية ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر حقيقة مؤلمة وهى أن الدافع لهذه الإنسانية إنما يرجع إلى أن الأثرياء ورجال الإقطاع رأوا أن الكوليرا تقضى على حياة الفلاحين وتحصد أرواحهم حصداً وبذلك يتهالك الاقتصاد الوطنى الذى يستقر فى مواسم الحصاد فى جيوب الأغنياء وخزائنهم . فهم فى الواقع يدافعون عن كيانهم قبل أن يكون حافزهم على هذه الخدمات حافز إنسانى ، مصدره الإحساس بالأخوة والمشاركة الوجدانية فى إقامة بناء الوطن الشامخ .

إن أثر الفلاحين فى الحياة المصرية بالغ الوضوح . والفلاحون ليسوا جامدين بل أنهم يتحركون فى دائرة التطور تحركا بطيئاً ، تبدو آثاره فى تدعيم موكب الحضارة والإزدهار ، وهم بطبيعتهم يتكلون على المولى الذى بيده كل أمر ، ولكنهم يقارفون صناعة الزراعة فيغيرون أساليبهم كلما أفصحت تجاربهم عن زيادة فى الإنتاج . ونراهم لا يسكتون على الضيم بل يحاولون جاهدين فى استبدال سيد بسيد ترقباً للضربة القاضية ، وهم يسهمون فى إسقاط الطغاة ، ويريدون حياة الحرية والاستقلال لبلادهم وإن لم ينعموا هم بثمار هذه الحرية وذلك الاستقلال . ولم يقفوا أمام العقيدة موقف الجمود والصلابة بل استبدلوا ديناً بدين ، لا رغبة فى التغير بل سعياً وراء المنطق الداخلى الذى يرجحهم إلى دين يتفق وطبائع الأشياء . وقد غيروا لغتهم وتعلموا لغة جديدة رأوا فيها الأداة الطيعة التى تعينهم على التفاهم والخطاب . نوعوا فى حاصلاتهم الزراعية فكثرت وتعددت ، ولكنهم عجزوا عن شىء واحد وهو قانون العلاقات العامة التى تحكم الرباط بين أواصر الفلاحين وطرائق عيشهم التى ورثوها عن الأجيال الماضية . فالوشيجة التى توثق الصلات بين مجتمعات الفلاحين تستمد قوتها ومكانتها من ولاء الفلاح لطرائق العيش وأسلوب العلاقات العامة ، وإن كان هذا الالتزام ليس قانوناً طبيعياً وإنما هو من باب الطرح التاريخى ، وقد أثبتت الأيام فى السنوات العشر الأخيرة أن الثورة العنيفة قد هزت الفلسفة الريفية الموروثة عن العهود السابقة . وبدأت براعم الزهر الجديد تبتسم فى وجه حياة أفضل ، ونحن نشاهد جمال هذه الابتسامة ترتسم على شفاه القرى الحديثة بمديرية التحرير . ثم نلمح معالمها فى السياسة الطويلة المدى الرامية إلى القضاء على القرية التقليدية وأن تستبدل بها قرى جديدة توائم سياسة الإنشاء والتعمير . أن اليد السحرية التى ستمتد إلى أكثر من أربعة آلاف قرية هى يد العقل الكبير الذى يؤمن بالإنسانية المثلى وبحق الفرد — كل فرد — فى شركة الوطن العربى .

وإنى لأذكر هنا فى هذا المقام أن طلبة الهندسة فى سنة ١٩٤٣ قد وضعت مشروعاً لتطوير العمارة فى القرية المصرية . وكان من بين المقترحات أن تتنازل الدولة عن جزء من حصيلة الجمارك التى تتدفق إليها من المواد الخام الحديد والخشب لحركة تطوير

القرية : وأن يكون النقل بالسكة الحديد بنصف القيمة . غير أن المشروع مات فى المهد ، وكانت الحجة أن الميزانية لا تسمح ، ولكن أثير وراء الستار أن المدن ورجال الإقطاع يخشون الثورة عندما يرى الفلاح النور يتسرب قوياً بين دروب القرية ومسالكها ، وإن إحساس الفلاح بآدميته سيدك حصون الطغيان وبذلك تصبح البلاد فى حل من الولاء للنظم التقليدية البالية العتيقة ، وهى النظم التى يحكم بها الملوك البلاد .

وقد تكون رسالة الأب هنرى حبيب عيروط ، فى أيامنا هذه ، قد استنفدت أغراضها ، ولكن هذا القول مردود إذا علمنا أن الأب عيروط وضع رسالته فى عصور الظلام والجبروت والطغيان ، فقد دق الرجل الأجراس فى برية متوحشة ، وهزم رنينها فى دوائر القصر والدوائر السياسية المغيرة على الاستغلال والاستفادة من عرق الفلاح لارتفاع دخل السادة . وإن كنا لا ننكر أن الحركة السياسية فى نصف القرن الأخير قد أكسبت الفلاحين بعضاً من أثرهم القوى فى هزائم فرعية فى معارك التنافس على أى الأحزاب يصل إلى مراكز الحكم ، لقد هزم إقطاعيون أمام بعض أبناء الطبقة الوسطى فى الانتخابات غير أن السياسة العامة قضت على هذه الروح بالتلاعب فى قانون الانتخاب بحيث صار التزييف الانتخابى ظاهرة عادية فى شتى المعارك التى شهدتها مصر فى حياتها البرلمانية قبل الثورة المباركة .

اقتحمت رسالة الأب عيروط هذا الميدان الوعر ، وأبرزت المعالم السعيدة التى يحلم بها المعلمون المخلصون — فقد حرص الأب عيروط على أن ينتهج فى بحثه الأساليب العلمية الحديثة ، وأن يقيم دراسته على منهج فنى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فهو يستعرض البيانات الرسمية ، ويطرح أمامه الأسانيد المختلفة ثم يقبل على السليم منها ويدع المتهالك والضعيف . صاغ رسالته فى أسلوب العالم ولغة الأديب الراسخ وبلاغة الخطيب المؤمن ، ولم يكتف الرجل بما أشق نفسه به عند جمع البيانات والمستندات بل سعى إلى الفلاح فى قريته وسار نحوه فى حقله وتتبع ظله بين دروب الحياة ومسالكها ونفذ إليه وهو غارق بين التربة ونبتها مسطل فى عظمة بين البذرة المنبثة اللينة ، بارزة معالم شخصيته بين رقائق طمى النهر

تغطى أرض البلاد وأديمها ، وعثر عليه بين أطباق العناصر الطبيعية التى تتألف منها أنشودة الفلاح فى القرية المتواضعة ، ترهقه مظالم البيئة ، وتعانده القوى الحاكمة فى ثوب من الدهاء والمكر والخديعة ، فهى تعذبه باسم الحنان ، وتسجنه باسم الحرية ، وتذبحه بحقه فى الحياة . واستفاد الأب عيروط بطبيعة تكوينه الوجدانى فتسرب إلى داخل أعماق الفلاح ووقف على مواطن العلة ، كما وقف على منابع القوة ، فامتزجت الروحان ، روح رجل الكهنوت بروح الفلاح الوثابة الصابرة ، مس رجل الدين شغاف قلب الرجل المادى ، فاستفاد من تصوف الفلاح وزهده ، وأعد من هذا المزيج عجينة طيبة تؤذن بالخير والنعيم . ولا غرابة إذا تناول الأب عيروط قضية الفلاحين بريشة الفنان التى ورثها عن الأسرة الفنانة فى هندسة المعمار ، وأسلوب الأديب البارع التى شهدتها منابر الوعظ والإرشاد ، وروعة خيال الشاعر الذى قضى لبانة حياته بين نضارة الريف وندرات الندى التى تفيض بالهمسات الرقيقات ، وأخذ يرشف من نبع الفلاح الصافى ، وهو نبع يفيض بذوب ملامح الإحساس بوجوب ممارسة الفلاح الحياة الحقة لقاء ما قدم لموكب الحضارة وقدر ما بعد من ميدان العلم والثقافة . ثم تعقب الرجل أبناء الفلاحين الذين نزحوا عن القرية فأصابوا من العلم وفرة ومن الثقافة قدراً ، واستقرت طبيعة عملهم فى المدينة ، فكان منهم المعلمون والمهندسون والأطباء ، ورجال الفكر وأبناء الحرف والمهن الصناعية والتجارة والزراعة ، ولكنهم لم يؤدوا ضريبة ذلك لقريتهم التى نشأوا بين طرقاتها المظلمة ودورها المحطمة ، واكتفى الفلاح بفخره وزهوه بأنه هو الذى هيأ لبلاده القافلة التى ارتادت كافة ميادين الحضارة والتقدم والعمران .

ومن حق التاريخ أن يسجل جهود الفلاحين ، لا فوق بساط الأرض الأخضر ، ولا من وراء الثروة الزراعية والحيوانية ، بل ليسجل له نتاج سواعده فى شق الترع والجسور وتعبيد الطرقات ، وتهذيب مجرى النهر ، بما أنشأ من سدود ، ويسجل له البصمات الفلاحية على المعابد والهياكل والآثار الشامخة ، ويسجل له جهوده فى إقامة العمارة فى المدن المختلفة والحصون العتيدة ، والقلاع المتناثرة فى العواصم المصرية منذ فجر التاريخ إلى يومنا الراهن . ويسجل له الأرواح التى أزهقت فى الصحراء

الشرقية وهو يشق قناة السويس ، ينعم بخيرها العالم كله ، إلا البلد الذى شقت فى كبده ، ثم يسجل له ما قدمه فى الجنوب ، فغير مجرى النهر باقامة السد العالى ، وأنه أبدا الجندى الصادق النية يلبى أمر القائد الحكيم فى كافة معارك السلم والأمن وعمارة الوطن .

وعندما جاءت الثورة ، وأمعن قائدها جمال عبد الناصر النظر فى حياة هذا الفلاح وهو القائد الفلاح الذى عرف تاريخ آبائه وأجداده ، وجه طاقة الإبداع لهذا الفلاح فوضع سياسة جديدة ترمى إلى خلق الفلاح خلقاً جديداً ، قامت دراسته على العلم والفن . العلم يبنى المادة والفن يبنى الروح ، الأول ينشىء والثانى يهذب ، وجعلهما يسيران فى طريق واحد ، كل منهما يكمل أخاه ، فى سرعة وقوة وشجاعة . وأولى الهزائم التى أوقعها بالتراث الموروث هى إصدار قانون الإصلاح الزراعى حيث أتاح الفرصة للفلاح المنتج ليصبح مالكا للأرض التى رواها بعرقه . ثم أنشأ الجمعيات التعاونية التى صارت ملجأ للفلاح الصغير يفزع إليها كلما ضاقت به السبل فى توفير المال للزراعة ، وركز الحاصلات الزراعية وفق قانون علمى ، وأمد الفلاحين بالتقاوى المنتقاة ، وقضى على الفوضى الزراعية بالتجميع الزراعى ، وعدل قانون العمد وبذلك فتح المجال أمام الفلاحين لاختيار الشخصية التى يرضون بها ، وكانت من قبل تفرض عليهم العمودية فرضاً بحكم الوراثة فى القرية ، وقد أحالت كل هذه القوانين مركز الثقل إلى القرية ، فجعلت من الفلاحين المحور الذى تدور عليه حياة الفلاحين أنفسهم عن رضا وطواعية .

ومما يسعد الآب عيروط أنه يلتقى والسيد الرئيس فى شرف خدمة الفلاحين ، وبذلك برزت صورة الفلاح الحديث مجلوة للبصر والبصيرة - كانت صورته بالأمس ممثلة فى لوحة فنية تقع عليها عينا أبناء المدينة وهم يجتازون البلاد بالقطار أو السيارة حيث يرون صورته من وراء زجاج النوافذ ، أما اليوم فإنهم يشهدون حدثاً جديداً فى تاريخنا القومى والإنسانى ، يشهدون صورة رائعة للفلاح الجديد الذى يرسى قواعد الحياة الجديدة للأجيال المقبلة . يشهدون صورة الفلاح المصرى وعلى شفتيه

ابتسامة عريضة وقد زحزحت الهموم واليأس والقنوط من بين ضلوعه . لم يعد يتطلع إلى الماضى بل ينظر إلى المستقبل .

أن كافة الثورات التى شهدها التاريخ لقيت من الناس المعارضة والمقاومة وذلك لأنهم ألفوا الحياة الرتيبة ، وأكثر الناس معارضة الثورات هم الأقوياء والأثرياء والعلماء ، ثم ما تكاد الثورات تستقر حتى تبهر كل منها ملامح الحياة بالقوة والمنعة . يعارض الأقوياء الثورة خوفاً على قوتهم من الزوال ، يعارضها الأثرياء خشية أن تمس ثرواتهم ، يعارضها العلماء رغبة فى الإبقاء على القوانين التى قامت عليها الحركة العلمية . ثم ما تلبث الثورة أن تأخذ سبيلها إلى الأمام ويؤمن القوم جميعا بأن الطفرة كانت واجبة منذ زمن بعيد . وهكذا الحال مع الثورة المباركة ، يؤمن الناس بها عندما تبزغ شمس الإنتاج وعندما يقف الناس فى محراب وطنهم كتلة واحدة فى سبيل العمل والاستمرار . هذا المعنى وحده يريح أعصاب الأب عيروط وهو أبو قضية الفلاح المصرى . أنه اليوم يعيش مرتاح البال عندما تترجم أحلامه إلى أعمال ، ويصبح الخيال حقيقة ، والفكرة موضع التنفيذ .

سيرى القارىء بين يديه رسالة تتحدث بنفسها عن نفسها . رسالة ترجمت إلى أكثر من لغة . استهوت رجال الفكر والثقافة بما فيها من إبداع فنى . اجتذبت رجال الإصلاح بما فيها من خطة محكمة . استهوت طبقة الفلاحين والعمال بما جمعت من صور صادقة . وأقبل عليها العمال بوصفها مرجعا يعودون إليه فى مضمار البحث والدرس . وروعة هذه الرسالة أنها لم تصدر فى عهد الثورة حيث توفرت حرية القول وحرية العمل وحيث تأكدت أسباب الثورة من أجل الفلاح ، بل أن روعتها أنها صدرت فى عهود الطغيان فزلزلت تحت أقدام الملوك والرؤساء قوائم العروش وأعمدة الحكم . وعمله هذا جدير بالتحية والإجلال والشكر العظيم . حرص الأب عيروط على أن ينشىء العقول وأن ينشىء الأجساد دفعة واحدة . وقد أمن السيد الرئيس على هذا فألقى فى جموع الشباب فى صيف سنة ١٩٦١ خطاباً ثورياً قال فيه أن إنشاء العقول وتربية الضمائر أصعب من إنشاء المصانع والمعامل .

كانت القرية فيما مضى بعيدة عن وجدان الحاكمين ، أما اليوم فإنها تعيش فى قدامة خرمهم على أن ينقلوها من صورتها التاريخية القديمة إلى صورة حية حديثة .
كانت القرية كالأديرة . صوامع لا يذهب إليها الرؤساء إلا فى وقت الحاجة الملحة أما اليوم فإنها كعبة تحج إليها أفكار المتقدمين فى أساليب العلم والحضارة والعمارة .
وقد هاجر الأب هنرى حبيب عيروط من صومعة المدينة إلى مواقع القرية ، وخرج من وراء جهده المضنى برسالته الخالدة عن « الفلاح المصرى » .

وإذا كان لنا أن نقدم الرسالة بكلمات أخرى قليلة فإننا نقدمها بقليل مما تناوله الميثاق فى الباب السابع حيث يقول :

« أن كفاية الفلاح المصرى على امتداد تاريخ طويل عميق بالخبرات المكتسبة من التجربة قد وصلت فى قدرتها على استغلال الأرض إلى حد متقدم خصوصا إذا ما أتيحت له الفرصة للاستفادة من نتائج التقدم العلمى للزراعة » .

« يضاف إلى ذلك أنه منذ عصور بعيدة فى التاريخ توصلت الزراعة المصرية إلى حلول اشتراكية صحيحة لأعقد مشاكلها وفى مقدمتها الرى والصرف وهما فى مصر الآن منذ زمان طويل فى إطار الخدمات العامة » .

ويشير إلى القرية المصرية وإلى مسئولية المدينة بقوله :

« أن وصول القرية إلى المستوى الحضرى ليس ضرورة عدل فقط ولكنه ضرورة أساسية من ضرورات التنمية فى غير تعال عليها ومن غير خيلاء » .

« أن المدينة مسئولة مسئولية كبرى عن العمل الجاد فى القرية » .

« أن وصول القرية إلى مستوى المدينة الحضارى وخصوصا من الناحية الثقافية سوف يكون بداية الوعى التخطيطى لدى الأفراد . وهذا الوعى الذى يقدر على مواجهة أصعب المشاكل التى تعترض التنمية وتهددها وهى مشكلة تزايد عدد السكان » .

« إن الإدراك العميق لضرورة التخطيط فى حياة الفرد سوف يكون هو الحل الحاسم لمشكلة تزايد السكان وهو الذى يغير من حالة الاستسلام القدرى حيالها ويضع مكانها الشعور بالمسئولية وإقامة الاقتصاد العالمى على أساس من الحساب » .

محمد العزب موسى

إيضاح

يسعدنا أن نقدم هذا الكتاب فى طبعته الثامنة ، إلى كل محب لمصر ، بعد أن نقحناه ، وأعدنا كتابة بعض فصوله ، على ضوء ماجد من الإحصاءات ، وصححنا الأخطاء ، التى أرشدنا إليها قراؤنا ، وأضفنا إلى هذه الطبعة ، صوراً جديدة ، لم تكن نشرت فى الصفحات السابقة .

وإننا لنقدم شكرنا ، للأساتذة الفنانين ، الذين قدموا معاونتهم الثمينة ، بإهداء الصور التى حلينا بها صفحات الكتاب .

ورغم ما ينقص هذا الكتاب ، من وجوه متعددة ، نعترف بها ، فسيساعد على خلق نهضة جديدة فى مصر ، نهضة تنبع من تربتها ، وتنبعث من روحها .

ومشاكل بلدنا هى مشاكل اجتماعية ، قبل كل شىء ، وأولى هذه المشاكل ، هى تلك المشكلة الإنسانية الأساسية ، مشكلة الفلاح القروى .

يجب أن نعرفه ، وأن نحبه ، لكى نستطيع مساعدته ، يجب أن نكتشفه ، وأن نفهمه .

وإذا كنا نصور آلامه ، ونشخص أمراضه ونبين عيوبه ونقائصه ، فليس ذلك لمجرد نقده أو للتشهير به ، وإنما هو لشفائه وعلاجه من حالته ، وهذه ملاحظة نرجو ألا تغيب عن قرائنا .

وقد ظهر هذا الكتاب — أول ما ظهر — باللغة الفرنسية ، تحت عنوان « أخلاق الفلاح وعاداته » وقامت بطبعه مطبعة payot بباريس . سنة ١٩٣٨ .

وكتب مقدمته إذ ذاك ، الأستاذ André Alix . مدير جامعة ليون . ثم أعيد طبعه بالقاهرة ، باللغة الفرنسية تحت عنوان « الفلاحون » وقامت بطبعه مطبعة « Horus » بمقدمة للأستاذ فؤاد أباظه باشا .

ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية بقلم Huilary way mont بمقدمة لمحمد طاهر باشا وطبعته مطبعة Shindler سنة ١٩٤٦ .

الفـلاحـون عـماد الزراعـة فى مصـر

تمهيد

الفلاح

الفلاح المصرى هو ذلك العامل الدائب على العمل ، تحت وهج الشمس صيفاً ، ولفح البرد شتاء ، يتحدى بثباته وصبره أحداث التاريخ ، وتعاقب الغزاة والفاتحين ، ويظل كما هو ، فوق أرضه المحبوبة ، يقلب ثراها ، ويستخرج خيراتها ، قانعاً بحظه ، راضياً بعيشه منذ القدم .

والفلاح ، ساكن الريف ، هو العنصر الذى سلمت فيه الخصائص ، والمميزات القومية ، ولم يؤثر فيها ، اختلاط الأجانب الدخلاء ، من الغزاة والفاتحين ، إذ كانت تستمد ثباتها وأصالتها من طبيعة الحياة الريفية ، فوق أرض النيل ، وطابعها الزراعى ، لا من عوامل طارئة ، أو موجات عابرة .

وليس الفلاح طبقة من الطبقات ، بل هو مجموع الأمة ، إذ هو ، من حيث العدد ، يقدر بثلاثة أرباع السكان ، ومن حيث التقاليد والعادات ، والصفات الاجتماعية والعنصرية ، يمثل البيئة الحقيقية ، التى تشخص الأمة ، وأبناؤه هم مادة الفئات الأخرى ، من ضباط ، ومهندسين ، وقضاة . ومحامين ، ومعلمين الخ . فهذه الطبقات كلها نابعة من الريف ، ومحتفظة بالكثير من خصائصه ومميزاته وإن تغيرت ملامحها ومظاهرها .

والفلاح يبدو صبوراً ، قنوعاً ، ألف الأرض وألفته ، تتعاقب الفصول ، وتمر الأعوام بالخير وبالشر ، وهو هو ، صبور ، قانع ، دؤوب يستقبل الشمس فى الشروق ، ويودعها فى الغروب ، يظنه من يراه ، أقرب إلى الخمول والاستسلام ، لكنه ، من وراء هذه المظاهر كلها ، إنسان يتصف بأفضل الصفات الإنسانية ، ويتميز عن سواه بأسمى المميزات وأنبلها .

والفلاح عامل هام ، فى حفظ التوازن الاقتصادى والاجتماعى ، وهو ينتج أكثر مما يستهلك ، ولهذا يحفظ على الدولة والأمة ما نسميه « تنفساً منتظما » فى ماليتها .

وطالما خلط الناس ، بين الإنتاج والمنتج ، والعمل والعامل ، والغلة والزارع ، وهم لا يرون الفلاح نفسه ، إذ يكون بعيداً عن الأنظار وقت رؤيتهم للمخازن الملأى بالغلال والمحاصيل .

والفلاح متواضع ، منكر لذاته ، لا يشاهد عليه أحد تبرماً أو شكوى ، أما لأنه لا يحسن الشكوى ولا يظهر السخط والتبرم ، وأما لأنه لا يشعر بالضيق والسخط ، ولا يحسهما الإحساس الكافى الذى يدفعه إلى التذمر والاحتجاج .

لكن الحال الآن آخذة فى التغير والتبدل وقد بدأ الفلاح يعرف قدر نفسه ، ويدرك مقدار الغبن اللاحق به ، ويستيقظ بعد طول السكوت والاستسلام ، وقد أخذت تزول الغشاوة عن الأعين ، ويرى الجميع ما كان يلقاه الفلاح فيما مضى من غبن . وهضم لحقوقه ، وما كان يعانيه من ظلم الدولة والأمة له ، وتضييع لما يجب له من رعاية . .

وقد جارى الشعراء والفنانون هذا الظلم من عهد « فيرجيل » إلى « جوزيف دى باسكيدو » إذ رسموا لوحاتهم عن الحراث ، وعن جمال الحقول ، وتناسوا رجل الأرض نفسه ، تناسوا الفلاح ، وجعلوا التفاتهم وعنايتهم ، إلى المناظر وحدها ، متجاهلين أو متناسين من كان صاحب الفضل فيها ، وهو الفلاح « مكتفين بأبرازه من خلالها ، وهذا حجب لعنصر من أهم عناصر الحياة الريفية ، وإخفاء لناحية جوهرية من نواحيها ، إذ لا تكمل الصورة الحقيقية ، ألا بإبراز الفلاح ، صاحب الفضل فيها .

لقد رسم هؤلاء الفنانون ، لوحات رائعة للحياة الريفية ، لكنهم نسوا فيها الفلاح نفسه كما قلنا، الفلاح الذى كستها يداه بالخضرة ، ووشتها بالجمال والرواء . وهذا الانحراف الأدبى والفنى ، مشاهد على الأخص ، فيما صدر من المؤلفات والكتابات

عن مصر ، لكبار الكتاب الفرنسيين ، وهم يجعلون من مصر موضوعا شيقاً لكتاباتهم ومؤلفاتهم .

فمنذ سنة ١٩٢٦ ، على سبيل المثال ، ظهرت باللغات الأجنبية ، مئات القصص والمؤلفات الجديدة، دع ما لا يكاد يدركه الحصر ، من المقالات فى الصحف والمجلات ومختلف المطبوعات عن مصر وهذه الكثرة الوافرة ، من الروائع الأدبية ، تمتاز بغزارة الفائدة من وجهات نظر متعددة، وتقدم لنا صوراً شائقة عن الريف المصرى، وهى مع ذلك ، لا تتحدث عن الفلاح نفسه ، إلا فى حيز قليل ، وفى نطاق ضئيل ، حيث تصوره تصويراً ناقصاً ، لا يكاد يحس ، كأنما ذلك الفلاح ، الغاطس وسط الصورة ، لا يبدو من خلالها إلا قليلا ، كأنه ليس ذلك العامل الأساسى لصنع ذلك الجمال والرواء .

حين نقرأ لهؤلاء الكتاب والفنانين ، نجد أمامنا صورة بارزة للأحياء الغاصة المملوءة بالفنادق ، وأماكن اللهو والخلاعة بالقاهرة والاسكندرية ، ثم نرى ، بعد ذلك ، صورة الأهرامات ، ثم المتاحف ، والمعابد ، والمساجد والأسواق ، ثم يأتى بعد ذلك ، حديث مقتضب ، عن المركز السياسى ، والاقتصادى والاجتماعى ، لكننا لا نكاد نجد ، فى هذه المؤلفات ، شيئا عن الكائن البشرى الذى هو حياة مصر ، وأساس وجودها وهو الفلاح .

وسواء من تحدثوا أو كتبوا عن مصر ، من رجال الأدب ، أو من الباحثين والعلماء ، فى إغفال شأن الفلاح فقد عنى الأولون ، بالطبيعة وجمالها وعنى الآخرون بالنواحى الأخرى ، وظل الفلاح نفسه ، مهملا من الفريقين .

كتب مسيو « موديبو » ومسيو موصيرى عن الزراعة . وكتب ويلكوكس ، وبارو ، عن الرى وكتب . الأمير عمر طوسون عن النيل . وأرتين باشا ومسيو أرمينون ، وسينوست . عن الملكية العقارية . وكيفيه ، وهوج عن طبقات الأرض وعن الجغرافيا .

ولا شك أن لهذه الجهود شأنها وخطرها . وقد تحدث هؤلاء عن الفلاح ولكن

فى نطاق علاقته بهذه العوامل الأولية ، وكعنصر متمم لها ، فذكره يرد بمناسبة الحديث عن التسميد ، والحصاد والرى . وبمناسبة الضريبة ، والملكية ، والإنتاج .

إن الفلاح إنسان ، ويجب أن تكون حياته هى موضوع الدرس والتحليل وأن تكون تلك العوامل الأخرى هى التى تدرس تبعاً له ، على أنها مظاهر لحياته ومدنيته ، ودرجة رقيه وتطوره . وعلى هذا النحو ، يمكن أن تفهم مصر فهما صحيحاً :

يجب ألا تكون الأرض فقط هى موضوع دراستنا لمصر . يجب أن يكون موضوع هذه الدراسة ، هو الحياة الإنسانية للفلاح ، روحاً ومعنى ونفساً ، للفلاح كإنسان ، لا للأرض وحدها .

يجب أن يكون فهمنا للجغرافيا البشرية على النحو الذى أدركه « فيدال لادى لا بلانش » . الوصف التحليلى العلمى للحياة النفسية والاجتماعية للفلاح ، فى إطار حياته المادية ، وعلاقته بأرضه التى يعيش فوقها ويتخذ مرافقه ، وعدة حياته من العمل فيها . بهذا تكون الدراسة التحليلية الصحيحة التى يهدف إليها كتابنا ، دراسة الشخص ، والإطار الذى يحيط به ، تصوير الحياة الحالية لذلك الإنسان الذى يعيش فوق أرض مصر ، ويحولها إلى وطن تحيا فوقه أمة ذات صفات إنسانية .

هذا الفلاح المكافح الدءوب ، الذى يبدو وكأنه مدفون فى ثرى وطنه ، بينما هو يحيا فى هذا الوطن حياة الكفاح والدأب .

هذا الفلاح هو الذى نحاول تصوير حياته ، وإماطة الظلام عنها فى هذا الكتاب .

ولن نطيل هنا بذكر ما هو معروف من تاريخ مصر ، ووصف إقليمها ، فقد تكفلت بذلك الكتب والمؤلفات الكثيرة التى تناولت هذه النواحى . ونحدد هنا ما قصدناه بكلمة « الفلاح » فنحن نريد المعنى الضيق لهذه الكلمة . أى الزارع الصغير ، وعامل الزراعة الأجير ، وعلى هذا فلن نتحدث عن عمال الصيد والملاحة ولا عن ذوى المهن الريفية الصغيرة ، فهؤلاء ، وإن كانوا من الفلاحين ولكنهم ،

بنوع الحياة التي يعيشونها ، قد انفصلوا عن كتلة الزراع ، وأصبحت لهم بيئات مختلفة تستحق أن تدرس على حدة .

ولما كان ما عنيناه هو الحديث عن الفلاح المعاصر ودراسته ، فلن يكون ثمت مجال للحديث عن الماضى ، إلا أن تكون لذلك ضرورة شديدة ، ومع ذلك ، فالحاضر يتحدث عن الماضى ، كما هو واضح .

أما المراجع التي اعتمدنا عليها ، فقد أشرنا إليها ، وقد عنينا بدراستها ، واستيعاب ما تضمنته ، وعلى ضوئها ، حققنا ما أردنا أن نحققه ونضبط نضبطه من نقط البحث ، وكنا نعنى ، فى سبيل هذه الغاية ، على الأخص ، بالمؤلفات والنشرات والدوريات التى قام بوضعها كتاب مصريون ، لأنها ، على مابها من أخطاء ، وعلى ما ينقصها من طريقة البحث العلمى ، ترى الأشياء فى مصر من الداخل ، وتتحققها عن كثب فهى أقرب إلى الدقة من سواها .

ونود أن نقول للقراء ، أننا قد اعتمدنا ، فى هذا البحث ، على ما لاحظناه وحققناه بأنفسنا . وقد استغرق منا البحث والاستقصاء ، سنين عديدة ، كانت فيها المشاهدة والتحرى عدتنا ، فنحن من مصر ، ونعيش بين أهليها عيش المواطنين . وقد امتدت مشاهداتنا ، وملاحظاتنا ، طوال السنين ، فى مختلف أنحاء الريف : وفى شتى أصقاع وادى النيل ، حيث لم ننقطع عن المشافهة والمحادثة والبحث والاستقصاء ، وجوب أنحاء البلاد ومخالطة الطبقات حباً فى الكشف والاستطلاع حتى جاء بحثنا ، نتيجة الملاحظة والتأمل الطويلين ، أقرب صورة تقدم للقراء .

لقد جاء هذا البحث وليد المشاهدة والتحقيق ، ولم نكتبه إلا بعد أن أعملنا فيه الروية والأناة ، وبذلنا فيه من جهد الفكر ، وعصارة الذهن ، والشىء الكثير ، ولهذا فنحن نقدمه ، واثقين بما اشتمل عليه من حقائق ، لايداخلها أى شك أوريبة .

ونحن نأمل أن يقدم هذا الكتاب أوضح شرح ، وأوفى عرض لمشكلة الفلاح وأن نفهم عن طريقه مصر الخالدة .

بين الفلاح والحقل

الفصل الأول

الريف الخالد

أن الفلاحين ، الذين سنصف حياتهم فى الفصول التالية ، يزيد عددهم عن ثلاثة أرباع مجموع السكان ، فهم ، بهذا العدد ، وبما هم عليه ، من وحدة العنصر وأصالته يعتبرون ، هم الأمة نفسها ، لا طبقة من طبقاتها الاجتماعية ، هم الأمة بخصائصها ومميزاتها القومية . تلك الأمة التى أنتجت أول حضارة عرفها التاريخ ، أو على الأقل ، أنتجت حضارة من أقدم الحضارات على مجرى التاريخ ، حضارة لها أصالتها ، ومميزاتها الخالدة التى عاشت من عمر الزمن خمسين قرناً ، وهذه الأمة ، ليست أقل شخصية من حضارتها التى أنتجتها . وكانت موضع إعجاب العالم كله .

هذا الشعب العظيم ، خلدت صفاته ومميزاته ، ومضت الأجيال وهو هو لم يتغير من صفاته شىء ، رغم ما تعاقب فوق أرضه ، من حكام ، وديانات ، وثقافات ومدنيات ، ولغات منذ عصور الفراعنة ، وأسراتها الحاكمة ، ذات الشأن فى تاريخها القديم ، وما تلا هذه العصور على التعاقب ، من غزو الفرس ، والإغريق ، والرومان ، والبيزنطيين ثم العرب والأتراك ، وما تلا ذلك من حكم الفرنسيين والإنجليز . فقد غزت هذه الشعوب مصر ، وظلت زمناً ، طال أو قصر ، ومع ذلك فإن قوة الأمة ، وأصالتها كانت أقوى من الزمن ، وأصلب من أحداثه قد بقيت لها هذه القوة . رغم المحن والكوارث حتى تم لها ما أرادته . فحققت استقلالها ، وطردت الأجنبى من فوق أرضها .

ويجدر بنا ، ونحن نتحدث عن أصالة هذا الشعب ، وقواه المعنوية ، أن نشير إلى علاقته بالفنون ، وما حبته به الطبيعة من خصوبة ذهن ، وروعة خيال ، وعمق مشاعر ووجدانات ، وهو بطبيعته وبروحه الفنية ، يميل لتقديس قوى الطبيعة ، وينجذب إلى نوع من الإيمان الشعرى ، منذ عصور الفراعنة ، وقد مرت عليه فى

تاريخه عصور اعتنق فيها المسيحية ، ثم الإسلام وبقيت فى أعماقه آثار ورواسب من العصور القديمة ، البعيدة فى القدم .

شعب يستقبل الحضارات والمدنيات ولكنه لا يفنى فيها ، صبور ولكنه مكافح هادىء ، ولكنه صلب قوى الإرادة .

ومع أن هذا الشعب يعيش فى ملتقى القارات ، وعلى مفترق الطرق العالمية ، فى بلد ، كان مسرحاً لأهم أحداث التاريخ فقد ظل هادئاً ثابتاً ، كقاع البحر تحت الأمواج الثائرة .

وكثير من البلاد ، تغيرت ملامحها وتنكرت معالمها ، مع مجرى التاريخ ، بفعل النزوات والأطماع والمغامرات والشهوات ، ومصر من بين جميع البلاد ، حدث لها ما حدث لغيرها ، ولكن شيئاً من ثبات الطبيعة ، وعمق الكيان ، فى مصر وفلاحها لم يمسه التغير والتحول .

لقد كان الفلاح يصمد للأحداث التي تجرى حوله ، ويقهرها بثباته ، ويصبر لها حتى تمر وتنتهى ، وهو ثابت ثبات الصخر ، وكم بادت شعوب وانقرضت ولم يبق منها إلا الأطلال والدمن ، وقضى عليها المستعمرون وأبادوها ، كما تشهد بذلك معالم حضارات بائدة ، فى بعض البلاد الأفريقية ، مثل الحضارة الكلدانية والأشورية ، لكن الفلاح المصرى ظل يتحدى الزمن ، ويغالب أحداثه ، ويصارع عوامل الفناء والانقراض فيصرعها ، ويبقى هو شامخ الكيان على مر الأجيال .

هذا الشعب المسالم ، الذى يحمل فى أعماقه السلام والمحبة ، كم شهدت بلاده من حروب وثورات ، ولكن التاريخ يشهد أنه كان بعيداً عنها ، إلا فى أحيان نادرة ، فقد ثار فى بعض الفترات ، على حكامه ، حينما أرهقوه بالمظالم والضرائب ، لكن ثورته قمعت بشدة ، ثم لم يعد إلى الثورة بعد ذلك لأن الثورة والدماء ليسا من من طبيعته .

ووحدة الفلاح قويه ، غير قابلة للتفتت ، كصلابة حجر الجرانيت الذى بنى منه معابده وهياكله وهو لم يتطور تطوراً جوهرياً ، بل ظل على حاله ، كتلك الصور الفنية التي تتحدد أول مرة ، ثم لا يعتريها التطور والتحول .

الفلاح عملاق الأرض

وتفاصيل حياته اليومية ، كما تدل عليها نقوش المقابر الفرعونية ، أو الأساطير القبطية ، أو كتابات مؤرخى العرب ، أو المعلقون والسواح الأوربيون يخيل إلينا أنها حلقات من سلسلة ، أو فصول من كتاب واحد ، وإن هذه الأزمان ، التى تفصلها عن عصرنا لم تؤثر فى أشكالها ، أو تغير من ملامحها .

وليس هذا بمجرد شعور أو تصور أو تخيل ، بل هو حقيقة مؤكدة ، يدل عليها وحدة مانشاهده من أدوات الزراعة ، كالمحراث ، والشادوف ، والساقية ، والجاروف ، والمنجل ، والقفة ، وما نراه من العادات ، كالوشم ، والختان ، والكحل ، والحناء ، وحلق الشعر ، وثبات عدد كبير آخر من العادات فى الزواج ، والحداد وغير ذلك .

وأننا لنلمح الفلاح المعاصر نفسه فى عاداته ، وكثير من تقاليده من خلال الصور التى يرويها هيرودوت ، وتيودور الصقلى ، وسترابون ، والمقريزى ، وفانسليت ؟ والأب سيكار ، وفولنييه وغيرهم ، فالفلاح القديم الذى يتحدث عنه هؤلاء هو فلاح اليوم ، بدون تطور أو تحول .

وهنا يخطر لنا هذا السؤال وهو : كيف حدث هذا الثبات الجثمانى وذلك التوازن النفسانى والاجتماعى ، وهذا السمو المعنوى العجيب لشعب من الشعوب ، والجواب على ذلك هو أثر الأرض المصرية والبيئة المصرية . نعم هذا هو الجواب على ذلك السؤال ، وهذا نفسه هو السبب فى ثبات الفن المصرى ، الذى نشأ وتكون فى البيئة المصرية وتلقى عنها وحيه وإلهامه . فالخطوط الأفقية الحادة للصخور فى التلال العربية شرقاً والهضبات والتلال الليبية غرباً ، هى التى أوحت للفنان المصرى الأبعاد ، والخطوط الهندسية المستطيلة المنخفضة السميكة للمعابد الفرعونية وهذا الأفريز الموحد ، وهذه الخمائل من زهر اللوتس ، وعناقيدها المدلاة وأوراق البردى ، والأعشاب المزهرة على شاطىء النيل ، هى التى أوحت بهذه الصور الفنية الخالدة ، التى رسمت على أعمدة الهياكل ، وفوق الحوائط وكستها روعتها وسحرها .

ومنذ الأزمنة البعيدة فى القدم نشأ على ضفاف النيل تآخ بين العقل والطبيعة ، وحرص أصحاب السلطان والحكم ، على توثيق عرى هذا التآخى وشد أواصره .

والفلاح ، بحكم وضعه الغريب بين المالك والأرض ، يجد نفسه بين المطرقة والسندان ، ولكنه أقرب إلى الأرض ، منه إلى الملاك ، وكلما ألحت عليه ضربات المالك ازداد لصوقاً بالأرض .

وقد أصبح هذا الوضع ثابتاً إلى درجة أن الملاك ، إذا استولوا على الأرض ، استولوا على الفلاح ، وإذا استولوا على الفلاح استولوا على الأرض .

وهكذا ، أصبح هذا الثبات ، وهذه الوحدة ، اللذين يحتفظ بهما الفلاح ، يخلقان وحدة وثباتاً من نوع آخر . هما وحدة وثبات التربة المصرية ، وتكون بين هاتين الكتلتين ، ارتباط متين وتوازن تام ، لاتنال منه الأحداث ولا تستطيع الحكومة سبر غوره وهنا ، كما يقول « سولى برودوم » زواج سابق على التاريخ ، بين شعب وحقل قد صنعا نفسيهما فيما بينهما .

ذلك الاتصال الدائم ، بين الحقل والفلاح ، وطول الامتزاج بينهما ، وما نشأ عن ذلك ، من آثار متبادلة ، وما حدث من توافق وتخالف ، أثناء هذا الاتصال ، كل ذلك جعل الصلة تقوى وتتدعم ، من جهة بين الطبيعة والبيئة المادية ، بالمعنى الواسع كما يقول الإنجليز ، أى المناخ والضوء وماء النيل والطمى ، والنباتات على شواطئه وفى واديه ، وما يلى ذلك من رمال وفياف قاحلة ، ومن جهة أخرى ، الإنسان الذى يعيش فوقه ، وبيئته الاجتماعية بالمعنى المحدود ، أى الفلاح ، ومعيشته الضيقة ، فى حدود عاداته ، وقراه المتكدسة ، التى يعوزها النظام ، حيث يعيش الناس ، قريبين من الأرض التى يعرفونها ، بعيدين عن الحكومة التى لايعرفونها .

ولنبتعد بالحديث عن الحظوظ والمقدرات ، فليس لها محل هنا ، ويجب أن نقول ، أن الفلاح ليس ثمرة الريف ، وربما كان العكس هو الأصح والأصدق أى أن الريف هو ثمرة عمل الفلاح .

والأمر لا يتعلق هنا بالخلق والتأثير والفلاح يملك الحرية فيما بين يديه من عمل والحرية ، هى مقدرة المرء على أن يحدد نفسه بنفسه ، والمجال الزراعي مجال للقوى والإمكانيات ، والإنتاج فيه رهن بالعمل والسعى ، وهو يعطى ثماره للعامل أو لصاحب الأرض ، حسبما يكون الواقع .

وقد كانت الكروم والأعناب تغرس قديماً فى حقول مصر ، حيث كان النبيذ يصنع فيها ، فلما جاء الإسلام ، وحرم الخمر قلت أو تلاشت زراعة الكروم التى كانت مادة لصنع النبيذ .

وجاء زمن زرعت فيه شجيرات التبغ على مسطحات واسعة لكن الحكومة منعت زراعته .

والذرة الشامية ، المجلوبة من أمريكا أصبحت زراعتها هى والقطن ، الذى أدخلت زراعته فى القرن التاسع عشر ، فى مقدمة الزراعات كما أعيدت زراعة الكتان وفى الغد ستجد زراعات أخرى .

وجو مصر وتربتها صالحان لمعظم الزراعات ، وهما يلائمان حياة السكان ، وإن كان المناخ لايخلو من تأثير معين على بعض الحاصلات ، والأحياء التى تعيش فوقها .

ومن المعروف أن سكان المدن ، وعمال الصناعات ، أقل ارتباطاً بالأرض . والبيئة والعوامل الاجتماعية والسياسية هى التى تسود حياتهم ، وهذا ما يجعل الجماعة أقل ثباتاً ، ولكن أكثر تقدماً وليست هذه هى الحال فيما يتعلق بالفلاحين الذين يعيشون فى الحقول فطابع الأرض ، يظل بادياً فى حياتهم .

ويعارض مسيو «فيفر» بحق فى تعميات «راذيل» و «براون» حول تأثير البيئة الطبيعية ، ولكن يخيل إلينا أننا — دون أن نمنح قضيتهما قيمة الحقائق التى تنطبق على مجموعة التاريخ والأرض — نستطيع أن نعترف أنها تنطبق — إلى حد كبير — على المجتمع الزراعى ، وذلك أشد وضوحاً ، فى الحالة التى نحن بصددها ، حالة الفلاح المصرى .

أن وادى النيل ، فى تناسقه ، ووحدته وخصوبته ، يخلع هذه الصفات كلها على أبنائه من الفلاحين ، فهم على مثل هذه الصفات نفسها ، من تناسق ، وتجانس ، وخصوبة ، وهاتان الظاهرتان نجدهما على تواز وتساو ، فى مجتمع الفلاح ، وفى رقعة الأرض .

ولقد تغلغل ماء النيل ورواسبه فى كيان الفلاح ، وفى عمله ، وروحه ومسكنه ، وأسرته ، وأصبح الفلاح يستمد فضائله ومساوئه وسائر نعوته من هذا المنبع الفياض الخالد .

ولقد غرس الفلاح نفسه فى تربة وطنه فزاد من خصوبتها حتى ليصح أن يقال أن مصر هبة الفلاح ، كما أنها هبة النيل .

واستمد الفلاح من أرضه ، ما منحته إياه من ثبات ، كما اتصف ، لهذا السبب نفسه ، بالمادية والركود ، وإذن فالسبيل إلى النهوض بالفلاح يستدعى أسلوباً خاصاً ، مبنياً على دقة الفهم ، وعمق الدرس .

يجب انتشال روحه ونفسه من هذا الغلاف الطينى الذى يغشيها ، ويأخذ بمخنقها ، ورفعه ، دون اقتلاع جذوره وتخليصه من مساوى الأرض دون محاسنها وهذا هو واجب المجتمع نحوه ، لكن أى مجتمع ؟ ليس المجتمع المكون منه ومن أمثاله من القرويين ، إذ هم مثله ، مجردون من الحول والقوة . تنقصهم الوسائل والدوافع ، وإنما ينهض بهذا العبء ، من يمثلون القوى الفكرية ، من جماعات المتعلمين والمثقفين ، ومحبى الخير لأمتهم وبلادهم هؤلاء هم الذين يستطيعون الأخذ بيده وانتشاله مما هو فيه .

وفى الفصول الآتية ، سنحلل ، ونفصل ما أشرنا إليه إجمالا ، وسنصف الفلاح الذى نراه ، ونصور ما هو عليه . ورائدنا توخى الحقائق ، ودقة العرض ، والتدرج فى وضوح نحو هذه الغاية الإنسانية الخالصة التى رسمناها .

الفصل الثانى

مصر بلد زراعى

كانت الآراء ، إلى عهد غير بعيد ، تتضارب ، فبعضها يذهب إلى أن مصر لن تكون بلداً صناعياً يعتد به ، وعلى هذا ، فالأجدر بها ، أن توجه جل اهتمامها إلى الزراعة ، إذ هى المورد الأول لحياتها ، وأصحاب هذا الرأى يستندون إلى أن البلاد ليس بها غابات لقطع الأشجار ، ولا مناجم لاستخراج الحديد والفحم ، ويرون أن جوها الحار ، لا يلائم كثيراً من الصناعات ، مثل صناعة النسيج ، وصناعة الغزل وغيرهما .

أما الفريق الآخر ، فيرى عكس هذا ، ويذهب إلى أن من الممكن قيام الصناعات فى مصر ، إذ أن وفرة الأيدى العاملة ، ورخص الأجور ، ووجود خامات الصناعة ، كالقطن وغيره ، كل هذه عوامل تساعد على قيام الصناعة ، ومن الممكن أن تسد هذه العوامل ، النقص الناشىء من عدم وجود الفحم والحديد . كما هو الحال فى بلد مثل سويسرا من البلاد الصناعية إذ ينقصها وجود الفحم والحديد ، ومع ذلك فهى من البلاد الصناعية المعدودة .

ومهما يكن الأمر ، فقد قامت الصناعة فى مصر ، إذ أنشئت فيها معامل للغزل والنسيج ، ولصناعة الطرابيش ، ومواد الصباغة وغيرها منذ القرن الماضى ، وإن كان معظم هذه المصانع ، أو جميعها . لم ينجح النجاح الكامل ، واضطرتها الظروف لغلق أبوابها .

إلى أن جاءت النهضة الأخيرة ، وتنبهت قوى الأمة ، فى شتى المجالات ، واتجهت البلاد من جديد ، إلى الصناعة .

وقد خطت أولى خطواتها فى هذا السبيل ، على يد بنك مصر وشركاته ، ثم انضمت إلى ذلك جهود أخرى ، على يد بعض رجال الصناعة من المصريين والأجانب المتمصرين حتى كان من مجموع ذلك ما يعد بحق ، نهضة صناعية حقيقية .

مصـــر هبـــة النيــــل

وعقب أن اكتشف الحديد والفحم ، فى مناجم أسوان ، وأصبح مشروع السد العالى فى حيز الحقائق الواقعة ثم بدأ العمل فى إنشاء الشبكة الكهربائية ، لتوصيل التيار الكهربائى ، واستغلاله ، فى إدارة المصانع والمعامل ، وما سيجىء بعد ذلك من تنفيذ مشروع منخفض القطارة .

وبعد أن أممت الحكومة ، وأنشأت مصانع الحديد والصلب ، وشرعت فى إقامة محطات توليد الكهرباء ، لخدمة الصناعة والزراعة .

بعد هذا كله ، لم يعد هناك مجال للخلاف القديم ، الذى كان يدور حول الصناعة وهل تقوم فى مصر أو لا تقوم ، فقد قامت الصناعات بالفعل ، وأصبحت مصانعنا تغذى أسواق العالم الكبرى بمنتجاتها ، ودخلت البلاد مجال الصناعة على أعلا المستويات .

غير أن الزراعة ستحتفظ بمركزها فى حياة البلاد ، ومركزها الاقتصادى ، وستكسبها نهضة الصناعة ، قوة جديدة ، بما ستساعد عليه ، من تحسين أساليب الرى والصرف والتسميد ، وبما ستساعد عليه من رواج المحاصيل واتساع أسواقها ، وتعدد أنواعها .

وقد توافر لمصر ، ما لم يتوافر لكثير من البلاد ، من ثرى خصيب ، وتربة سخية ، رطبة رخوة ، ونهر عظيم متدفق فى أرضها ومناخ جاف حار ، وبذلك كانت من أعظم البلاد الزراعية فى العالم . على أنها ، بحسب طبيعتها الأولى ، كانت عبارة عن رمال جرداء ، وتلال من الجرانيت ، وفياف لا تصلح للإنبات ، هذه هى البلاد المصرية ، فى أصل تكونها ، لم تكن أكثر خصباً من جزيرة العرب ، أو من ليبيا ، وهى البلاد المجاورة لها ، التى يسكنها رعاة رحل ، وقبائل متنقلة ، ترتاد الكلأ ، وتنتجع المرعى ، لولا ذلك النهر الذى يشق تلك الصحراء الأفريقية ، ويفيض عليها الحياة ، والخصب . ذلك هو نهر النيل العظيم الخالد .

ليس النيل نابعاً فى أرض مصر ، ولكنه يأتيها من منابعه البعيدة ، من البحيرات الاستوائية ، التى تتجمع مياهها من مساقط الأمطار ، على مسيرة خمسة آلاف من الكيلومترات ، ماراً بمناطق شديدة اختلاف التربة ، والمعدن ، مما جعله يتحمل

برواسب غنية ، تكونت من تفتت الأحجار ، وذوب المعادن ، خلال هذا السفر الطويل ، فى الآفاق المترامية ، تحت أشعة الشمس ، وهبوب الرياح مما ضاعف من غناه ، واستلائه بالمواد الفوسفورية ، والأوزتية المخصبة التى يحملها معة إلى ثرى مصر ، ويودعها فى أرضها المباركة .

وهكذا تكونت ، بمرور الزمن ، فوق الجرانيت ، والرمال ، طبقة ثرية من الطمى والزبد ، يتراوح سمكها بين عشرة أمتار وثلاثين متراً ، حسب الجهات والمناطق . وهذه الطبقة من الطمى ، مكونة من مواد وعناصر ممتزجة ، تحتوى على أفضل المخصبات ، ومشتملة على المواد المعدنية والملحية اللازمة للتربة ، حملها الفيضان من النيلين الأبيض والأزرق .

تربة من أغنى وأسخى مثيلاتها فى العالم ، والجدول الآتى يبين ما تشتمل عليه من عناصر ومعادن . وسنزيد ذلك بياناً وإيضاحا حينما نعرض للكلام على غذاء الفلاح .

وهذه التربة التى جاء بها النيل ، يتعهدها النيل كل عام . حيث يحمل إليها الطمى والرى فى فيضانه السنوى . الذى ينساب فى القنوات والجداول تحت إشراف وتنظيم رجال الرى المكلفين بالإشراف عليه .

وطريقة رى الحياض ، وهى الطريقة المتبعة من أقدم العصور ، يروى بها الآن أكثر من مليون فدان ، حيث يجرى الماء زمن الفيضان فى قنوات لتوصيله إلى الحياض ، وهى مسطحات واسعة محاطة بجسور ، يغمرها الماء ، ويفيض عليها ، ويتخلل تربتها ، وما يطفو على السطح ، تتشربه الأرض بعد فترة من الزمن ، وتكون قد رسبت فوق السطح طبقة من الطمى تجدد خصوبة الأرض من العام إلى العام ، وينال كل فدان من هذا الماء ٧٠٠٠ متر مكعب ، تترك فوقه من الطمى نحو ثمانية أو تسعة أطنان . وفى نوفمبر يبذر القمح . ثم يأخذ فى النمو حتى يدرك النضج والحصاد دون احتياج للرى بعد ذلك .

وتظل الأرض خالية من الزراعه حتى موعد الفيضان التالى . على أن الزراع فى أراضى الحياض هذه ، يزرعونها زراعة صيفية ، ويروونها من المياه الجوفية ، يستخرجونها بواسطة الآلات الرافعة المركبة على الآبار وقد انتشرت تلك الطريقة

	مصر السفلى		مصر العليا	
	طنطا	المنصورة	أطسا	مطاى
	٪	٪	٪	٪
بوتاس	٠,٥٥	٠,٥٦	٠,٦٣	٠,٧٦
صودا	٠,٥٨	٠,٧٠	٠,٧٣	٠,٧٤
جير	٣,٣٨	٣,٢٨	٥,٥٣	٤,٤٧
مانجانيز	٢,٨٨	٢,٦٦	٢,٧٥	٢,٨٩
أوكسيد المانجانيز	٠,٢٢	٠,٤٥	٠,٢٤	٠,٢٦
أوكسيد الحديد والشبة	٢٣,٣٦	٢٤,٠٩	٢٠,٢٣	٢٤,٣٩
حامض فوسفوريك	٠,٢٠	٠,٢٣	٠,٢٢	٠,٢٨
حامض كاربونيك	٠,٦٧	٠,٨٥	٣,٠٣	١,١٠
كلوريد	٠,٠٩	٠,٠٣	٠,١١	٠,١٠
مواد عضوية غير قابلة للتحلل	٧,٧٩	٧,٧٦	٧,٣٨	٧,٧٨
مواد رمل	٦٠,٢٧	٥٨,٥٨	٥٩,١٦	٥٧,٢٣
نيتروجين	٠,٠٧	٠,٠٧	٠,٠٥	٠,٠٩

أبحاث كلية الزراعة بالقاهرة

انتشاراً يكاد يكون عاماً فى تلك الجهات حتى تغير بذلك نظام الزراعة فيها ، فأصبحت تزرع مرتين بعد أن كانت لا تزرع إلا مرة واحدة .

أما طريقة الرى الدائم التى أدخلت فى سنة ١٨٤٠ بفضل الأعمال والمنشآت الفنية وأهمها خزان أسوان فتروى بها الآن ، دلتا النيل ، وجزء غير قليل من الوجه القبلى (٤,٣٠٠,٠٠٠ فدان) .

وبنظام الرى الدائم ، أصبحت الأراضى ، بعد أن كانت حياضاً تغمرها المياه ، مساحات مزروعة ، تتخللها القنوات والجداول ، تجرى فيها المياه ، محكومة بالقناطر

والسدود ، وتوزع المياه بقدر ، لرى الأراضى على مدار الفصول ، وذلك على النسق الآتى :

١ — فى زمن الفيضان (من أغسطس إلى أكتوبر) لا تكون الأرض مغمورة بالمياه بل مروية فقط ومزروعة . وتلك هى الزراعة النيلية .

٢ — زمن انحسار الفيضان (من نوفمبر إلى إبريل) تكون الأرض ندية رطبة تحتاج إلى رى غير كثير (فترة الزراعة الشتوية) .

٣ — زمن الجفاف (التحاريق . من إبريل إلى يوليه) تفتح الخزانات لكى تعطى المياه اللازمة لنضج المحصول الصيفى .

ومن المقرر أن الأرض — لكى تحتفظ بقوتها وخصوبتها — يجب أن تتعهد بالرى ، كما يجب أن يسمح لها بالتنفس ، ويتم لها هذا التنفس ، عن طريق التشققات التى تحدث فى التربة ، بفعل الجفاف أيام الصيف تحت أشعة الشمس الشديدة الحرارة إذ يتم بذلك للأرض استرداد جفافها وقوتها ، وتتطهر من الأملاح ، ويتخللها الهواء ؛ وذلك يجدد قوة التربة وخصبها كما هو ثابت علمياً .

وهكذا نرى النيل ، بمساعدة الشمس . يساعد على تهيئة الأرض للزراعة ، وهو يخلق ، على هذا النحو ، البيئة الطبيعية للفلاح أو « مصر الحية » .

والواقع أنه فى الجهات التى لا تصل إليها المياه تظهر الصحراء فجأة ، ويبدو منظرها القاحل ، حسبما نشاهد فى الأطالس الجغرافية التى توضح لنا خريطة مصر ، حيث نرى الوادى الأخضر ، على شكل شريط ضيق ، مرسوم على سطح شاحب أصفر اللون .

ومن أعلا قمة الهرم الأكبر . فى ضواحى القاهرة ، أو من أى موقع فى الصعيد الأعلا يبدو للناظر هذا الخط الفاصل بين الزراعة وبين الصحراء ، حيث يقف على حافة ذلك الحيز الضيق ، الممتد على جانبى النيل ، عمل الإنسان وجهده ، وتبدو أمامه آفاق الصحراء الممتدة التى لا يدرك الطرف نهايتها .

واد من الأرض المستوية ، يمتد بين سلسلتى الجبال الليبية ، والعربية الصخريتين

بطول ١٥٠٠ كيلومتر وبعرض : كيلومتر واحد . عند وادى حلفا ، وخمسة كيلومترات عند إدفو ، وأربعة عشر كيلو متراً تقريباً . فى المسافة بين الأقصر وأسيوط ، حيث يضيق مجراه من جديد ، و ٢٥ كيلومتراً عند بنى سويف ، حيث يتفرع نحو الغرب (الفيوم) ثم ينفرج فى الدلتا فيصير عرضه ٢٦٠ كيلومتراً . ومجموع هذا يبلغ ٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع من الأراضى المزروعة وسط مليون كيلو متر من الرمال القاحلة أى ثلاثة فى المائة من مجموع الأراضى المصرية ، تلك هى مصر الحية المأهولة المسكونة .

يرسم النيل لنا صورتها ، فى شكل زهرة عملاقة من زهور اللوتس ، جذراها وهما النيل الأبيض والنيل الأزرق ، مغروسان فى قلب أفريقيا ، عند جبال الحبشة العليا وفى بحيرة الكونجو الكبرى ، ينبتان عند الخرطوم ساقاً وحيدة تتغلغل فى مصر ، ضيقة عند وادى حلفا ولا تخضر إلا فى اسوان ، وهى تورق ورقة فى بنى سويف (بحر يوسف : الفيوم) وتزهر فى القاهرة ، وتتفرع إلى أغصان لا تحصى ، عند فرعى رشيد ودمياط ، ثم تلحق بالبحر الأبيض المتوسط ، من خلال أهداب بحيرات : مريوط وأدكو ، والبرلس ، والمنزلة التى تمتد من الشرق إلى الغرب عند مصب النهر .

هذا الوادى الذى يشق طريقه ، بين الرمال والصخور من الجانبين ، يختال فى خضرته السندسية ومياهه العسجدية ، وريفه المملوء بالخيرات والثمار يلف فى ردائه القرى والمدن ، ويحتضن بين دفتيه حضارة بعيدة الجذور فى أعماق التاريخ .

تتراءى حقول الذرة ، حيث ترتفع أعوادها الخضراء حتى تصير فى مستوى قامة الرجل ، تحجب فى ارتفاعها النيل وأفرعه وقنواته العديدة ، ولا يكاد المرء يرى قضبان السكك الحديدية التى تدل عليها أعمدة التلغراف وحدها ، ولا تبدو المنازل المنخفضة ، المتجمعة لعين الرائى على نحو ما فى مروج هولاندا أو روسيا الرطبة المبللة بمياه الأمطار غير أن خضرة المزارع هنا ، تتبدى تحت سماء لا تمطر . وهذا المفارقة التى تبدو لأنظار السواح من الأوروبيين .

وهذه المناطق ، المكسوة بالزراعة أينما اتجهت فى أنحائها ، سواء سافرت من الاسكندرية إلى القاهرة ، أو ذهبت ميمما الجنوب ، أو سافرت فى سفينة عبر

النيل ، أو ركبت فى سيارة تجتاز إحدى الطرق الزراعية ، وحيثما اتجهت فى الدلتا ، أو فى الصعيد ، صيفاً أو شتاء ، لن يبدو أمامك إلا منظر الزراعة والريف المكسو بالخضرة . وحين تبتعد عن النيل . نحو السويس ، أو فى اتجاه وادى النطرون . حيث الأديرة القبطية هناك ، فستجد نفسك فى الصحراء وحولك البيداء المترامية الأطراف.

وللصحراء روعتها وجلالها ولكن مشاهدها تختلف عن مشاهد الزراعة ، ومناظر الحقول ، والقرى والدساكر المأهولة بالسكان ، حتى لكأنك انتقلت إلى بلد آخر ، مختلف أشد الاختلاف .

وفى الناحية الغربية ، هناك الواحات ، على أبعاد كبيرة فى جوف الصحراء ، حيث توصل إليها الدروب والمسالك ، هناك الواحات : الداخلة ، والخارجة ، وسيوه . والفرافرة .

أما فى الشرق ، قرب شواطىء البحر الأحمر . فهناك آبار البترول ، ومناجم الفوسفات ، حيث أقيمت مستعمرات ومحلات . أعدت للعمال الذين يقومون بالعمل فى تلك الآبار والمناجم . هم وأسرهم .

هذا القسم من مصر ، لا هو من مصر العليا ولا هو من مصر السفلى ، بل هو منطقة جرداء ، ذات طبيعة خاصة ، يقيم بها هؤلاء العمال الذين هاجروا من قراهم ، وتجمعوا هناك ، وكأنهم بجموعهم قطعة من الريف ، انتقلت إلى تلك الصحراء ، تعيش فيها ، وقد حلا لها المقام ، وطاب العيش حين وجدت طعم الكسب والعمل .

حياة الفلاح

مع ما تقدم من إيضاحات وصور ، تتعلق بأثر النهر العظيم ، فى أخصاب التربة ، وإنماء الزراعة ، بما يحمله من مادة حياتها وريها ، وما للشمس الحارة ، والجو الدافىء ، من فضل فى إنشاء البيئة الصالحة للنماء والرخاء . فهذا كله ، ما كان ليكفى فى صنع مصر الزراعية ، لو لم يكن الشعب نفســـه ، بمواهبه الزراعية ، وصفاته الإنسانية ، قائما على هذه الرقعة الزاهرة ، يهبها من جده وكفاحه ، وصبره وجلده .

وقد صنعت الطبيعة هذا التماثل العجيب ، بين شعب عريق ، وإقليم مزهر ، فياض بالخضرة ، والمياه والخصب والنماء .

وقد كان عدد السكان ، يتراوح بين الزيادة والنقصان على مدى الأزمنة ، ولم يحدد المؤرخون ، تحديداً دقيقاً ، ما طرأ من التغير والتبدل ، والمد والجزر ، فى عدد السكان ، على مدار الأزمنة والعصور . وتدل بعض الآثار ، التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، على أن مصر ، فى تلك العصور ، كانت مزدحمة بالسكان ، وهذا دليل على الازدهار وسعة العمران (١) .

وفى أيام الفراعنة ، كان عدد السكان ، يتراوح بين سبعة ملايين وعشرة ملايين على ما رواه ديودور الصقلى .

وقد تحدث كتاب مصر ـ فى العصر المسيحى عن سكان مصر فى أيامهم ، فقالوا أن عددهم كان يبلغ عشرين مليونا . وفى زمن الحملة الفرنسية على مصر ، وبعد حكم الأتراك لها . هبط هذا العدد . إلى مليونين ونصف مليون تقريبا ، ومسيوجومار الكاتب الفرنسى ، يلاحظ ، مستنداً إلى حالة الفلاح وكمية الإنتاج الزراعى ، أن **هذا** العدد هو الرقم الطبيعى .

---

(١) دى مورجان ، أصول المصريين .

وإذا لوحظ ، أن هذا التحديد ، ربما كان مبالغاً فيه ، أو كان خطأ ، فسيتبين ذلك مما سيأتى من الإحصاءات .

وربما كان هذا النزول المفاجىء فى عدد السكان نتيجة أسباب طارئة ، غير عادية ، مثل الثورات والمذابح أو الأوبئة والمجاعات ، على أنه ما لبث أن زال بزوال أسبابه واستردت البلاد استقرارها .

وقد فسر ذلك مسيو « فيدال دى لا بلانش » تفسيراً علمياً فيما كتبه إذ يقول فى حديثه عن مصر :

هناك مرونة عجيبة ، لدى هذه المدنيات القديمة وهى الثبات أمام الطوارىء ، وسبب هذا هو خصوبة الأرض وقوتها التى تستطيع بها مقاومة الأحداث والتغلب عليها . والواقع . أن غنى التربة ، وقدرتها على سد حاجات الأهلين ، وانتظام الرى ، وثبات الأنظمة ، وسرعة استقرار الأمن ، وتوافر الإنتاج، هذه العوامل ، كان ينشأ عنها ، ازدياد عدد السكان وانتشار الرخاء وعودة الاستقرار .

وقد كان عدد السكان ، بحسب التعداد الذى أجرى عام ١٨٧٣ ، وهو أول تعداد منظم ، خمسة ملايين ونصف من الأنفس ، وفى نصف القرن الأخير (١٨٩٧ — ١٩٤٧) صعد عدد السكان إلى الضعف تقريبا إذ صار ١٩ مليون نفس بعد أن كان عشرة ملايين .

وقد تركز الازدحام دائما فى الجزء المنزرع ، فى حوض النهر ، أى أن ٩٩٪ من عدد السكان يقيمون فوق مساحة لا تتجاوز ٣٪ من مجموع الأراضى ، وفوق هذه المساحة ، تقوم مدن مزدحمة بالسكان ، وإن لم تكن كثيرة العدد ، وتضم هذه المدن ربع عدد السكان . أما الثلاثة الأرباع فتقيم فى قرى الريف ، وتعمل فى الزراعة .

والتعداد الرسمى يحدد الرجال المشتغلين بالزراعة بـ ٦٢٪ ولكن ينبغى أن نضيف إلى هذا العدد من الرجال ، عدداً آخر غير قليل ، من الأطفال والنساء ، يعملون فى الزراعة ، وبإضافتهم إلى عدد الرجال ، يبلغ مجموع العاملين فى الحقول نحو اثنى عشر مليونا من الأنفس وهؤلاء هم الفلاحون الذين خصصنا بحثنا لدراستهم .

ينمو هذا الشعب ويتوالد بكثرة ، وهو فى المدن أكثر نموا ، وذلك بسبب الهجرة من الريف إلى المدن إذ يهاجر سنويا من هؤلاء إلى المدن أكثر من ٣٠٫٠٠٠ نفس . فعوامل النمو فى المدن هى الهجرة والتناسل بينما الزيادة فى عدد سكان الريف ناشئة عن التناسل وحده .

وتطرد الزيادة السنوية لعدد السكان بنسبة ٤٤ فى الألف ، ويبلغ عدد أفراد الأسرة فى المتوسط ٨ أفراد . وهذه النسبة تساوى ضعف الزيادة السنوية لعدد السكان فى فرنسا . وفى الولايات المتحدة ، وكندا . واستراليا . وإيطاليا .

وربما كانت مساوية لمثيلتها فى فلسطين وروسيا .

وبسبب الجهود التى تبذلها وزارة الصحة العمومية . أصبحت الوفيات أقل مما كانت عليه . ومع ذلك فنسبتها السنوية ٥٠٪ من عدد المواليد (هذه النسبة فى الولايات المتحدة + ١٧ . وفى فرنسا + ١٥ — ١٥) .

وعلى الرغم من استمرار الهجرة من الريف إلى المدن ومن تزايد انصراف الفلاحين إلى أعمال الصناعية والتجارة ، لا تزال نسبة كثافة السكان فى الريف الزراعى هى ٤٥٠ نفسا لكل كيلو متر مربع .

هذا الوضع من حيث كثافة السكان لا نظير له إلا فى « تونكان » حيث يعيش ستة ملايين من الفلاحين فوق سطح مساحته ١٤٫٥٠٠ كيلو متر مربع . وحيث يعيش ٩٣٪ من مجموع عدد السكان فوق ١٦ ٪ من مجموع المساحة .

ويرجع تكاثر السكان فى وادى النيل ، وازدحام المساحة إلى كثرة المواليد ، وإلى غير ذلك من العوامل الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية فوق هذه الأرض الخصيبة . فالجو الدافىء ، والطبيعة المعتدلة ، والوادى المنبسط السهل ، وغزارة المحاصيل الغذائية ، وتنوعها مما يساعد على تغذية شعب كثير التوالد والتناسل .

هناك محصول الذرة والقمح والأرز والعدس والفول . كل هذه المحاصيل . تزرع بوفرة وغزارة ، فى جميع أقاليم مصر ، وزراعة القطن ، بما تدر ، من إيراد وفير يغنى الأهلين . وبما تتطلبه من كثرة الأيدى العاملة . ووفرة مياه الرى ، وهذا يتطلب أيضا كثرة الأيدى العاملة ويساعد على نشر الخصب وتعميم الزراعات .

وقد أدى ازدحام السكان إلى كثرة تجزئة الأراضى وتقسيمها إلى قطع صغيرة فكان هذا نفسه من العوامل الأساسية فى زيادة عدد السكان وصار هذا الوضع نفسه سبباً فى حاجة الفلاح إلى مساعدة الأيدى ، ورغبته فى كثرة النسل . وهكذا صار الزواج نفسه فى نظر الفلاح ، لا معنى له إلا إنجاب الأطفال الكثيرين ، وانغرس فى نفسه الاعتماد على الله وعلى خصوبة أرضه ، فى القيام بسد حاجات عياله وتحقيق وسائل العيش لهم .

وفى مديرية المنوفية ، وهى إحدى مديريات الدلتا مثال واضح لما قلناه ، فهذه المديرية ، التى تشتمل على أخصب الأراضى ، وأقدمها عهداً بالرى والزراعة ، وهى من أكثر المديريات إنتاجاً للقطن مجزأة أجزاء صغيرة ، وكثافة السكان فيها تبلغ ٧٤٧ نفسا لكل كيلو متر مربع .

وحينما يقل توافر هذه العوامل التى أشرنا إليها ، يأخذ الازدحام فى التناقص . ففى الجنوب ، فى المديريات الواقعة قرب شلال أسوان ، حيث الأراضى أقل غنى ، وحيث نظام الملكيات الكبيرة لا يزال سائداً ، والأرض تروى بنظام الحياض ، فى هذه المناطق تهبط كثافة السكان إلى ٢٨٥ نفسا لكل كيلو متر مربع ، وفى الشمال ، فى مناطق البحيرات ، حيث الأراضى شديدة الانخفاض ، ومشبعة بالمياه والأملاح ، يهبط عدد السكان الزراعيين إلى أقل مستوى . ففى كفر الدوار (قرب الإسكندرية) يبلغ عدد السكان ١٨٥ نفسا لكل كيلو متر مربع ، وفى محافظة البحيرة يعيش كل ٤٠٠٠ نفس فى ٤٠٠٠ فدان .

غير أن الاختلاف فى التوزيع ، وإن كان يفسر بالعوامل الطبيعية فهو لا يحدد بحسبها فى المناطق البعيدة المواقع ، التى أشرنا إليها ، والتى هى قليلة الامتلاء بالسكان مع صلاحيتها ، ووفرة خصبها لا تعزى قلة سكانها إلى العامل الطبيعى ، بل إلى العامل النفسى (السيكولوچى) هذا العامل هو العادة والألف والاستعداد النفسى . فالفلاح يخضع ، من هذه الناحية ، لما تصوره وشب عليه وألفه . وللعادة تأثير شديد عليه يجعله يفضل الإقامة فى قريته ، ومسقط رأسه ، وهو بطبيعته المحبة للاستقرار يرى فى قريته المكان الذى يبعث فى نفسه الطمأنينة فى الحاضر والماضى وهو « على

عكس القروى فى فلسطين وسوريا ، لا يهاجر ليجرب حظه . ولا يذهب إلى موطن أقل ازدحاما ، وأكثر فرصا للعمل إلا إذا أرغم على ذلك .

وحين تحدوه رغبة للسفر ، لا يكون الباعث له على ذلك ، انتهاز فرصة للعمل والربح ، أو الجرى وراء الرزق ، وإنما يكون سفره لمجرد إرضاء شهوة التنقل ولهذا لا ينتقل لقرية مساوية لقريته ، وإنما ينتقل لمدينة ، وعلى الأخص للقاهرة ، وفى القاهرة الآن نحو ٩٠٠٠٠ مهاجر نزحوا إليها من مديريةقنا وحدها .

وهكذا ينشأ عن صعوبة الانتقال ، وعدم ميل الفلاح إلى مغادرة قريته ، إن الملاك الذين يشترون أراضى للاستصلاح ، فى مناطق جديدة ، يصعب عليهم نقل الفلاحين ، وحملهم على السفر إلى المناطق الجديدة ، رغم ما يعرضونه عليهم ، وما يتعهدون لهم به من تقديم الغذاء والمسكن .

والشعب المصرى ، مع هذا ، شعب زراعى نشيط ، دائب الحركة والسعى ، وأرضه قادرة على أن تمده بحاجاته وموارده ، وقد أدى ذلك إلى نمو عدده ، وتزايده تزايداً مستمرا ، ولكن بحالة لا تنذر بالخطر على أى حال .

إن الأرض السهلة ، الخصبة ، تضاعف عدد الزراع . ولكن الزراع يساعدون على مضاعفة المساحة . ومهما تضاعف عدد الزراع ، فالأرض الصالحة للعمل ، تزداد مساحتها ، وتكثر غلتها بمقدار كثرة زراعها وعمالها وهكذا .

وبتعميم الرى الدائم ، وكثرة استعمال المخصبات والأسمدة الكيماوية ، على الرغم من إجهاد التربة الناشىء من زراعة القطن ، أصبح إيراد مجموع الأراضى فى القطر ضعف ما كان عليه ، وصار ما ينتج من نفس المساحة ، كأنه ينتج من تسعة ملايين من الأفدنة وأصبح نوع المحاصيل ، أجود مما كان ، وتدل التجارب على أنه بقليل من بذل العناية يمكن أن يصبح ناتج الفدان من القمح نحو سبعة أرادب بدل ٥ أرادب ومن الذرة ١٠ بدل ٧ .

هذا وقد زاد عدد الأراضى المزروعة بين سنتى ١٨٩٧ و ١٩٤٧ نحو ٣٠٪ وذلك بفضل الأعمال التى تمت فى استصلاح الأراضى ، وتحسين الرى والصرف فى شمال

الدلتا ، وأصبحت الأطيان المزروعة نحو ستة ملايين فدان ، ويقول الإخصائيون أن مجموع الأراضى المزروعة فى مصر ، يمكن زيادتها حتى تصير تسعة ملايين فدان إذا استخدمت الأساليب الفنية الحديثة فى الاستصلاح والزراعة ، ويرى آخرون أن الزيادة ممكنة إلى سبعة ملايين ومائة ألف .

ويجرى العمل الآن على استصلاح عشرة آلاف فدان كل سنة ، ولا نزال حتى الآن بعيدين عن الوصول إلى نهاية ما يمكن استصلاحه .

ونتساءل الآن هل نحن على وشك الوصول إلى حالة تضخم خطير فى عدد السكان؟

وجواباً على هذا نقول ، أن كل بلد لاتكفى موارده التى ينتجها أو التى يستوردها لكى يعيش سكانه فى المستوى الذى بلغوه من الحضارة ، يكون قد بلغ حالة من تضخم السكان خطيرة ، فانجلترا مثلا تكون قد وصلت إلى حالة التضخم الخطير إذا هى كانت لا تجد غير موارد جزيرتها ، وتعتبر كذلك أيضاً البلاد التى يكون فيها اتجاه إلى التخلص من زيادة عدد السكان . أما بازدياد الوفيات (بسبب المجاعات والأوبئة كما يحدث فى الصين والهند) وأما بالهجرة كما فى إيطاليا ولبنان ، ومصر ليست فيها حالة من تلك الحالتين وقد نفترض أن مصر مزدحمة بالسكان ، بل قد نفترض أن الازدحام فيها أصبح يهدد بالخطورة بالنسبة لمواردها المستغلة فى الوقت الحاضر . لكن هذه البلاد العريقة فى القدم لا يزال هناك جانب كبير من مواردها الزراعية والصناعية لم يستغل ، ولم يؤت ثماره بعد . وإذا استغلت جميع مواردها على الأساليب العلمية والإدارية الحديثة كانت كافية لنمو ثلاثين مليونا من الأنفس على مستوى ملائم ، ومصر ، من هذه الناحية كأنها بلد بكر لم تستغل موارده حق استغلالها .

ولنعد الآن إلى الكلام عن جمهور الفلاحين . هناك الآن ستة ملايين من الأفدنة لعدد من الفلاحين يبلغ أربعة عشر مليونا . وهذا العدد المكون من حوالى ألفين وثلثمائة وثلاثين أسرة ريفية ، كل أسرة منها تتكون من ستة أشخاص فى المتوسط ، وتعيش من إيراد فدانين ونصف فدان تقريبا . وإذا قدرنا لهذه المساحة إيراداً سنويا قدره مائة وخمسون جنيها ، مضافاً إلى هذا الإيراد ، نتيجة عمل الزوجة فى المنزل ، من تربية بعض الدواجن وإنتاج البيض ونحو ذلك ، إذا قدرنا للأسرة

مثل هذا الإيراد الضئيل الذى لا يكفى فى الحقيقة فإن هذا التقدير المتواضع ، أكثر من الواقع بكثير ، إذ الواقع أن الإيراد السنوى الذى يعيش منه الفلاح لا يتجاوز الأربعين جنيها - وهذا التحديد مبنى على الإحصاء .

وإذا نحن تتبعنا حالة المديريات بوجه عام ، اتضح لنا أن عدد السكان فى كل منها يتناسب مع عدد الأفدنة فيها بوجه عام ، ويجىء مقاربا للتوزيع الذى قلنا أنه ضرورى أى نصف فدان لكل شخص تقريبا .

ومن الملاحظ أن مديرية المنوفية وحدها هى التى تنفرد ببلوغ عدد السكان فيها إلى حد التخمة والزيادة إذ يبلغ عدد سكانها نحو ١٫١٦٨٫٧٧٧ من الأنفس يقابل هذا العدد نحو ٣٨٠٫٠٠٠ من الأفدنة أى أن كل شخص يقابله ثلث فدان .

وفى عشر سنوات زاد عدد السكان فى مديريات أخرى بنسبة ١٠٪ بينما كانت الزيادة فى نفس المدة بالمنوفية ٣٪ فقط .

فنرى من هذا أن هناك تضخما فى عدد السكان ، لكن هذا التضخم ، كما ترى ، محدود ، وفى بعض المديريات دون غيرها ، وليس علاج هذا التضخم ، فى تحديد النسل ، كما يرى بعض المقترحين ، وإنما هو فى العمل على حسن التقسيم والتوزيع وزياد الإنتاج .

والحكومة وحدها ، لا يكفى جهدها لتطبيق سياسة ناجحة ، لتحقيق هذا الهدف فمسائل الفلاح كلها ، ومنها هذه المسألة ، علاجها الأساسى هو نشر التربية والتعليم ، ورفع مستوى الفلاح .

وليس موضوع هذا الفصل ، هو إعادة توزيع السكان ، أو الكلام عن جغرافية مصر ، وعدد سكانها فهذا غير مستطاع ، إذ تنقصنا الخرائط الضرورية ، التى نستعين بها على هذا التحديد .

ونحن إنما أردنا من مقارنة عدد السكان ومساحة الأرض ، وإظهار ما بينهما من تناسب ، أن نقول أن مصر هى قبل كل شىء ، بلد زراعى ، وهذا لكى نتوصل ، لا إلى شرح حالة الزراعة ، بل إلى بيان حالة الرجال الذين صنعوا هذه الزراعة ، وصنعتهم الزراعة ، وهم الفلاحون .

الفصل الثالث

حكومة مصر

الشعب هو القاعدة التى يقوم عليها بناء الدولة ونظامها السياسى والاجتماعى .

وسنتكلم أولا عن نظام الحكومة ، ثم ننتقل إلى الكلام عن حياة الفلاح .

ومصر الحديثة ، ذات الطابع العصرى ، تتمثل فى ثلاث من مدنها الكبرى هى . القاهرة . والاسكندرية ، وبورسعيد . وتعتبر هذه المدن الثلاث أظهر ما يرى من مراكز نهضتها وثقافتها وهى منها بمثابة العنوان .

القاهرة بجامعاتها التى تضم ٣٠٠٠٠ طالب ومتاحفها ، ومعاهدها العلمية ومؤتمراتها الدولية ومحاضراتها فى فصل الشتاء ، وقصورها، وعمائرها ، والاسكندرية وميناؤها التجارية العظيمة وبورصة الأقطان بها ، وشواطئها التى تعد من أعظم وأجمل شواطىء العالم ، وماتشتمل عليه من مؤسسات ومعاهد ، ثم الكورنيش الذى يطرز شاطئها ويعد من المشاهد ذات الروعة والجمال الساحر . وبورسعيد . طريق الهند ، وفيها قنال السويس ، وحركة البواخر فيه بين قارات العالم .

فى هذه المدن الثلاث . تعيش طوائف وجماعات ذات ألوان شديدة التباين ، كثيرة التزاحم والتنافس وكأنها إذ تبدو على الوجه ، وتخفى وراءها مصر الأصلية أحجار الفسيفساء تغطى طبقة الملاط التى تمسكها وتلصقها .

ومصر ، بتعدد الألوان والأذواق واللغات والعادات ، تمثل أمماً مختلفة ، لا أمة موحدة ، وهى فى ذلك تشبه ألمانيا ، وروسيا ، فى تعدد شعوبها ، واختلاف عناصرها فكأنها من الناحية الاجتماعية ، عدة شعوب لا شعب واحد . فليس فيها ما يمكن أن يطلق عليه كلمة « المجتمع المصرى » بالمعنى الذى تؤديه هذه الكلمة فى فى المدلول التاريخى أو الأدبى . لكن يسكنها خليط متنافر ، لا تناسب بينه وبين البيئة والموطن اللذين يعيش فيهما .

وليس هناك بيئة ريفية بالمعنى الصحيح ، بل هناك مجموعات من الريفيين ، كل ما بينها من علاقة أنها تنتمى إلى أرض واحدة ، وتسكن القرى ، وكل ما يمكن أن يقال من وجهة النظر الاجتماعية ، أن مصر مقسمة إلى قسمين ، مصر العليا ، ومصر السفلى هذه من الظاهر ، وتلك من الداخل ، وهذا هو كل ما يمكن أن تصور به مصر ، من الناحية الاجتماعية وفى هذه الجماعات التى ليست مؤلفة تأليف المجتمعات أى مؤلفة على أساس التكامل الاجتماعى ، تعيش هذه الفئات والجماعات دون أن تندمج ، أو تقوم بينها وحدة حقيقية كما يكون بين أبناء الأمة الواحدة ، وساكن القاهرة أو الاسكندرية لا يكاد يعرف ساكن الريف ، ألا أقل المعرفة ، إذ هو لا يكاد يجتمع به أو يراه إلا عبوراً ، أو من خلال نافذة القطار أو السيارة أثناء السفر ، أو المرور السريع الخاطف أو — إذ شئت — عن طريق رؤية نماذج من معروضاته بالمعارض والمتاحف الزراعية .

والفلاح يعيش فى حقله وقريته ، ولا يكاد يعرف شيئاً عن المدينة إلا سماعاً من العمدة أو البقال الأغريقى أو عن طريق ما يجىء إلى قريته من المبيعات والمصنوعات الآتية من المدن نفسها .

وفى القاهرة أو فى الاسكندرية حيث تتركز الطبقات العليا من المجتمع المصرى ، لا تكاد الجماعات تقوم بينها علاقات ، إلا فى أضيق الحدود ، وكل منها تنحاز إلى ناحيتها الخاصة ولها نمطها الخاص فى التفكير ، وفى نوع الحياة ، وفى العادات والمشارب ، فهناك بين أبناء البلد ، من مسلمين وأقباط ، طبقة الملاك الأثرياء ، بمعزل عن طبقة الموظفين وطبقة المتعلمين فى جامعة الأزهر ، لا تكاد تخالط طبقة المتخرجين فى الجامعة المصرية من المدنيين وفى الحفلات والاجتماعات العامة ، يكون كل المجتمعين من الرجال ، وللنساء اجتماعاتهن التى لا يحضرها الرجال .

وهناك طبقة رجال القصر ، وطبقة الأمراء أعضاء الأسرة الحاكمة إلخ وطبقة الأجانب . هناك أجانب متمصرون ولكن لا تزال تفصلهم جنسياتهم ، وميولهم وعاداتهم الأجنبية التى لا تفارقهم . هناك السوريون وهم نشطاء ، أصحاب أعمال

ومشروعات ، وهناك الانجليز المترفون أعضاء نادى الترف كلوب ، والفرنسيون ، والبلجيكون أصحاب الشركات الكبرى ، الترام . المياه . والبنوك . والمصاريف . وقناة السويس ... »

والإيطاليون مشيدو العمارات وأصحاب الشركات والمؤسسات التجارية والأروام الأغريقيون وهم أكثر الأجانب عدداً وقرباً من الأهالى الوطنيين .

هذه الجاليات بطبيعة الحال تتميز بالطابع الحضارى ، وتملك وسائل الثروة ، وهم بحكم هذا كله ، بالنسبة لمصر ، يمثلون الخميرة الاقتصادية ، والمالية والزراعية ، ولكنهم ليسوا خميرة اجتماعية لأنهم من هذه الناحية . لا يمتزجون بعجينة الشعب لكى يرفعوه ، ويساعدوه على التطور ، أو يهيئوا له وسائل الرقى ، ولكنهم يستخرجون ما يمكنهم من المصلحة عن طريق وسطائهم وكفى ،

إن ثروة مصر معظمها هو إيراد الأرض وهذا الإيراد من عمل الفلاح ، فما هو الوضع القانونى لتلك الأرض المنتجة للثروة ؟

إن البناء الاجتماعى لبلد من البلاد الزراعية يكون أساسه النظام العقارى .

والأراضى المزروعة فى مصر تبلغ مساحتها ٣٠,٠٠٠ ك . م مربع تمثل ثروة قيمتها ٦٠٠ مليون جنيه وهى تنقسم إلى ثلاثة أنواع : (١) أراض أميرية (أراضى مصلحة الأملاك) (٢) أراضى الأوقاف (٣) أراضى الملاك .

الأراضى الزراعية فى مصر

فى سنة ١٨١٣ . بعد أن صفى محمد على ثروة المماليك وقضى عليهم ، قسم الأراضى التى كانوا يملكونها ، إلى مناطق ، ثم وزعها على القرويين لكل واحد من ٣ إلى ٥ أفدنة ليستغلوها ، مع بقائها فى ملكية الوالى أو الدولة ، واستمر نظام الالتزام على هذه الصورة حتى سنة ١٨٤٠ . ويقضى هذا النظام بتسليم القطن إلى الحكومة ، وإيداعه فى مخازنها ، وذلك بثمن أقل من الثمن الحقيقى . أما الحبوب فيستطيع الفلاح بيعها كما يشاء ، ولكن مع دفع ضريبة قدرها ١٨ قرش عن كل أردب ، وقد أفتى

بعض الفقهاء إذ ذاك بأن تكون الأرض ملكا لولى الأمر الذى هو السلطان أمير المؤمنين ، أو من ينوب عنه من الولاة ، وعلى هذا جرى نظام ملكية الأرض وزراعتها ، وكان لهذا النظام مستثنيات ، فيما كان السلطان قد أقطعه ، منذ مدة ، لبعض الأفراد المقربين ، وفى الأرض التى كانت قد جعلت ملكا لبعض الملتزمين وجباة الضرائب وفى الأرض الموقوفة ، المحبوسة على الذرية وجهات البر ، وهى أرض لاتباع ولا تشرى ، بل تستغل فقط ، ويصرف ريعها للجهات الموقوف عليها .

وهناك أراض غير مزروعة ، وهى مسطحات واسعة ، خارجة عن زمام المساحة ، معفاة من الضرائب إلى سنة ١٩٥٨ ، ثم أضيفت ملكيتها إلى الأعيان وكبار الموظفين ، وأعضاء الأسرة المالكة ، ممن يستطيعون إصلاحها ، بوسائلهم المالية ، وجعلها صالحة للزراعة ، وهذا هو منشأ الملكية الكبيرة .

أما الملكية الصغيرة فقد نشأت بالتدرج البطىء ، عن استمرار التفتت ، وجاءت سنة ١٨٤٦ فسمح للزراع ، واضعى اليد ، ممن يزرعون أرضهم كمستغلين أن يكون لهم التصرف فى حق الانتفاع بالأرض ، بالتنازل عنه ، وبيعه للغير ، مع استمرار الحق فى استرداده ، وبقائه فى ملكية المتنازل حتى لو تأخر فى سداد الضريبة ، ونزعت منه الأرض ، أمكنه ، متى سدد الضريبة المتأخرة ، أن يسترد الأرض ويعود إلى زراعتها ، ولأبناء المنتفع من بعده حق الانتفاع الذى كان لوالدهم بنفس الوضع لا بمقتضى الوراثة الشرعية ، بل بالإذن لهم من الحكومة وهو الإذن الذى كان لأبيهم .

وفى سنة ١٨٧١ ، أصدر إسماعيل باشا ، أمراً يقضى بتمليك الأرض لواضعى اليد بشرط أن يدفع واضع اليد مبلغاً يعادل الضريبة عن ست سنوات مقدما . لكن هذا القانون لم ينجح تطبيقه وألغى فى سنة ١٨٨٠ ، غير أن مبدأ تمليك الأرض كان قد تقرر ، وأكدته الحكومة ببيعها فى كل عام ، لصغار الملاك ، قطعا من ممتلكاتها .

وظل نظام تحصيل الضرائب ، سواء من حيث مقاديرها ، أو طريقة تحصيلها ،

نظاما جائرا ، عرضة لتحكم الأهواء والشهوات ، ونشأت عنه مظالم ، غاية فى العنف والقسوة ، وقد اعترفت بذلك « اللجنة العليا لتحقيق الضرائب العقارية » فى (سنة ١٨٧٨ — ١٨٨٠) إذ اكتشفت كثيرا من المظالم الواقعة ، فى جميع المديريات ، بسبب هذا النظام ، وطالبت بسرعة تلافى الأمر ، وكان لابد من البدء بإنشاء نظام جديد للمساحة ، موضوع على أسس علمية ، إذ كان التقسيم الذى وضع فى عهد محمد على موضوعا على أسس قضائية بحث .

وفى سنة ١٨٩٢ . شرعت مصلحة المساحة التى كانت قد إسندت إدارتها ، إلى مهندسين من الإنجليز ، فى ذلك العمل الضخم ، وهو إعادة تقسيم الأراضى ، فبعد أن استبعدت مقادير الطرق والقنوات والحدود الطبيعية للقرى ، قسمت الأراضى ، فجعلت لكل قرية (زمامها) وجعلت زمام كل قرية ، ٢٠٠٠ فدان تقريبا ، مقسمة إلى أحواض ، كل حوض مساحته من خمسين ، إلى مائة فدان موحدة القيمة والخصائص فى نحو ٩٥٪ من مساحتها على الأقل ومحددة بعلامات حديدية ، وكل قرية لها خريطتها المرسومة على أساس $\frac{١}{٢٥٠٠٠}$ ثم جعل هذا الأساس $\frac{١}{٥٠٠}$ ؛ وكل حوض له رقمه السائر ، ومساكن القرية ، لها مكانها المحدود ، ومساحتها المبينة على الخريطة ، وهى معفاة من الضريبة .

وأعد سجل المساحة على أساس الرسم ، وسجلت فيه القطع ، وهى أجزاء الحوض ، كل قطعة فى مكانها ، مبينة بالفدان والقيراط والسهم ، ومقدار الضريبة النهائية واسم المالك .

وقد تم هذا العمل فى سنة ١٩٠٧ . ولكن الحكومة ، كان لديها منذ سنة ١٨٩٩ من العناصر ما يمكنها من تحديد النسبة العامة للضريبة . وقد حددتها بنسبة ٦٤٪ و ٦٥٪ من قيمة متوسط الإيجار ، وهذه القائمة المحددة يعمل بها لمدة ثلاثين سنة . وبعد ذلك تجدد كل عشر سنوات .

وهذا المتوسط ، المبنى على تقدير لجان من الوطنيين يراعى طبيعة التربة ، وما تحويه من ملح ورمل ورشح ، ومسافة قربها أو بعدها من النيل ، ولكنه يراعى

أيضاً اعتبارات جغرافية إنسانية أخرى كسهولة الرى أو صعوبته . وكإنتاج القطن أو عدم إنتاجه وكالقرب من المدينة ، أو القرب من القرية ، وقدم الزراعة والاستغلال ، وتوفر الأيدى العاملة ، وسهولة المواصلات ، واستتباب الأمن وحالة قانون العرض والطلب ، وبالاختصار ، يراعى جميع الأسباب التى تؤدى إلى التفاوت فى أثمان الأراضى بين ٤٠ و ١٨٠ جنيها للفدان .

وعلى هذا تنقسم الأراضى إلى ٢٢ درجة من حيث أثمانها وضريبتها .

ومراعاة للعدالة الاجتماعية ، وللتخفيف عن صغار الملاك ، أعفى القانون الصادر فى سنة ١٩٤٦ من الضريبة ، كل من يدفع ٤ جنيهات فأقل إعفاء كاملا ، وتخفض أربعة جنيهات عن كل ممول لا يزيد ما يدفعه عن عشرين جنيها فى السنة ، وإذا تلفت الزراعة ، بسبب قلة المياه أو صعوبتها ، جاز طلب تخفيض الضريبة بنسبة ما أصاب الزراعة من التلف .

والمالك هو المطالب بدفع الضريبة ، ومقدار الضريبة ، وموعد سدادها ، يحددان بالنسبة لكل مديرية ، تبعا لمواعيد جنى المحاصيل الرئيسية ، والسداد يكون على أقساط ، مراعى فيها أن يكون جميع المطلوب قد تم سداده فى آخر العام ، فمثلا فى القليوبية ، فى ٤ يناير ، جزء ، مارس ٣ ، أكتوبر ٨ نوفمبر ٨ وأسوان ، سبتمبر ١٢ أكتوبر ١٢ فنرى من هذا أن الأقساط الكبيرة تحصل على الأخص فيما بين سبتمبر ونوفمبر ، أى فى موعد جنى القطن .

وتسدد الضريبة للصراف فى القرية ، ويعتبر ورد المال مخالصة وإيصالا بالسداد وعند عدم دفع الضريبة تحصلها الحكومة بواسطة الحجز الإدارى والبيع الجبرى وقد أحصينا فى عدد يناير سنة ١٩٣٧ وحده من الجريدة الرسمية ٧٣٣ حكم نزع ملكية ، كلها تقريبا صادرة ضد ملاك صغار ، وهذه البيوع تصدر بصيغة واحدة على الوجه الآتى : « ١٩ يناير سنة ١٩٣٧ ٣ قراريط ملك إمام إمام إبراهيم بزمام قرية كفر منصور مركز طوخ حوض مدور رقم ٤ قطعة رقم ١٩ حجزت بمقتضى القضية فى ٢ مارس سنة ١٩٣٧ ، وذلك سداداً لمبلغ ٩ جنيهات وستين قرشا عن القطعة المنزوعة ملكيتها .

وبين سنتى ١٩٢٧ و ١٩٣٧ نزعت ملكية ٤٤٠٠٠ من الفلاحين .

والدولة تعامل كبار الملاك ، معاملة أكثر تسامحا ومجاملة ، وهو تفريق وتمييز غير عادل كما اعترف لنا بعض الصيارف ، غير أن هذه التفرقة فى التحصيل فقط ، أى فى طريقته . لا فى نسبة الضريبة ، وهذه النسبة فى ذاتها ، ليست مبالغاً فيها ، فيما عدا فترات الأزمات ، وهى تقدر على اعتبار أن الممول يكون اقتصاده بحالة منظمة وإيراده على وتيرة ثابته غير مضطربة .

والحكومة هى المالك الأول فى مصر ، إذ أنها ، فضلا عن الأراضى المرصودة فى سجل محمد على ، التى لم يشترها الفلاحون ، قد ملكت فى سنة ١٨٧٨ ممتلكات الأسرة الخديوية مقابل تعهدها بسداد جزء من ديون إسماعيل الفادحة ، ثم تضخمت أملاكها بما استصلحته من المساحات الجديدة فى مناطق البحيرات وفى المناطق الصحراوية ، وهى الآن تملك خمس مجموع الأراضى .

وفى سنة ١٩٤٥ كان ما تملكه الحكومة من الأراضى الداخلة فى المساحة ، ومقدارها ٨٫٣٣٦٫٧٤٣ فدان ، كان مقدار ما تملكه الدولة من هذا القدر مليون ونصف مليون فدان ، وهذا القدر معفى من الضرائب ، ويشمل قدرا كبيرا من الأراضى غير المستغلة ، وهى تشمل أراضى المبانى ، فى المدن وضواحيها .

وهى تستغل ، فى الدلتا وحدها ، ٤٢٠٠٠٠ فدان وفى كل عام تستصلح ٨٠٠٠ فدان تقريبا من الأراضى الواقعة بقرب البحيرات أو من الأراضى الجبلية الجافة وتبيع معظم هذه الأراضى للفلاحين من ذوى الدخل المتوسط ، كما توزع منها ، من حين إلى آخر أراضى لخريجى المدارس الزراعية ولصغار الفلاحين وتسلم أراضى واسعة من المساحات البور للشركات العقارية لاستصلاحها ، وتعطى منها لذوى المعاشات نظير استبدال معاشاتهم أو استبدال جزء منها .

أراضى الأوقاف

منذ الفتح الإسلامى لمصر ، عرف نظام وقف العقارات ، وقد استمد هذا النظام وجوده من الصدقة التى يأمر بها الدين . ومن الرغبة فى دوامها واستمرارها ، والوقف هو حبس العين ، والتصدق بغلتها ، أما ابتداء ، وهذا هو الوقف الخيرى ، وتصرف غلته لجهات البر والخير ، وأما انتهاء أى بعد انقراض الذرية ، فيقف الواقف على أبنائه وأبنائهم وذريتهم وكذلك على العتقاء والعبيد ، وعلى ذرياتهم وكل من يراد الوقف عليهم طبقة بعد طبقة ، فإذا مات هؤلاء وانقرضت ذريتهم جميعا آل الوقف إلى جهات البر والخير من مساجد ومؤسسات خيرية وإطعام فقراء الخ يعينها الوقف أو يحددها الحاكم .

والوقف بقسميه ، الخيرى والأهلى ، مع أن المقصود به الصدقة والبر ، وهو وهو باعث دينى ، إلا أنه مقصود به أيضاً حفظ المال ، من مصادرة الأمراء أو من عبث الأبناء والأحفاد وتبذيرهم .

وكثير من الملاك وقفوا أراضيهم على هذا الوجه ، كلها أو جزءا منها فأصبحت محبوسة أى ممنوعة من البيع والشراء ، فهى محفوظة على ملك الله ، وثمرتها تصرف للجهات التى عينها الواقف .وجهات البر مقصود بها الفقراء والمساكين ، والمساجد والمدارس ومعاهد العلم ، والمستشفيات والملاجىء الخ .

وقد قلنا أنها محبوسة على ملك الله ، وهذا تعبير فقهى ، معناه أن يكون للموقوف عليهم حق الانتفاع بغلة العقار فقط ، لا أن يكون لهم حق البيع والشراء .

وقد حذا مسيحيو الشرق حذو المسلمين فى هذا النوع من التصرف فى المال .

وتبلغ الأطيان الموقوفة نحو ٦٦٦٠٠٠ فدان أى ما يساوى ٩٪ من مجموع الأطيان المزروعة وهى كما قلنا ممنوعة من التداول ، والانتقال من مالك لآخر ، وهذا النوع من الأراضى فى زيادة مستمرة .

وتتولى وزارة الأوقاف إدارة أوقاف المسلمين ، والإشراف على تنفيذ شروط

الواقفين وواضح أن هذه الأراضى غير المملوكة ، الموكولة إدارتها ، إلى غير ملاكها ، أى إلى النظار عليها أو إلى موظفى وزارة الأوقاف ، معرضة للإهمال وضعف الإنتاج ، وهى لهذا السبب نفسه ، يستغلها المشر ـ عليها ، وتكون إدارتها خالية من العناية ، وإنتاجها قاصراً على ما يسدنهم هؤلاء المتولين لشئونها ، والرقابة عليها تكون معدومة .

ويعيش على أراضى الأوقاف ، نحو أكثر من مليون من الفلاحين بأقل جهد ومشقة .

الملكية الخاصة

تعنى نشرات الحكومة بأن تكرر على صفحاتها أن مصر هى بلد صغار الملاك ، وهى تستند فى هذا الرغم ، إلى أحدث الاحصاءات الصادرة ، وصحيح أن هناك مليونين ونصف مليون من صغار الملاك ، وهذا العدد ، بالنسبة لستة ملايين ، وهو عدد مجموع الفلاحين ، يمثل نسبة طيبة ، لكننا حين ننظر فى الأمر عن كثب ، نجد من بين هذا العدد ، نسبة تقل عن ١٠٪ يملك كل فرد منها فدانين ونصف فدان وهذه المساحة الصغيرة ، وهى أقل مساحة تكفى لحياة أسرة ريفية ، فى مستوى معيشة مساو لما عليه المستوى الحالى ، وبعبارة أخرى : هناك ١٫٧٣٨٫٣٦٢ فلاح يملك كل منهم ، من ١ إلى ٢ من الأفدنة ، وهذه الملكيات الضئيلة تسير فى طريق التفتت والتجزؤ أجزاء صغيرة بسبب الميراث ، والقسمة على الورثة .

وفى مدة مقدارها ٤٠ سنة زادت المساحة التى يملكها صغار الزراع إلى ٨٣٪ بينما صار عدد صغار الملاك ٣٥٥٪ وهؤلاء أى المليونان والنصف ، لا يزيد مجموع ما يملكونه عن نصف الأراضى المزروعة ، لأنه إذا كان ٢٫٢٨٤٫٥١٣ فلاح يملكون أقل من مليونى فدان من جهة ، فمن الجهة الأخرى ، هناك مليونان من الأفدنة أو أكثر مملوكة لـ ١٢٫٥٥٩ مالكا فقط ، بينهم نحو ٦١ يملكون وحدهم ، ٣٠٩٫٦٩٥ فدانا تقريبا ، وبعبارة أخرى ، تملك ٢٪ من الملاك نحو ٥٠٪ من مجموع الأرض الزراعية .

والمالك الأكبر، من بين هؤلاء الملاك الكبار هو الملك فؤاد الأول، الذى كان قبل توليه العريش (١٩١٧) لا يتجاوز ما يملكه ٨٠٠ فدان فلما مات (سنة ١٩٣٦) توفى عن ٢٨٠٠٠ فدان وهذا فضلا عن ربع مساحة قدرها ٤٥٠٠٠ فدان من الأراضى الموقوفة التى يتولى النظر عليها .

وقد أصبحت الأطيان التابعة للخاصة الملكية الآن تزيد على المائة ألف فدان .

والأطيان المملوكة للشركات المساهمة تبلغ مساحتها نحو ١٥٠٠٠٠ فدان .

ولهذا تعتبر مصر فى الحقيقة بلد كبار الملاك، والملكيات الكبيرة، على الأخص تقوم فى الوجه القبلى، وفى الجهات المستصلحة حديثا من أقاليم الدلتا، وهى لا تظل مدة طويلة فى أيدى ملاكها، وبعض التفاتيش، انتقل من مالك لمالك، عشر مرات، فى مدة عشرين سنة، ومعظمها كانت إدارته، تظل كما هى، أى فى أيدى من كانوا يديرونها

ونذكر من هؤلاء الملاك الكبار، الشركات الآتية :

شركة السكر . كوم أومبو . البحيرة . البنك العقارى، لاند بنك الخ وتفاتيش الأوقاف التابعة لوزارة الأوقاف وتفاتيش مصلحة الأملاك .

وكبار الملاك، يستغلون أطيانهم بواسطة دوائرهم ونظارهم، والدائرة هى مقر إدارة الأعمال ومباشرة الحسابات، وهى تكون عادة فى المدينة .

وتقوم بمباشرة الأعمال، وتنفيذ المصالح والطلبات والمشتروات وبيع المحاصيل وتسليمها ودفع الضرائب إلخ .

والناظر يقيم فى الزراعة، ويمثل المالك، ويتولى إدارة الأعمال، وهو محور النشاط فى المزرعة .

وهو متملق متزلف إلى المالك، قاس لا يرحم للعمال جعلته مهنته يتلمس جميع وسائل الضغط على الآلة الزراعية (الفلاح) لكى يزيد الغلة والإيراد .

ويتولى الناظر عمليات الزراعة من حرث وتسميد وزراعة، وجنى المحصول على طريقته التقليدية الجامدة التى يعرفها .

والملاك يفضلون خدماته وتجاربه على معاونة المهندسين الزراعيين الذين لم يحظوا حتى الآن فى الحياة الزراعية المصرية بالمركز الذى أعدوا له أنفسهم .

وفى مزارع الحكومة والخاصة الملكية والأمراء ، وكذلك فى الدوائر الزراعية الكبرى التى تملكها الشركات وكبار الملاك ، تختلف الحال عن ذلك فالخدمات مركزة فى التفاتيش والعزب ، ولكل ملكية كبيرة عزبتها ، والعزب مبانيها منفصلة عن القرية ، وهى تشتمل على مساكن عمال الضيعة ، وعلى منزل معد لنزول المالك . وإنشاء العزب على هذا النحو لا يرجع عهده إلى قرن من الزمن ، ولم يصبح الحصول على التصريح ببناء العزب واجباً إلا من سنة ١٩١٣ . ثم أعيد تنظيم قانونها سنة ١٩٣٣ وأخيراً نظمت بقانون فى أغسطس سنة ١٩٥٠ .

ويصدر الإذن ببناء العزبة من مجلس المديرية ، ولا بد للحصول على هذا الإذن من شروط معينة ، إذ يجب أن يكون مقدم الطلب مالكا لمساحة لا تقل عن قدر معين من الأفدنة ، ولا بد أن تكون العزبة على بعد معين من موقع القرية ، ويراعى كذلك ، تحديد عدد الأفراد الذين يراد إسكانها فيها . وذلك لأن القانون يحتم دائماً لكى يسمح ببناء العزب ، شروطاً معينة فى الأراضى المعدة للزراعة الواقعة خارج حدود القرية .

ويبلغ عدد العزب فى جميع البلاد المصرية الآن أكثر من خمسة عشر ألف عزبة يسكنها نحو ٣ ملايين من الفلاحين ، وتختلف أهميتها ، وعدد سكانها ، حسب اختلاف مساحة الأطيان التى بنيت من أجلها ، وبعضها يبلغ من الاتساع الآن ، ما يجعله أشبه بالقرى الصغيرة لكن معظمها من حيث الإدارة الحكومية . لا يزال تابعاً للقرية القريبة منها .

وتشتمل العزبة على أدوات العمل المخصصة للزراعة ، ففيها الماكينات من الأنواع القديمة والحديثة مثل الساقية ، والماكينات التى تدار بالمازوت ، والنورج ، والدراسة الميكانيكية والمخازن ، ومواشى الزراعة ، وفيها منزل المالك .

وإذا كانت الأرض مزروعة لحساب المالك كان سكان العزبة هم العمال الدائمون

من الإجراء أما إذا لم تكن مزروعة لحساب المالك ، فالمقيمون بالعزبة العاملون فيها هم المزارعون بالمشاركة أو بالإيجار ، وفى كلتا الحالتين ، هم تابعون للأرض بمعنى ما ، ويقيمون فيها . مهما تغير المالك ، وخلفه سواه إلا إذا أخرجهم منها المالك قهراً لسبب يستدعى الطرد .

ويحدث فى بعض الأحيان أن يرهن المالك أرضه ، وهناك ما يقرب من مليون فى الوقت الحاضر عليها رهون عقارية . وحينما يتأخر فى سداد ما هو مطلوب منه ، كما يقع ذلك كثيراً يوقع عليه البنك الدائن حجزاً ، وفى معظم هذه الحالات يحجز على نصيب الفلاح فى الوقت نفسه بنفس الإجراء ، إذ من ذا يميز فى هذه الحالة ، بين حق المستأجر وحق المالك ؟ ومع هذا يكون المستأجرون قد سددوا ما عليهم للبنك أو الباشا ، وهم ليسوا مسئولين عن دينه . لكن هذا لا يمنع الدائن من توقيع الحجز على العين المدينة مهما كان فيه من غبن للفلاح ...

وقد حدث أن نزع أحد البنوك الكبرى ملكية عزبة مملوكة لأحد أعيان بلدة شبراريس ، من بلاد مركز كفر الزيات . وكانت هذه العزبة تحت يد مستأجرين كثيرين . لكل منهم حصته ، وهذا العدد الكبير يقيم بالعزبة منذ عشرين عاماً أو أكثر . وحينما حضر مندوب البنك ليتخذ إجراءات نزع الملكية عارضه سكان العزبة ، واضطر البوليس للتدخل ، وحضرت قوة مسلحة على رأسها معاون المركز فهاجمه الأهالى واضطر المعاون بسبب عنف المقاومة إلى إصدار الأمر بإطلاق بعض الأعيرة النارية فى الهواء ، تهديداً لهم فزاد ذلك من عنف الأهالى وأشعل فيهم الثورة فشرعوا فى تحطيم أعمدة التليفون ، وفى إحراق عربة مندوبى الحجز . وفى الحال طلبت القوة النجدة ، فحضرت قوة لمساعدتها لكنها كانت غير كافية أيضاً ، فحضر مدير المديرية على رأس قوة ثالثة ، ولم يعد النظام إلى العزبة إلا بعد استعمال القوة ، وإطلاق الرصاص من جديد ، وفى الهواء لزيادة الإرهاب . وقد جرح ستة من رجال البوليس فى هذه المعركة التى استعمل فيها الأهالى الرشق بالحجارة ضد رجال القوة وقبض على كثير من القرويين ، وحضر وكيل النائب العام لتحقيق الحادثة .

ومثل هذه الحادثة كثيراً ما يقع فى أمثال هذه الحالة ، ويكون المالك غائباً عن عزبته فى معظم هذه الحالات إن لم يكن فيها كلها .

والمالك الزراعى الكبير حتى ولو كان من أصل ريفى — ومعظم الأراضى بيد المصريين — لا يهتم بعزبته إلا بقدر ما يحصله من إيرادها ، وعلى قدر ما يجنيه من بيعها كأنه أحد رؤساء الأديرة فى الزمن القديم ، إذ كانوا لايرون أديرتهم التابعة لهم إلا فى أندر الأحيان ، وهكذا ملاك العزب قلما يذهبون إلى عزبهم أو يزورونها .

لايكادون يعرفون عمالهم إلا لأجل الحصول منهم على النقود ، ولأجل استنزاف جهدهم وعرقهم بواسطة نظارهم ، أما عدد هؤلاء العمال ، وما عليه أسرهم وأبناؤهم فهذا شىء لا يفكرون فيه . هم يجهلون جهلا تاماً حياة هؤلاء العمال ، كأخوة فى الإنسانية ، وكأناس لهم حقوق اجتماعية .

والمالك الكبير يقلد المدنية الغربية فى معيشته ، وقد هجر الريف ، ولم تعد له صلة حتى بعاصمة مديريته ، وأصبح يقيم فى القاهرة أو الاسكندرية ، ويمضى الصيف فى أوروبا ، وأصبح المصريون يعرفون فى عواصم أوروبا بكثرة البذخ والإسراف ، وبعض هؤلاء الملاك بلغ به الإسراف أن يبدد فى ليلة واحدة ، ما يكفى فلاحين لكى يعيشوا سنة بأكملها. وهو يتصور من الطبيعى جداً أن يعيش هو هذه الحياة المستهترة ، ويعيش فلاحوه فى مثل هذا البؤس والحرمان . . .

وليس بينه وبين عماله أى اتصال ، وليس فى الماضى ما يذكره بقريته ، أو يثير عنده أى اهتمام بها . وليس فى الريف الآن عائلات كبيرة تتسم بالكرم والجاه ، والصفات الطيبة ، كما كان الحال منذ زمن مضى يوم كانت فى القرى ، وفى عواصم المديريات كثير من هذه الأسر التى تمثل حالة المجتمع المصرى هناك فقط أريستوقراطية الغنى ، والغنى يفضل المدينة على الريف .

فى إحدى زيارات الملك فؤاد الأول لعواصم المديريات ، روى لنا شاهد عيان قال : وقف الملك لحظة يصغى إلى الأغانى الريفية ، ويشاهد الألعاب التى يقوم بها

الفلاحون احتفاء بمروره ، فقال أحد الوزراء من مرافقيه مظهراً دهشته ، لهذا الالتفات من جلالته :

أن إضاعة عشر دقائق على هذا النحو ، كرم . وتنازل عظيم يا مولاى .

فرد الملك قائلا :

لولا هؤلاء الفلاحين يا باشا ، ماكنت تتمتع بإيراد سنوى قدره خمسة آلاف من الجنيهات ، وماكنت تصل إلى مركز الوزارة ، وتحصل على رتبة الباشوية ...

رسخ احتقار الفلاح فى أذهان «المتمدنين» إلى درجة أن كلمة « فلاح » أصبحت عندهم هى الكلمة التى تلفظ فى معرض الشتم والإهانة ، وتتضمن أسوأ معانى القذف والسب . . . وأصبح الملاحظ أن الفلاح لا يستحق فى نظر هؤلاء الأغنياء أى احترام أو رعاية وأنه « شىء » لا يؤبه له ولا يعنى بشأنه ، وأن مسألته لا تستحق أن يعنى ببحثها إن صح أن له مسألة على الإطلاق . وقليل منهم كان يأسى لما عليه الفلاح من جهل وركود ، ولكنه لا يحاول أن يعمل عملا فى سبيل إزالة هذا الجهل والركود ، وذلك حتى لا يؤدى هذا المجهود إلى تحمل شىء من التضحية أو تكبد نقص فيما يتمتع به من مال وترف ، وقل ما شذت فى هذه الحالة التى فاقت كل حد وجاوزت كل معقول .

هناك فقط طبقة من متوسطى الملاك المقيمين بالريف ، وهذه الطبقة ، تعيش بين الريفيين ، وتتصل بهم ، وهى مثل طبقة صغار الملاك ، تقيم فى القرية ، وتنشط للكسب والعمل ، وتبتعد عن عادات الترف وتؤثر البساطة ، وتباشر أعمالها الزراعية ومراقبة إيرادها ، وتتبادل مع الطبقات الصغيرة المحبة وحسن الجوار ، وتجاملها فى الأفراح والأتراح ، فى الأعياد والمواسم ، وتسبغ على الحياة الاجتماعية الريفية لوناً محبباً ينمى فى نفوس الريفيين مشاعر السلام والوئام والرضا والاطمئنان .

ومعظم الناشئة من تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية فى عواصم المديريات ، وطلبة المعاهد الدينية التابعة للجامعة الازهرية ، والموظفين ، والضباط ، والمحامين والمهندسين والقضاة معظم هؤلاء ، إن لم يكن كلهم من أبناء هذه الطبقة ، وإليها ينتمى عظماء مصر ورجالها القادة من أمثال الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وفتحى

زغلول ، ومصطفى النحاس ، وطه حسين إلخ لكن هذه العائلات آخذة فى التناقص شيئاً فشيئاً ويرجع ذلك للعوامل الآتية :

١ — نمو الثروات وزيادة الأطماع ، ويترتب على هذا أن الأجيال الحديثة من هذه الطبقة تندمج فى الطبقات العليا وتسكن القاهرة أو الاسكندرية ، وقد كان لثورة سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ على الأخص أثرها فى هذا التطور ، وإن كان هذا التطور قديماً وتضاعف بعد ذلك بسبب انتشار الثقافة الغربية ، وماجره هذا من تأثير الذوق الأوروبى المجافى لبساطة الريف وخشونته وقد كان لهذا أثره فى اتساع وعظم مدينتى القاهرة والاسكندرية فى الثلاثين سنة الأخيرة .

وقد استمر تدفق الموجات من سكان عواصم المديريات ، والمراكز ، والقرى ، من جميع أنحاء البلاد على العاصمتين ، وانتقلت إليهما ثروات كبيرة ، وتضاعف فيهما عدد العمارات والمبانى الضخمة ، وكثر عدد السكان وازدهرت المتاجر والأسواق ، وغصت بأدوات الترف والزينة إلخ .

٢ — تفتت الثروات بسبب الميراث ، وبسبب كثرة عدد الأطفال . ومعروف أن الابن يرث ضعف البنت حسب أحكام الشريعة الإسلامية ، ولكثرة تفتت الميراث على هذا الوجه ، كثيراً ما نرى أن المالك الذى يملك ٤٠ فداناً حينما يموت وتنتقل ثروته إلى أبنائه ، ثم إلى أحفاده يكون نصيب كل واحد من أحفاده نحو فدان ، وبهذا يصبح من صغار الفلاحين بعد أن كان جده مالكاً كبيراً .

وليس هذا وحده هو سبب تفتت الملكية ، بل هناك أسباب غيره ، منها الرغبة فى شراء قطع صغيرة تبعاً لاختلاف القدرة على الشراء .

والفلاح يحب الأرض حباً شديداً حتى أنه يشتريها بأغلا الأثمان لأنه يشتريها قطعاً ضئيلة تبلغ القراريط القليلة ، ولقلة دخله مع رغبته الشديدة فى الامتلاك يلجأ إلى الاستدانة لتسديد أثمانها .

ويكثر الطلب على الأراضى التى تباع فى مزادات عامة حيث يشتريها من يقدم أكبر ثمن .

ويحدث أحياناً ، على سبيل المثال ، أن تعرض قطعة أرض مساحتها أربعة أفدنة للبيع بثمن قدره ٨٠٠ جنيه فيتقدم لشرائها . اثنا عشر شخصاً من الفلاحين يتفقون فيما بينهم عن شرائها دون رفع الثمن على أن يقتسموها بعد ذلك فيعلم بهذا مالك غنى من المنطقة المجاورة يقوده الطمع فى الربح إلى مكان البيع ، ويعلن لمن يجده من الناس . أنه سيشترى هذه القطعة ، وسيدفع فيها الثمن الذى يطلب فيها ، مهما كان مقداره ، ويتسامع بذلك الأهالى ، ومنهم المتقدمون للشراء فيبادرون إليه ويعرضون عليه مبلغاً من المال لكى ينسحب من المزاد ، ويتظاهر هو بالرفض فيلحون عليه بالرجاء ، ويساومهم هو ثم يقبل منهم مايستطيع أخذه ، وينصرف عن المزاد راضياً عن نفسه على أن يكرر ذلك متى لاحت له فرصة أخرى ، أما الفلاحون الذين تخلصوا من منافسته بإعطائه خمسين جنيها ، فإنهم يجدون أنفسهم قد أحسنوا الصنع بتخلصهم من منافس كانت منافسته ستعرضهم إلى رفع ثمن الأرض ، أو ضياعها من أيديهم .

السلطة التنفيذية

(أداة الحكم)

تتولى سلطات الحكومة الإشراف على نظام زراعة الأراضى وريها ، وإليها يرجع النظر فى هذه الشئون ، وهى بحكم هذا الوضع صاحبة السلطة التى يخضع لها المالك والعامل على السواء غير أن موظفى الإدارة الذين يمثلون الحكومة ، وفى يدهم توزيع المياه فضلا عن شئون الأرض وزراعتها يجدون أنفسهم ، بحكم هذا الوضع يمثلون أهمية النيل وعظمته ، وسلطة القامة والأوصياء على القاصرين وعديمى الكفاءة . وينتهى هذا كله إلى خضوع الفلاح لجميع أوامر الحكومة ، والإذعان لها .

وبينما الحكومة فى المدن ، فيما يتعلق بغير الزراعة من شئون المبانى والصناعة وغير ذلك ، تعهد بهذه الشئون إلى سواها من الشركات والمقاولين، نجدها . فيما يتعلق بالزراعة والرى، على عكس هذا ، فهى حتى فى الأعمال التى تقوم بها، فى البلاد الأخرى

هيئات غير حكومية ، تأبى إلا أن تتولاها هى ، دون غيرها ، حتى لقد رسخ فى أذهان الأهالى فى الريف ، والمشتغلين بالزراعة ، أنها تنوب عن العناية الإلهية ، ولها حق تنظيم وولاية كل شىء ، بينما الفلاح المسكين ، يجب أن يظل قاصرا ، مسلوب الإرادة ، وعليه أن يطيع الأوامر طاعة عمياء.

* * *

وتقوم وزارات الحكومة ، بالإشراف على مختلف المصالح العامة ، كل منها فيما يخصها .

فتشرف وزارة الأشغال العمومية ، على الرى ، وتعد نظام المناوبات ، لكل منطقة حسب حالتها ، وتسهر على السدود والقنوات ، وتجمع الفلاحين للمحافظة على جسور النيل ، حينما تصبح حالة الفيضان مهددة بالخطر .

ووزارة الزراعة ، يرجع إليها تحديد المساحات التى ستزرع قطنا ، والمساحات التى ستخصص لزراعة الأرز ، وهى وحدها التى تتولى بيع بذرة القطن ، وتنتقى البذور والتقاوى ، وتتولى جمع الرجال ، لمقاومة دودة القطن ، والجراد ، والمحافظة على الزراعة من الآفات والحشرات .

أما وزارة المالية ، فهى التى تحصل الضريبة ، عن طريق الصيارف المعينين فى القرى ، وهى تقوم بتنفيذ الحجوز ، وتقوم بشراء محصول القطن ، لكى تحمى الفلاح من الوسطاء والعملاء المستغلين ، وتمد الفلاح ، عن طريق مؤسسة التسليف الزراعى التعاونى بالقروض ، والبذور ، والأسمدة ، محافظة عليه ، ومساعدة له .

وتشرف وزارة الصحة ، على شئون العلاج ، والمحافظة على الصحة العامة .

وتؤدى وزارة التعليم واجبها ، فى نشر المعارف ، وتثقيف أبناء الشعب .

ولوزارة العدل اختصاصها ، فى نظر القضايا المعروضة على المحاكم ، والتى يعانى الأهالى ، ما يعانون ، من تأجيلات ، حتى يجىء دور الفصل فيها أخيراً .

وتتولى وزارة الدفاع ، تجنيد الجنود الصالحين للخدمة العسكرية ، وتطبيق القوانين المتعلقة بهذه الشئون .

وتتولى وزارة الداخلية ، تنفيذ جميع اللوائح المتعلقة بجميع الوزارات ، وتقوم بالإشراف على شئون الأمن العام .

وعدد الوزراء ينمو من وقت لآخر وقد بلغ عددهم الآن ، خمسة عشر وزيرا ، عدا وزراء الدولة (الوزراء بلا وزارة) ، وأصبح اشتغالهم بالسياسة ، أكثر من اشتغالهم بأعمال وزاراتهم ، وهم يسافرون إلى أوروبا للتنزه ، أكثر مما يسافرون إلى المديريات ، لتفقد شئون البلاد .

والوزارات فى مصر ، تتغير كثيراً كما يحدث الآن ، فى جميع البلاد الحديثة ، وبهذا يحل وزير ، محل وزير ، ويهمل البديل ، مشروعات سابقة ، حتى لا يكون الفضل فى هذه المشروعات عائدا إلى سواه ، ومقترنا باسم غيره ، ونظام الحكم فى مصر ، نظام مركزى ، والسلطة مركزة فى يد الوزراء ، وتوقيعهم ضرورى لنفاذ الأعمال ، الهام منها وغير الهام ، وبديهى أن هذا يؤدى إلى بطء سير الأمور ، وعقم الجهاز الحكومى .

وهؤلاء الوزراء ، لايعرفون الأمور إلا عن طريق ما يرفع إليهم ، من التقارير الرسمية ، ولهذا تكون قراراتهم ، فيما يتعلق بشئون الفلاح ، تنقصها الخبرة الشخصية والمطابقة للواقع والمصلحة .

ووزارة الشئون الاجتماعية ، التى بها مصلحة خاصة بالفلاح ، وكذلك وزارة الشئون البلدية والقروية ، وهى أحدث من سابقتها ، هاتان الوزارتان ، شأنهما أقل من شأن الوزارات الأخرى .

والوزارة ، فى شكلها الحالى ، لايرجع تاريخها ، إلى أكثر من قرن من الزمان حيث نظمت على الوضع الحالى تقريبا ، أيام محمد على ، ولم يخلق محمد على هذا النظام الذى يحكم به الفلاح خلقاً ، لكنه تناول ما كانت عليه البلاد أثر ما أحدثه بها من الفوضى والتخريب ، حكم المماليك والأتراك ، فبدل فيه ، وأعاد تنظيمه ، ولما كان هدفه هو تأسيس أسرة حاكمة ، فقد راعى أن يضع فوق رأس الفلاح ، هرما من الحاكمين ، والموظفين ، يضمن بقاءه واستمراره ، أكثر مما يرمى إلى مصلحة البلد .

وجاء من خلفائه فى الحكم ، من كان لبعضهم نية صادقة لخير الفلاح ، فالسلطان حسين كامل ، والملك فؤاد الأول كان لهما رغبة فى النهوض بالفلاح أظهراها فى كثير من المناسبات . لكنهما كانا ، بحكم الأوضاع السائدة ، وبعدهما عن الفلاح ، وكثرة عدد من يتولون عرض المسائل وكتابة التقارير ، مما يحجب عنهما الحقائق ، ويحول دون إدراك الأمور . وناهيك بهذا العدد الضخم ، والجهات المتعارضة التى تتولى تنفيذ القرارات وتطبيق اللوائح ، أنها سلسلة لا نهاية لها ، بل هى جيش جرار لا يقل تعداده عن ٢٨٢٠٠٠ من الموظفين ، يستنفذون من أجل القيام بهذه الخدمة ، ما يقدر بثلث إيراد الدولة وقد كتب الأستاذ مكرم عبيد وزير المالية ، فى تقريره ، الذى قدم به ميزانية الدولة إلى البرلمان ما يأتى :

« إن النظام البيروقراطى ، الذى طال عهده ، هو سبب شقاء الفلاح الدائم على الرغم مما وصلت إليه البلاد من تقدم وازدهار » واقترح « وضع حد » لهذا النظام البالى العتيق الذى جعل من الشعب خادما لتلك الأداة الحكومية ، التى هى فى الأصل ما خلقت إلا لتكون خادمة له .

وكان الثقل الفادح لهذا النظام ، ممثلا فى السلطة التى فى يد المدير والمأمور والعمدة ، ينصب على كاهل الفلاح .

وسنتكلم عن كل واحد من هؤلاء الثلاثة فيما يأتى :

فمصر تنقسم ، من الناحية الإدارية ، إلى أربعة وعشرين قسما خمسة منها مدنية ، وتسمى محافظات وهى : القاهرة ، الإسكندرية ، دمياط ، بور سعيد ، السويس ، ثم أقسام الحدود وهى : منطقة البحر الأحمر ، سيناء ، الصحراء الغربية المشتملة على واحة سيوه ، البحرية ، الفرافرة ، والصحراء الجنوبية ، وتشتمل على واحتى الداخلة والخارجة .

ثم تجىء الأقسام الزراعية ، وهى المسماة مديريات ، وعددها خمس عشرة مديرية ، وهذه المديريات يتراوح عدد سكانها بين ٣٢٠٠٠٠ وبين مليون نسمة وهى : البحيرة ، الغربية ، الفؤادية ، كفر الشيخ ، الدقهلية ، الشرقية ، المنوفية ، القلوبية .

وهى تشبه المروحة ، وتكون الدلتا . وهذه المديريات السبع ، هى أكثر المديريات سكانا ، وأحسنها ريا .

وفى مصر العليا تقع مديريات الوجه القبلى متراصة على طول نهر النيل ، وهى تسع مديريات تقع على الترتيب الآتى :

الجيزة ، بنى سويف ، الفيوم . المنيا ، الفاروقية ، أسيوط ، جرجا ، قنا ، أسوان .

ويدير كلا من هذه المديريات ، موظف كبير يحمل لقب مدير ، ويتبع وزارة الداخلية ، وهؤلاء المديرون ، لا يستمرون فى أماكنهم مدة طويلة ، والأماكن القريبة من القاهرة من حظ المقربين من ذوى السلطة ، المحظوظين ، أما غيرهم فينقلون إلى أقاصى الصعيد ومديرية المنيا ، وهى معتبرة من المديريات ذوات الموقع الحسن ، تغير مديرها خمسا وعشرين مرة فى المدة الواقعة بين سنتى ١٩٠٧ - ١٩٤٧ .

ويقيم المدير ، فى عاصمة مديريته ، وهى عادة إحدى المدن الواقعة بالمديرية ، وقدلا تكون أكثرها عمرانا ، أو أعظمها سعة ، غير أنها عاصمة المديرية ، ومحل إقامة المدير ، الذى يمثل السلطة المركزية ، وليس بين هذه المدن مدينة تتوافر فيها أسباب الرفاهية الكاملة .

والمدير يجعل عنايته واهتمامه لكبار الأهالى ، لا لصغارهم ، وهو لا يعرف الفلاحين معرفة مباشرة ، والفلاح لا يسهل عليه القرب منه ، فضلا عن الحصول على المنزلة عنده ، بل هو يسمع عنه من بعيد ، ويقوم بدفع ما عليه من ضرائب الحكومة ، وربما رآه أثناء إحدى زياراته لقريته ، وهو يتصوره من طينة أسمى من طينته ، وطبقة أعلا بكثير من طبقته ، ويجله إجلالا يقرب من التالية والعبادة ، ويرى فيه الحاكم المطلق الذى لا حد لسلطانه .

والمدير يباشر سلطته ، من منصبه الرفيع ، بواسطة المأمورين ، وكل مديرية ، مقسمة إلى عدة مراكز ، يختلف عددها من ٣ إلى ٧ بحسب المديرية ، ما عدا مديرية الغربية ، وهى أكبر المديريات وبها اثنا عشر مركزاً .

والمأمور يشرف على قوة من جنود البوليس مقسمة إلى ٣ أو ٤ قرى رئيسية بالمركز ، وهو صاحب السلطة التنفيذية الواسعة فى مركزه. والفلاح يرهب سلطانه ، وينظر بخوف ورهبة إلى مركزه ، ومما يروى بهذا الصدد ، للدلالة على ماله من الجاه فى نظر الفلاح ، أن أحد القرويين رأى الخديو عباس ، وأراد أن يدعو له ، فقال فى سذاجة « حفظك الله وجعلك مأموراً لمركزنا » .

لكن هذا المأمور نفسه ، لا يعرف الفلاح وما هو عليه ، وكيف يعيش ويعمل إلا عن طريق العمدة ، والذى يدركه الفلاح أو يفهمه ـ وهو المواطن والناخب ـ لا يعرفه إلا عن طريق العمدة ، وهو يعتبره قاموس القانون والسياسة .

وكل قرية من بين الـ ٤٢٤٥ قرية « وهو مجموع عدد القرى المصرية » يحكمها عمدة يعين عليها من بين أعيانها ، ولابد أن يكون من ملاكها ، وألا يقل ما يملكه عن عشرة أفدنة ، وهو النصاب الذى حدده القانون الصادر فى سنة ١٨٩٥ لكل من يرشح للعمدية .

ويسبق تعيين العمد ، منافسات تلبس ثوب الخصومات الحادة والمشاحنات العنيفة بل المعارك الدامية ، وتعقبها سلسلة من الأحقاد والثارات تكون سبباً فى جرائم القتل وسفك الدماء .

والعمدة من جانبه ، يعرف كيف يحصن نفسه ، ويستخدم سلطته ، وينكل بخصومه عند الاقتضاء لأنه هو وحده الذى يمد مأمور المركز بالمعلومات وهو الحاكم المتسلط على نحو ٢٠ أو ٢٥ من الخفراء والحراس ، وهو المسئول ، بحكم وظيفته ، عن حفظ الأمن فى القرية ، وما يجاورها من الحقول والزراعات التابعة لها .

وهو يمثل قريته أمام المأمور ، ويسأل عن الجرائم التى تقع فى الناحية حين يبلغ عنها ، ويساعد الصراف فى تحصيل الضرائب ، والأموال المطلوبة للحكومة ، ويجمع الرجال الذين يطلبون ، للمصالح العامة ، ويراقب حمل السلاح ، وينفذ الأوامر المتعلقة بالصحة العامة ، للأناسى والحيوانات ، ويراقب قيد المواليد والوفيات وإعداد جداول الانتخابات .

والعمدة لا يتناول راتباً على عمله ، لكنه ، عدا ما تمنحه وظيفته من نفوذ وهيبة ، يتمتع بعدد غير قليل من الميزات ، فهو يعفى من ضريبة خمسة أفدنة من ممتلكاته ، ويعفى من السخرة ، ومن الخـــدمة العسكرية ، عن نفسه وعن أولاده .

ووظيفة العمدة هى فى الواقع ، وأن لم يكن ذلك بحسب القانون ، ميزة لعائلة العمدة ، وإذا كانت القرية من القرى الكبيرة المساحة الكثيرة السكان ، عين للعمدة مشايخ يعاونونه ،فيتاح له بذلك ، أن يعقد منهم مجلسا للمناقشة والحكم ، وقد روى لنا تلميذ من تلاميذ مدارسنا وهو ابن عمدة من عمد الوجه القبلى ،كيف يقوم هؤلاء العمد ، بمباشرة سلطتهم فى قراهم فقال :

فى قريتنا ٢٥ غفيرا ، تحت إمرة والدى وهم مكلفون بحراسة القرية ، منذ الساعة الخامسة مساء حتى الساعة الخامسة صباحا ، ويتولى اثنان منهم حراسة منزل العمدة .

وطريقة الفصل فى المنازعات ، أن يجلس العمدة وسط « المنتزه » أى الحديقة الخارجية للمنزل وحوله بعض مشايخ القرية ، ويقف الخصمان أمام هذا المجلس ، حيث يدلى كل منهما بأقواله وبعد سماع ما يقوله الطرفان ، يحاول العمدة أن يصلح بينهما ، وأن يحكم بما يراه متفقا مع العدل ، فإن لم يقبلا حكمه ، أمر بحبسهما ، فى إحدى الحجر إلى اليوم التالى ، حيث يرسلهما إلى المركز فى حراسة اثنين من الخفراء » .

وللعمدة أن يصدر أمراً بالحبس مدة ٢٤ ساعة ، وأن يحكم بغرامة ٢٥ قرشا وليس فى القرية مركز للعمدية ، وإنما مقرها هو بيت العمدة ، وهو يستقبل فيه أهل القرية ، والقادمين إليها طول النهار ، إذا لم يكن مشغولا بمصاحبة أحد الموظفين فى تأدية أعمال رسمية ، أو بمباشرة أعماله الزراعية .

وهو يذهب إلى المركز لمقابلة المأمور أو لقضاء مصالحه الخاصة أو غير ذلك .

وهذا النظام الذى لا رقابة عليه ، إذا كان فيه مزايا كثيرة ، من ناحية ميزانية

الدولة ، فهو مشتمل على مضار كثيرة بالنسبة للفلاح : إذ هو يجعله تحت رحمة سيد ، لم يتعود حياة المجالس النظامية ، ولم يألف جو العدالة المدنية إلا فى قليل من الأفراد ، الذين نحن أول من يقدرهم ، وهو نظام ليس فيه ضمان لاستقرار الأمن العام . وكثير من الجرائم تضيع معالمها ، ويفلت الجناة من العقوبة ، أو تلصق الجناية بالأبرياء بسبب هذه السلطة المطلقة التى لا رقابة عليها وكثير من الأحقاد والضغائن فى القرى ، منشؤها هذه الحالة .

فى ناحية البارود بمركز أبو تيج خلا مركز عمدية البلدة . وتقدم لشغل هذا المركز عدد من المرشحين ، كان من بينهم اثنان هما أكثر المرشحين نفوذاً وأكثر أصواتاً ، هذان المرشحان هما : الشيخ أحمد أبو زيد ، والشيخ أحمد فرغلى ، أحدهما كان قد سبق فصله من العمدية بقرار إدارى ، والآخر كان عمدة فى سنة ١٩٣١ ، وكان قد فصل كذلك بقرار من حكومة نسيم باشا ، وكلا المرشحين كان قوى النفوذ والبطش كثير الأنصار والمؤيدين .

وكانت اللجنة التى تتولى عملية الانتخاب مؤلفة من مأمور المركز رئيساً ، ومن ممثلى القرى المجاورة ، ومن مأذون القرية وكان هذا المأذون من أقارب أحد المرشحين فطلب المرشح الآخر إبعاده ، وأعلنت سلطات المركز أن مأذون ناحية « أولاد إلياس » المجاورة ، سيجلس فى اللجنة بدل المأذون المستبعد لكن ، حينما حل موعد الانتخاب الذى كان شفهياً ، شوهد المأذون المطلوب إبعاده جالساً فى اللجنة ، فتظلم أنصار خصمه ، وتعرض لهم الفريق الآخر فنشبت معركة دامية أسفرت عن قتل ثلاثة رجال وجرح عدد آخر جروحاً خطيرة فقبضت السلطات على المرشحين ، وأمر مدير أسيوط بوقف الانتخاب فى ناحية البارود والنواحى المجاورة لها حتى يعود الهدوء والسكون (١١ يوليو سنة ١٩٣٧) .

والفلاح يساوره من ناحية رؤسائه من الموظفين وكبار الملاك شعور الخوف والاحترام ، ممزوجاً بالحذر وعدم الثقة وهولا يعترض على ما يلقاه منهم من سوء المعاملة ، وهم يغالون فى احتقاره وامتهانه ، وكأن ذلك من حقوقهم وكأنه تصرف لا غبار عليه .

وقد حدثنى أحد أصدقائى من كبار الملاك ، وهو مع ذلك رجل ذو صفات طيبة قال : « إن الفلاحين يجب سوقهم بالسياط » .

ولقد دخلت مكتب أحد معاونى البوليس فوجدته يجلد أحد المقبوض عليهم بالسوط ، ولما بدا على الاندهاش من هذه المعاملة ، قال لى هذا المعاون « إن هؤلاء الفلاحين يجب أن يعاملوا بهذه الشدة ، إنهم أشبه بالبهائم » .

وبين المدينة والريف هوة بعيدة المدى فالفلاح الذى ظل بعيدا عن المدينة يفصله عن ساكن المدينة الذى تعود العادات الغربية ، وأصبح على اتصال قليل أو كثير ، بالمدنية الأوروبية فاصل سميك يمتد إلى أزمنة بعيدة ، وقد عثر على خطاب يرجع عهده إلى ثلاثة قرون قبل المسيح . وهذا الخطاب الخاص ، وردت فيه العبارة الآتية وهى « لا تعاملنى كما يعامل الفلاح المصرى » وقد كان ساكن المدينة كما يظهر من هذا الخطاب فى تلك الأزمان البعيدة ، كما هو اليوم ، لا يهبط القرية إلا لكى يحصل إيجار ضيعته ، أو ليحصل ضرائب الحكومة من الفلاح[1] .

لا نتحدث هنا عن الفلاح من ناحية التحليل النفسى . لكننا نشير فقط إلى أن هذه المعاملة التى يعامل بها قديمة ، وأنه منذ الأزمان البعيدة لم يكن يحظى بشىء من الالتفات إلا حينما يكون مطالباً بدفع ما عليه من أموال الحكومة ، أو من إيراد لملاك الأرض ، أما حينما يتعلق الأمر بإنصافه أو معاملته كأنسان فهو لا يلقى شيئاً من العناية ، بل يظل منسياً مهملا .

(١) حوليه . مصر فى القرن الثالث . مختصر تاريخ مصر . المجلد الاول ص ٣٩٣ .

بون شاسع بين القرية والمدينة

النظام النيابى

بدأت الحياة النيابية عام ١٩٢٩ عقب إعلان الدستور فى مصر المستقلة ، وقد استمدت أحكام هذا الدستور من نصوص الدستور البلجيكى .

وكان عدد الأعضاء فى مجلس النواب ٣١٩ عضوا ، وعدد أعضاء مجلس الشيوخ ١٧٢ وهؤلاء هم ممثلو الأمة فى المجلسين .

وهؤلاء الأعضاء يمثلون سبعة أحزاب سياسية ليست لها برامج محددة ، وهم فى مجموعهم من الملاك الزراعيين ، ومن أعيان الأقاليم انتخبهم الفلاحون — إن صح أن هناك انتخاباً — تحت تأثير الرشوة ، أو الإكراه بالقوة حسب الطريقة التى استعملها الحزب أو المرشح .

وقد أثيرت مشكلة الفلاح فى المجلس مع هذا ، وهاك مثالا للمناقشة التى دارت فى هذا الشأن :

— النائب المحترم عبد العزيز الصوفانى (متحمساً)

من الواجب أن ننظر إلى الفلاح ، لنعرف إلى أى مدى وصل من البؤس والفقر (ضجة من بعض الأعضاء)

— رئيس المجلس :

« حافظوا على النظام . احترموا علنية الجلسة (يعود النظام والهدوء ببطء)

— النائب المحترم عبد العزيز الصوفانى :

إننى أستطيع أن أعد مئات الحالات التى تدل على شقاء الفلاح وبؤسه .

هناك فلاحون لا يكادون يجدون الطعام الذى يقتاتون به ، وقد رأيت بنفسى فلاحاً ينقل محصوله على ظهره ليسلمه إلى مخزن بنك التسليف الزراعى ، وكان يعرف أنه لا بد أن يقدم نقوداً على سبيل الرشوة حتى لا توضع أمامه العراقيل فى قبول إيداع محصوله . فخضع لهذه الضرورة مرغماً حتى لا يصطدم بهذه العراقيل .

أن الفلاح يعانى الشقاء والبؤس والغبن ، يجب أن تهتم الحكومة ، وأن تحاول تخفيف البؤس المستمر عن كاهل الفلاح (١٦/٦/١٩٤٤) على الشيشيني بك .

كان يجب أن نهتم ، منذ مدة طويلة ، وأن نبدأ بعلاج ماتعانيه البلاد من سوء الحالة الاجتماعية والصحية ، أن هذا العلاج يجب أن يكون شاملا ، لا أن يكون قاصرا على بعض النواحى ، إذ العلاج الناقص ، لا يحقق الغرض المنشود .

ومن رأيى أن الخطر كامن فى فقد التوازن الاجتماعى بين طبقتين مختلفتين أشد الاختلاف ، ولا شك أن تحكم الطبقات الغنية ، وسوء نظرتها للطبقات المحرومة سيفضى إلى نشوب معركة بين طبقة قليلة العدد ، ولكنها كبيرة الثروة ، وطبقة أخرى هى الأغلبية الساحقة التى تعيش فى البؤس والحرمان ، وهذه المعركة ستؤدى إلى تحويل الأغنياء والفقراء على السواء عن معركة استقلال الوطن وحريته ، إذ ينصرف الأغنياء إلى ملذاتهم ومتعهم ، وينصرف الفقراء إلى انتشال أنفسهم مما هم فيه من فقر وبؤس ، أن سوء الوضع الاجتماعى راجع إلى الفقر الذى يخلق الأمراض والجهل .

يجب أن نحارب الفقر ، أول ما نحارب ، وأن نوجه المعركة إلى الفقر الذى سيزيد من الشعور بعدم المساواه ، وسيفضى إلى تفاقم الاختلال الاجتماعى . وكما أن الزراعة هى أساس ثروتنا ، والأغلبية الساحقة من السكان هم الفلاحون فيجب أن ننظم ونحدد العلاقة بين المستأجرين وملاك الأطيان ، على أساس يضمن للمستأجرين حياة كريمة تحفظ صحتهم ، إذ المشاهد بلا نزاع أنهم يعانون حالة مؤلمة ، ونحن إذا نظمنا هذه العلاقة ، ورفعنا الغبن عن الفلاح نهضنا فى الوقت نفسه بالصناعة والتجارة ، ورفعنا مستوى كل منهما لأن تحسين حالة الفلاح ، ورفع مستوى معيشته وقدرته الشرائية سيمكنه من شراء السلع والمنتجات المصنوعة فى مصر ، وهى سلع ومنتجات ، تلائم مستواه الاقتصادى ، فى حين يقبل الأغنياء على شراء المعروضات الأكثر ثمناً المستوردة من الخارج .

وفى يدنا الكثير من الوسائل والأساليب التى تمكننا من خوض معركة نحارب فيها الفقر ، ومن أمثلة هذه الوسائل ، فرض ضريبة مرتفعة على أدوات الترف والزينة ، وعلى الأشياء الكمالية ، وضريبة إضافية تصاعدية على الأغنياء ، والغنى الذى يستطيع تحمل ضريبة مائة جنيه ، لا يرهقه مطلقاً أن يدفع عشرة أخرى ، والسفر إلى الخارج ، يجب ألا يكون معفى من القيود مباحا لكل من يريده ، بل يجب ألا يسمح به إلا لأسباب صحية ، أو تجارية ، أو زراعية . ويجب أن يكون خاضعاً لتحديد ضيق من حيث المدة المصرح بها أو النفقات التى يتطلبها (جلسة ١٩٤٧/٢/١٧) .

* * *

بعد ثلاثين سنة من ممارسة التشريع كانت الهيئة النيابية فى بلد زراعى تعاقبت فيه على الحكم أثناء هذه المدة عدة أحزاب لم يحاول أى حزب منها أية محاولة للإصلاح الزراعى ، ولم تضع هذه الأحزاب قانوناً واحداً يهدف لخير الفلاح . . . أو تحاول الحد من تضخم الملكيات الكبيرة ، ولا حماية الثروات الصغيرة من التفتت ، ولم تفكر فى وضع نظام يحدد الايجارات الزراعية أو يضع حداً أدنى لأجور العمال الزراعيين أو يفرض على كبار الملاك تقديم الخدمات الاجتماعية للعمال ، وباختصار لم تحاول أن تنفذ أو تصدر قانوناً واحداً من عديد المشروعات النائمة فى الملفات المكدسة فى الدواليب والمكاتب وفوق الرفوف .

كتب محمد المشماوى باشا يقول : هل من الممكن أو المقبول أن تتسامح فى حرمان الفلاح ، وهو الصانع الرئيسى للثروة الزراعية فى بلادنا ، وللثروة الصناعية التى تعتمد على الزراعة . هل مما يقبل التسامح أن يكون الفلاح ، وهذا شأنه ، محروماً من أى ضمان أو حماية تحققها القوانين العمالية ؟؟

كيف يمكن أو يقبل أن تجمع هذه القوانين العمالية التى صدرت فى مصر . على قلتها ، كيف تجمع على ألا تمنح أى ضمان أو تشجيع أو حماية لذلك العنصر الذى يكون الغالبية العظمى للشعب ؟[١] .

---

(١) جريدة المصرى عدد ٣ يناير سنة ١٩٤٩ .

أن الهرم الاقتصادى والسياسى يضغط على الفلاح بكل ثقله ، وهذا المدرج من الحكام على اختلاف طبقاتهم .

هؤلاء الحكام الذين يجلسون على تلك القمم العالية تتغير أشخاصهم ، ويذهب السابقون منهم ليجيء اللاحقون ولكن الضغط الواقع على الفلاح ، أى على هذا العامل الأساسى لثروة البلد لا يعتريه التغير ولا النقصان ! . وما يعانيه الفلاح ويقاسيه من جهالة وإهمال ، وما يلحقه من غبن وظلم ، يجعله دائم الالتصاق بالأرض ، هذا كله هو الوضع الذى يضاعف ما هو فيه ، ويشله عن مقاومة هذا السحق ، والعمل على الخلاص والتحرر حتى أصبح الضغط عليه ، وإلصاقه بالأرض ، هو طابع حياته ، والوصف المشخص لها .

الفصل الرابع

الفلاح العامل الكادح

كانت الفصول المتقدمة بمثابة تمهيد لموضوعنا . فقد عرضنا فيها لحالة المجتمع الريفى عرضا موجزاً استدعى تصوير ما عليه هذا المجتمع من النواحى المادية والمعنوية ، وبذلك اقتربنا من الموضوع نفسه .

والآن نستطيع أن ندخل فى الموضوع مباشرة ، بدراسة الفلاح نفسه ، دراسة مفصلة .

ولنتكلم أولا عن عمل الفلاح فى الزراعة وحياته فى مجتمعه وبيئته .

وكلمة « فلاح » معناها العامل لأن هذه الكلمة العربية التى أصبحت كلمة عالمية ، نقرؤها فى معاجم كل اللغات ، هى مصدر بصيغة المبالغة من فعل « فلح » ومعناها حرث ، وهو معنى يتضمن العمل والجهد بحسب المعنى اللغوى .

والواقع أن الفلاح يمثل فى نظر الجميع « اليد العاملة » بل الأداة الأساسية التى تعتمد عليها الزراعة ، وتمثل العمل والدأب .

وصورة الفلاح ترسم فى الذهن دائماً فى إطار العمل والكد ، فى الحرث والسق والغرس قبل أن تتمثل فى شخصه وملبسه ومسكنه . فقد هيأته الأرض والبيئة لهذا العمل ، وطبعته بطابعه .

وننتقل بعد هذا التمهيد الضرورى ، لدراسة الفلاح من الناحية الإنسانية، ذلك الإنسان الذى جاد على الأرض من كده وعمله ، وجادت عليه البيئة والأرض ، بالأمن والخير ، فتبادلا على هذا النحو ما جعلهما قوتين متكاملتين متلازمتين .

الأعمال الزراعية

الأرض فى مصر صالحة للزراعة طول العام ، وليس لدى الفلاح ، من ناحية العادات والتقاليد الدينية ، ما يلزمه بتخصيص يوم للراحة الأسبوعية فهو يعمل طوال

العام ماعدا أيام الأعياد ، وهى لا تزيد عن عشرة أيام فى السنة ، والشمس فى مصر ، تظل فى الأفق ١١ ساعة على الأقل وهى فى شهرى مايو ويونيو . تمكث خمسة عشرة ساعة فى كبد السماء ، والفلاح يظل مشغولا بعمله أكبر وقت ممكن ، وأحيانا تضطره بعض الأعمال إلى قضاء الليل فى الحقل .

ويكاد الفلاح ، لشدة انصرافه إلى عمله واندماجه فيه ، ينسى عوامل الجو ومؤثرات البرد والحر « متوسط درجة الحرارة فى الصيف (٢٨,٦) ، وفى الشتاء (١١,٥) » وهو يشتغل عارى الرأس والقدمين باذلا كل جهد من أعصابه وقواه البدنية وعدته فى ذلك العمل الشاق ، يداه القويتان ، وما عنده من بعض الآلات البدائية التى تعد كافية نظراً لسهولة التربة ، ووفرة اليد العاملة .

كيف يعد التربة ويهيؤها

أنه يعدها مستعينا بالفأس الذى يستخدمه بمهارة وصبر ، لكثير من العمليات الزراعية ، فهو يسحق به قطع الطين الجافة المتصلبة ، ويمهد الأرض ويسويها ، ويشق الخطوط ويعدل المساقى إلى غير ذلك ، وهذه الأداة القوية المتينة ، كما قلنا ، هى عدته . والجزء الأمامى منها عريض بحيث يستخدم كجرافة وجميع عمال الزراعة يملكون هذه الآلة النافعة الضرورية ، وهى تسمى فى بعض الجهات الطورية .

وجميع الأراضى فى مصر يمكن أن يعتبر العمل فيها يدويا . حتى لو استعمل الفلاح المحراث ، لأن المحراث المصرى ليس أكثر من أداة يدوية وهو يزن ٤٠ ك.ج يمكن حمله على الدابة بسهولة .

وهو ليس آلة معقدة ذات مكملات وحوامل وعجل ، كما هو الحال فى فلسطين وسوريا وأفريقيا الشمالية ، وسائر البلدان العربية أذهو عبارة عن سلاح طوله ٢٥ س.م . له يد من الخشب ، وهو يعلق فى مجر طوله ثلاثة أمتار ونصف ويعلق هذا المجر بواسطة نير يوضع فوق عنق الحيوانات لا على جباهها ، كما هو الحال فى أوروبا ، والحيوانات التى تجره هى ، عادة ، الجاموسة ، والبقرة ، والثور وأحيانا الجمل والحمار .

الفأس هى الأداة القوية التى يعتز بها الفلاح

الجاموسة التى تشبه فى لونها الأرض السمراء هى مصدر ثروة الفلاح

والحراث يقف بثقله فوق مؤخرة المحراث ، وهو الجزء الذى فيه السلاح ، ضاغطا فوق هذا الجزء ، وموجها حيوانات الحرث ، حريصا على أن تكون الخطوط مستوية ، وهو يعرف كيف يوجه الحيوانات دون استعمال السيوط . بل بمجرد أسماع النداء ، وأحكام القبض على المقود ملوحا بجديلة من اللوف المصنوع من خلوف النخل .

ويستطيع الحراث أن يتم حرث ثلث فدان أو نصف فدان فى اليوم ، وإذا كان مالكا يعمل فى أرضه وماشيته معتنى بها من حيث التغذية والراحة استطاع أن يكمل ثلاثة أرباع الفدان فى نفس المدة ويستغرق حرث الحقل نحو ١٠ أيام إلى خمسة وعشرين يوما ، إلا فى أراضى الحياض حيث الحرث ممكن طول أيام السنة .

كتب مسيو أوديبو Audebeau ومسيو موصيرى Mosseri فى نهاية البحث الذى ألقاه عن الحرث فى مصر ما يأتى :(١)

« إن المحراث المصرى هو أفضل أنواع المحاريث بالنسبة لمصر حيث يكفى حرثها حرثا خفيفاً ، يكون كافياً لتغطية البذرة ، لكى تنبت قبل جفاف الطبقة السطحية .

هذا المحراث هو أفضل أنواع المحاريث حينما تروى الأرض ريا خفيفاً ويكون من الضرورى ألا يتبخر الماء بسرعة ، وتجف التربة . وليس بين المحاريث الأجنبية التى جربت حتى الآن ما هو أحسن من المحراث المحلى ، من وجهة النظر الميكانيكية والزراعية والاقتصادية » .

والمحراث المصرى لا يزيد ثمنه على مائتى قرش وهو لهذا يلائم إمكانيات الفلاح ومقدرته المالية ، فضلا عن أنه أكثر ملاءمة للتربة المصرية ، فهو نتيجة هذين العاملين وهو سهل الاستعمال ، وذلك يجعله لا يلغى مجهود الفلاح ، ولا يقطع ما بين الفلاح والأرض .

---

(١) نشرة المعهد المصرى القاهرة ١٩١٦ ص ٨٣ — ١٢٧ .

هذا وبعض الإخصائيين يعتبر المحراث المصرى أقل صلاحية من غيره فى الوقت الحاضر ، إذ هو لا يسمح بتهوية الأرض ، وهو أيضا ، فى بعض الحالات لا يكفى لتفتيت التربة فيكون نمو النبات ضعيفا ، وعلى الأخص حينما يراد زراعة القمح بعد الأرز ، وقد كانت زراعة القمح بعد الأرز غير معروفة حتى زمن الحرب ثم انتشرت بعد ذلك زراعة الأرز وصار من المألوف ، أن يزرع القمح بعد الأرز ، ولذلك أصبح من اللازم استخدام الجرارات الميكانيكية ، والجرار يحرث فدانا كل ساعتين ، وقد انتشر استعمال هذه الجرارات الآن .

ولأجل أن يصلح الفلاح الأرض ويزيل منها النواتئ يستخدم الزحافة ، وهى عبارة عن لوح من الخشب أو نصف جذع نخلة تشق نصفين بالطول ويسمى (فلق) وطول الزحافة من ثلاثة أمتار ونصف إلى أربعة أمتار ، ويقف الفلاح فوقها وهى تجر مستعرضة بواسطة بقرتين أو بقرة وثور ، وهذه الأداة البدائية تغنى عن الأدوات الأوروبية المستخدمة لهذا الغرض والزحافة ، تستخدم لتغطية البذور المنثورة فى الأرض ، عقب الحرث ، ويمكن أن تمهد بها أربعة أفدنة فى اليوم .

أما القصابة ، التى يستخدمها الفلاح لتسوية الفلاح حتى يمكن ريها بسهولة فهى عبارة عن صندوق زنته من ٥٠ إلى ٦٠ ك ، ج ذات حاجزين جانبيين يحجزان فوقها التراب مسافة كافية وتنقله من أعالى الأرض إلى منخفضاتها لإتمام عملية التسوية ولها يدان يمسكهما الفلاح لرفع التراب وخفضه حسب الحاجة .

والجاموسة ، وكذلك الحمار ، من بين حيوانات الزراعة التى يعتمد عليها الفلاح أعظم اعتماد ، وقد برزت أهميتهما حتى كأن الطبيعة هى التى تداخلت فى ترشيحهما ، واختيارهما مساعدين قويين للفلاح .

ومن المفيد هنا أن نتحدث عن هذين الحيوانين ، فالجاموسة ، وثمنها يبلغ الخمسين جنيها ، وهى فصيلة بقرية لونها داكن يشبه لون ماء النيل ، وهى تمتاز بالقوة ، أكثر من البقرة وتقوى على مقاومة الأمراض ، وهى من بين جميع الحيوانات المنتجة للألبان أكثرها نفقة ، وتبلغ تكاليفها فى السنة نحو سبعة جنيهات ، وهى بسبب كثرة

حتى الأطفال يقومون بحراسة الأغنام

فوائدها أثمن شيء عند الفلاح ، حتى أنه ليعنى بها أكثر مما يعنى بنفسه ، وذلك معروف عنه .

وهى حين تحصل على الغذاء الكافى أى على مقدار ثمانية عشر قيراطا أى ثلاثة أرباع فدان مزروعة برسيما ، مدة فصلى الشتاء والخريف ، ومن ١٠ إلى ١٢ أقة من التبن أو الدريس يوميا فى فصل الصيف ، مع مراعاة عدم الانتقال المفاجىء ، من العلف الشتائى أى من البرسيم الذى يشتمل على ٦٧٪ من الماء ، إلى نظام التغذية الجافة الذى يستمر ٥ شهور .

إذا اتبع هذا فى غذاء الجاموسة فإنها تعطى من اللبن أكثر مما تعطى أى بقرة أى تعطى ٤٠٠٠ رطل مقابل ٢٫٣٤٠ ويلاحظ أن اللبن يباع وزنا ولبن الجاموسة أكثر غنى بالدسم من ابن البقرة ، أذ تبلغ نسبة الدسم فيه ٧٪ بينما نسبة الدسم فى ابن البقرة ٣٫٥٪ ولحم الجاموس يمتاز كثيراً عن لحم البقر .

والفلاح لا يهتم بتربية الماشية ولا يعنى باستغلال لحمها ولبنها ، على الرغم مما هو واضح من المزايا التى تنتج من تربية الماشية كما تقدم ، وهو يعرض عن الاهتمام بإنتاج اللحم واللبن مكتفيا من جاموسته مما استخدامها لأعمال الحرث وإدارة الساقية للرى دون نظر إلى غير ذلك ، والحمار فى مصر أقوى وأعظم جلدا من الحصان ، كما أن الجاموس أكثر قوة من البقر ، وهو حيوان اقتصادى ، لا يتطلب اقتناؤه عناية تذكر ، وفى الدلتا يبلغ ارتفاع النوع البلدى منه مترا ولونه فى الغالب أسود وهو فى المتوسط ، يستطيع حمل نحو مائتى رطل ويساوى من الثمن اثنى عشر جنيها ، والحمار الأبيض أو الرمادى اللون يوجد فى مصر العليا ، ويسمى السورى وهو يقدم للسواح ليركبوه حول الأهرام وهو أحسن شكلا وأكبر حجما إذ يبلغ ارتفاعه مترا وعشرين سنتيمترا ويساوى اثنى عشر جنيها .

والجمل للحمل وعلى الأخص لنقل المحاصيل فى زمن الحصاد .

لايعـرف الفـلاح طعـم الراحــة حـتى يروى أرضــه

٢ — رى الأرض

وحينما ينتهى إعداد الأرض ، يجىء وقت ريها وتسميدها ، وحينئذ ، لا ينتظر الفلاح ماء المطر كى يفعل فلاحو شرق الأردن ، فالماء حاضر ، قريب منه فى النهر وفى الترع ، لكن يجب توصيله للأرض ، والفلاح لا صبر له على الانتظار حتى تكون أرضه قد رويت .

الماء يجرى فى القنوات والفروع ، كما تجرى الحياة فى العروق والشرايين من الجسم ، ٢١٫٥٠٠ ك من القنوات توزع الماء بالعدل على الزراعة و ١٣٫٠٠٠ من المصارف لتصريف مياه الصرف بعد التصافى إلى النيل أو البحيرات .

وفى أيام الجفاف فى شهر يناير من كل سنة وهى تستمر حوالى ٤٠ يوما حيث تجف المياه من الترع ، يشرع فى أعمال التطهير الشتوية على نفقة الحكومة ، وتنتهز الحكومة فرصة استغناء الزراعة عن الرى فى تلك الفترة لكى تملأ بالمياه خزان أسوان وجبل الأولياء .

وزمن التحاريق هو فترة هبوط منسوب مياه النيل إلى أقل مستوى .

وفى فترة التطهير هذه تجرى عملية التطهير فيقف صفان من العمال ، صف يكون فى قاع الترعة ، والآخر يقف موازيا له على سفح الجسر أى الشاطىء ، وينتزع الصف الأول طمى الترعة بالأيدى ، وكل واحد يقذف ما ينتزع إلى من يقابله من الصف الواقف حذاءه فوق السفح ، حيث يتناول منه الطمى ويقذفه بعيداً عن المجرى ، ويشمل التطهير ، طبعاً ، الأعشاب والحشائش النابتة فى قاع المجرى وفى السفحين مع الطين المتراكم فيها .

ولكى يتم التطهير فى الترع الرئيسية ، وفى القنوات الفرعية ، وتتمكن المياه من التدفق والجريان ، لكى تصل إلى الحقول وتغمرها ، يبذل الفلاحون فى التطهير جهدا عظيما وعناية كبيرة فى أعمال التطهير هذه ، علما منهم بما لهذه العملية ، من الأثر البالغ ، فى كثرة الإنتاج وجودة المحصول .

وحينما يجيء دور كل زارع فى الرى ، وهو خمسة أيام فى كل خمسة عشر يوما فى أيام الفيضان ، وستة أيام كل ثمانية عشر يوما فى أيام الانخفاض ، يكون الفلاح على أعظم أهبة حتى أنه يسهر ليالى بأكملها لكيلا يفوته أى قدر من الماء المخصص له ، وحينما يكون منسوب الماء عالياً ، يسهر الفلاح على وصول الماء إلى الحقل وإزالة العوائق من طريقه ، حتى لا يعطل وصوله ، لكن الماء يكون منخفضا ، فى مدة تتراوح بين ٥٠ يوما ومائتى يوم فى السنة ، حسب الجهات ولهذا يجب ، أثناء هذه المدة ، أن يعالج رفعه حتى يتمكن من رى الزراعة ، فإذا كان الانخفاض لا يتجاوز خمسين أو ستين سنتيمترا يعمد الفلاح إلى واحدة من طريقتين ، الأولى منهما قل استعمالها الآن ، والطريقتان هما .

١ — الأولى تسمى طريقة النطالة وهى أقدم الطريقتين ، وأقلهما نفقة رغم ما تكلفه من جهد بدنى شاق وكانت مستعملة أيام المصريين القدماء ، وهى تستخدم الآن فى اليابان ، ويمكن رى فدان كل يوم بهذه الطريقة .

وهذه الطريقة تكون بواسطة رجلين يواجه كل منهما الآخر على الشاطئين حيث يقفان فى مكان واطىء يقرب من سطح الماء ويقومان بهذه العملية متقابلين ، باذلين مجهودا بدنيا شاقا ، لا يتكافأ مع النتيجة التى يصلان إليها .

٢ — والطريقة الأخرى ، تسمى الرى بالطنبور ، وهذا الطنبور هو آلة تدار باليد ، يتبادلها رجلان طول النهار ، وهى ترفع الماء بواسطة مركب حلزونى بداخلها يتلقف الماء حين تدار ويرفعه من الترعة بسرعة الدوران حتى يصعد إلى مستوى القناة التى تروى الحقل .

والطنبور أقوى وأسرع من النطالة وهو يروى ضعف ما يروى بالنطالة أو ثلاثة أمثاله .

وكلا الطريقتين المتقدمتين بدائى وبطىء ، وهو لا يستعمل إلا حين يكون انخفاض الماء قليلا ، أما إذا كان الانخفاض كثيراً ، يزيد على متر أو أكثر إلى عشرة أمتار فإنه يكون من الضرورى الرى بآلة ميكانيكية ، وأكثر ما تكون

الآلات الميكانيكية ، في الملكيات الكبيرة ، أما الفلاح الصغير فهو فقير فى المال ، غنى فى الوقت ، يفضل بطبيعته الطرق السهلة المألوفة ، وقد حل ، منذ القدم ، مشكلة الرى ، بتقسيم المياه ، وبالتعاون مع جيرانه ، بالطريقة التى عرفها ، ولم يحتج إلى أكثر منها ، وابتعد بطبيعته عن تركيب الآلات الميكانيكية ، فى معظم الأحيان ، إذ هى تحتاج للنفقات ، وتتعرض للمشاكل .

ولأجل رفع الماء من انخفاض يزيد على المتر ، جرى الفلاح على طريقة بدائية وسهلة هى طريقة « الشادوف » .

والشادوف يروى نحو الفدان فى اليوم وهو يستعمل فى معظم بلاد الشرق ، ولكنه أسلوب مصرى الأصل ، وهو مصور على النقوش المصرية ، ونجده أكثر استعمالا فى مصر ، منه فى بقية البلاد الشرقية والعربية .

والآلات المتقدمة ، النطالة ، والطنبور ، والشادوف تدار بواسطة العامل .

وهناك الساقية ، وهى تختلف عن الروافع المتقدمة ، وهى بدائية مثلها ، ولكن على مستوى أفضل ، وتدار بواسطة الحيوان حيث يعلق فيها الثور أو الحمار أو الجاموسة أو غيرها ، فيدور فى دائرة تلتف من حول البئر ، حيث تحرك دورته ، بواسطة قائم خشبى مثبت فوق عنقه رحى أفقية متحركة ذات تروس ، تلف بدورها عجلة كبيرة رأسية تتحرك حركة دائرية يرفع بواسطتها الماء من أسفل البئر فى قواديس متتابعة ترتفع بالدوران حتى تصير فى مستوى الأرض فتقذف بالماء إلى المجرى الموصل للحقل .

وتبلغ تكاليف الساقية من ٢٥ إلى ٦٠ جنيها حسبما يستدعيه انخفاض الماء أو ارتفاعه ، ولذلك يشترك فى ملكيتها عدد من العائلات حيث تروى كل منها أرضها فى دورها بواسطة جاموستها .

والساقية تروى فى اليوم نحو الفدان وتخصص لمساحة قدرها خمسة أفدنة .

---

(١) يرجع استعمال الساقية إلى عهد البطالسة وهى تسمى لولب أرشميد .

وعمل الفلاح فى إدارة الساقية ، ينحصر فى حث الحيوان على الدوران فهو يسهر على استمرار دوران الساقية وتدفق الماء ومراقبة عدم تسربه أو ضياعه قبل وصوله إلى الحقل أو أثناء وصوله لأن الساقية قد تكون على بعد ٥٠٠ متر من الحقل .

وعلى هذا يكتفى برجل مسن أو طفل صغير فى عملية إدارة الساقية لأن عمله لا يعدو ذلك المجهود السهل ، إذ يصغى إلى صرير الساقية مردداً بعض الأغانى التى ألفها ، والتى تدل بمعناها ونغمها على شعوره بالراحة وقلة المجهود .

والساقية بأنواعها المختلفة ، مثل التابوت والطنبوشة الخ تملأ المزارع الآن ، وتعد بالألوف فى حقول مصر وتحت اسم « نوريا » نجدها مستعملة لدى فلاحى سوريا وشمال إفريقيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا واليونان.

والفلاح يعنى أشد العناية بالرى ويعده فى مقدمة المهام ، وهو يسرف فى استعمال المياه ولا يقف فيها عند حد الاعتدال ، وهو لا يكاد يفهم أن كثرة المياه ترفع منسوب الطبقة المائية فى باطن الأرض ، وتضعف خصوبتها ، وتعرض النبات للضعف ، ونقص الغلة وينشأ عنها ضعف التربة بمجرد أن يصل منسوب الماء الجوفى فيها إلى متر وخمسة وعشرين سنتيمترا تحت سطح الأرض ، هو لا يرى إلا شيئا واحداً ، ذلك الشيء هو الضرر الذى يسببه العطش ونقص الرى فهناك نقص المحصول وحلول الفقر ، ولهذا فهو يجتهد فى الحصول على كل نقطة من الماء أثناء دوره .

ومفتشو الرى فى الأقاليم ، والخفراء المخصصون لمراقبة الترع والفتحات يعجزون فى أغلب الأوقات ، عن تنفيذ الأوامر الضرورية وحفظ العدل بين المنتفعين وأصحاب الأراضى ، وتتدخل الأحقاد والأغراض الشخصية ودوافع الانتقام والمحسوبية فى هذا الوقت .

ومما يدل على أن الفلاح يحرص على رى أرضه أحيانا أكثر من حرصه على الحياة الحادثة الآتية .

تملك عائلتا شرابية وعمارة ، بالاشتراك بين العائلتين ، ساقية بزمام ناحية « جمجمون » بمركز دسوق ، ويروى كل منهما أرضه فى أيامه التى تخصه.

وقد حدث أن حلت النوبة فى الرى لعائلة شرابية ، وحضر على شرابية وأخوه لاستلام الساقية وإدارتها فوجدا أحد أفراد عائلة عمارة يروى أرضه ، ولما طلبا منه تسليمها الساقية ليتمكنا من رى أرضهما امتنع عن ذلك ، واستمر يروى أرضه ولما تبادلوا الكلمات ، وطلب شرابية من عمارة النزول على حكم الحق صمم عمارة على موقفه ، فاشتبكوا فى معركة بالأيدى ، وكان على مقربة منهم ابن عم لعمارة جاء حاملا عصا وسكينا وهجم على شرابية وطعنه بالسكين فجرحه جرحا بليغاً ، وتطورت المعركة ، بحضور أفراد العائلتين ، ولما جاء رجال البوليس وأنهوا المعركة كان هناك قتيلان مطروحان على الأرض .

٣ ـ التسميد

لا يكنى أن تترك الأرض فترة كافية لكى تجف ، بل يجب أيضاً أن تقوى التربة وتغذى بالعناصر التى تعوضها ، وعملية التسميد هى التى تقوم بذلك ، والفلاح يوليها أشد اهتمامه وعنايته ، فالسماد أهم مايحفظ على الأرض خصوبتها ، ويضاعف إنتاجها .

ويهتم الفلاح وزوجته وأولاده ، بتوفير السماد ، ماأمكنهم ذلك . مع الاجتهاد فى الحصول عليه . بأقل النفقات .

وأنواع السماد البلدى مثل الفـ..لات التى يخرجها الحمام . وكذلك الطين الناتج من تطهير الترع والقنوات ، المختلط بالحشائش وعلى الأخص ، السباخ البلدى المأخوذ من تحت أرجل الماشية بالزرائب بعد تتريبها أى فرشها بالتراب . حيث يختلط بروث الماشية وبولها ، ثم يؤخذ بعد ذلك ليستعمل سماداً للأرض . وهذا هو السماد الأساسى عند الفلاح . وكذلك مايؤخذ من الأكوام فى القرى والأتربة المتروكة التى مضت عليها أزمان طويله كل هذه الأنواع تعطى الأرض من الآزوت الذى يقوى تربتها ، وكذلك الأكوام القديمة إذا نقلها الفلاح إلى حقله كانت مادة سماد عظيمة وتسمى السباخ الكفرى .

وهذا النوع من السماد . لم يبق منه الآن إلا بقايا قليلة من النوع الأقل جودة فقد استنفد الجيد منه أوكاد .

تقف زوجة الفلاح إلى جانبه دائما

وفى الصعيد الأعلى توجد أنواع مثل « الماروج » و « الطفل » ينقلها الفلاحون إلى حقولهم ولكنها من الأنواع الرديئة فى التسميد وهى لا تكفى ولا تفى بالغرض لا من حيث كميتها ، ولا من حيث فاعليتها واحتواؤها على العناصر الملحية . والأرض تحتاج لتقوية تربتها على الدوام .

ومنذ بداية هذا القرن. نظراً لنفاد كميات السباخ الكفرى الجيد . بدأ الفلاحون يستخدمون الأسمدة الكيماوية .

وقبل الحرب العظمى . كانت مصر تستورد أكثر من نصف مليون طن من نترات شيلى الطبيعى ، وهى أقدم الأنواع وأكثرها شهرة . ومن نترات ألمانيا . وانجلترا الصناعية . وهى تستعمل لجميع الزراعات ماعدا زراعة البرسيم وبعض الخضروات والفول إذ تحتاج هذه الأخيرة إلى السوبرفوسفات .

وتوزع الأسمدة الكيماوية بواسطة بنك التسليف الزراعى التعاونى . وهو يبيعها معبأة فى أكياس ويؤجل تقاضى الثمن وكذلك تقوم بتوزيع السماد ، هيئات أخرى مثل الجمعية الزراعية وبعض الشركات الكبرى المستوردة ، وهكذا يوجد نحو ٢٠٠٠ مخزن موزعة فى أنحاء البلاد لتوزيع السماد .

والعملاء المستهلكون لتلك المادة معظمهم من كبار الملاك . بطبيعة الحال وكذلك مصلحة الأملاك الحكومية التى تقدمه لمستأجرى أطيانها ولزراعها ، حسب المساحة التى يزرعها كل مستأجر أو شريك ثم تأخذ ثمنها فى نهاية الموسم الزراعى .

أما صغار الملاك فيحصلون على السماد عن طريق الوسطاء والتجار الذين يستغلونهم منتهزين حاجتهم الشديدة إلى تسميد أراضيهم . ويباع الشوال المحتوى على مائة كيلو بثمن يتراوح بين مائة قرش وثلثمائة قرش (تسليم القرية) حسب طبيعة السماد المقدم .

ويحتاج الأرز والقمح إلى السماد المرتفع الثمن ، أما السماد الرخيص فيستخدم للبرسيم .

ويحمل السماد، سواء كان بلدياً أو كيماوياً، على الحمار الذى يسوقه ابن الفلاح أو طفل غيره إلى الحقل، حيث يتناوله الفلاح ويبعثره فى التربة مع تكرار هذه العملية، عملية الذهاب والمجىء إلى أن يتم التسميد.

وقد كان الفلاح، منذ عشرين سنة تقريباً، معارضاً فى استعمال السماد الكيماوى أما الآن فقد صار من أشد أنصاره الحريصين على استعماله، غير أنه لايعرف أفضل الطرق لاستعماله وهو إما أن يسرف فى الكمية التى يستهلكها، وإما أن يقلل منها. ولم تغيره السنوات الكثيرة التى قضاها فى استعمال السباخ الكيماوى.

وهو يجهل أيضاً، أفضل الطرق لاستعمال المبيدات الحشرية، ومن أمثلة ذلك، أنه فى بعض الجهات التى تقدمت فيها زراعة الفول. تظهر حشرة الفول فيستخدم بعض كبار الزراع، الخبيرين باستخدامها حسب القواعد الفنية لإبادتها، سلفات النيكوتين فينجو المحصول ويحصل هؤلاء الزراع على نحو خمسة أرادب من الفدان أما الفلاح الصغير، الذى يجهل طريقة استخدامها، فلا يتجاوز محصول الفدان عنده أكثر من أردب ونصف.

كيف يجنى الفلاح ثمار الأرض؟

يبذل الفلاح مايبذله، من جهود لخدمة الأرض بغية الحصول على ماتنتجه من غلة، وما تخرجه من زرع وثمر، وهو يعمل فى سبيل هذه الغاية، عملا متصلا، من وقت البذر حتى وقت الحصاد، وقد مضى الوقت الذى كان فيه يبذر الحب، ثم ينتظر بدون عمل بضعة شهور. يعود بعدها ليجنى الزرع. وقد أصبحت معركة الحياة عنده الآن ممتدة طول العام وأصبح عمله لاينقطع.

ومنذ أدخلت زراعة القطن، وهى تستدعى أعمالا كثيرة صعبة. وكذلك من عهد إدخال نظام الرى الدائم، والزراعات فى كل الفصول، أصبح عمل الفلاح لاينقطع طول السنة.

وتتوالى الزراعات، ابتداء من القطن على الوجه الآتى. كل سنتين أو ثلاث سنوات.

فبراير — أكتوبر	قطن
نوفمبر — مايو	قمح أو برسيم أو شعير
مايو — يونيو	الأرض بدون زراعة فى جزء منها .
يونيو — نوفمبر	ذرة أو أرز
ديسمبر — فبراير	برسيم
أبريل — أكتوبر	قطن
نوفمبر — مايو	حبوب أو برسيم
مايو — نوفمبر	ذرة أو تكون الأرض شاغرة
نوفمبر — مارس	برسيم أو حبوب
مارس — مايو	تكون الأرض شاغرة فى جزء منها
يونيو — أكتوبر	ذرة أو أرز
نوفمبر — مارس	برسيم

هذا التقويم السنوى الزراعى - حسب الشهور الجريجورية يجرى كل حقل بحسبه ، مع التفاوت القليل بين الحقول ، حسب خبرة الزارع وتجاربه ، وظروف المنطقة ويحدد الزراع مواعيد الزراعة ، بالشهور القبطية فى الوقت نفسه ، وذلك لأن حساب هذه الشهور يعتمد على موعد الفيضان السنوى . ونظام النهر ، وهو يرجع إلى أقدم عصور المصريين القدماء .

وقد ظل هذا الحساب مراعى فى كل العصور ، واحترمه كل الفاتحين ، وهو يبدأ من شهر توت (سبتمبر) الشهر الذى يصل فيه الفيضان إلى أعلى مستوى ثم يستمر إثنا عشر شهراً ، حسب نظام السنة الشمسية وهذه هى الشهور القبطية :

توت . بابه . هاتور : كيهك : طوبة . أمشير . برمهات . برمودة . بشنس . بؤنة . أبيب . مسرى ،

وهناك عبارات شعبية تجرى على ألسنة الفلاحين ، وهى عربية . ولكنها مترجمة عن لغة المصريين القدماء . وهى تشرح مواعيد الزراعة . وتشير إلى مواقيتها

عمل الفلاح يستمر حتى تلقى البذور

حسب الشهور القبطية . والمحصول الرئيسى الذى تتحدث عنه هذه الأمثال الشعبية . هو القمح إذ هو المحصول الزراعى الوحيد الذى عرفته مصر منذ تلك العصور . أما القطن ، فلم يكن يعرف إذ ذاك ، لأنه محصول جديد أدخلت زراعته فى العصور الحديثة.

هذا الحساب ينظم أيضاً مواقيت العبادة عند الأقباط . فالديانة المسيحية فى مصر حينما جاءت . لم تغير ما كان موجوداً قبلها . ولكن حدث فى سنة ٢٨٤ أوائل حكم الأمبراطور « ديو كليسيان » وفى سنة ٣٠٤ اضطهاد دينى معروف بعصر التعذيب والإضطهاد .

والمسلمون وهم غالبية سكان البلاد يجرون على حساب التقويم الهجرى (٦٢٢) وأساسه السنة الهلالية .

ومنذ سنة ١٨٧٥ أدخلت الحكومة حساب الشهور الجريجورية الذى عرفه الشعب الآن بعد تردد استمر زمناً ، وأصبح يعمل به ولا تعتمد وزارة الزراعة إلا على هذا الحساب الذى يفهمه الآن أغلبية الأهالى العظمى وإن كان بعض الفلاحين لا يزال يستعمل الحساب القبطى .

وسنتكلم عن المحاصيل الرئيسية ، فى مصر المعاصرة . وهى المحاصيل التى يشتغل بها معظم الفلاحين وهى . القطن . وهو عماد الثروة الاقتصادية للبلد . الذرة والقمح . وهما مادة غذاء الأهالى ، البرسيم . وهو غذاء الماشية . أما أنواع الزراعات الأخرى فيكفى أن نشير إليها إجمالا .

(ا) زراعة القطن :

لم يكن القطن مجهولا من قدماء المصريين ويظهر أن بعض الأقمشة خلال العصر الفرعونى كانت تنسج من القطن . لكن هذا المحصول الهام لم يشغل مكانته الحاضرة فى عالم الزراعة والصناعة إلا فى منتصف القرن التاسع عشر أى منذ تجارب «جوميل».

وقد كان إدخال نظام الرى الدائم فى الوقت نفسه ، ونمو عدد السكان ، وتحسن أسواق القطن فى العالم . كل ذلك كان عاملا هاما جعل زراعة القطن من أهم أنواع الزراعة وصير مصر مزرعة للقطن من الدرجة الأولى .

ورغم سياسة الاقتصاد الموجه ، التى جرت عليها مصر . ظلت زراعة القطن هى

الـــذهـــب الأبيـــــض

الزراعة الأساسية فى مصر المعاصرة وأصبح القطن يزرع فى جميع المديريات ابتداء من مديرية البحيرة شمالا حتى مديرية أسوان فى أقصى الجنوب .

ومنعاً لخلط تقاوىء القطن ، ومحافظة على جودة الأقطان المصرية ، وهى الأقطان التى عرفت جودتها فى جميع أنحاء العالم . واشتهرت بطول التيلة ، تحتفظ وزارة الزراعة لنفسها بمراقبة التقاوى ومنع المحالج من خلطها .

والفلاح يشتريها مقدما ، عن طريق الجمعية الزراعية ووكلائها ، وعن طريق بنك التسليف الزراعى ، وعن طريق المحالج .

وتودع التقاوى فى التربة ، حيث تكون الأرض قد هيئت للزراعة ، بحرثها مرتين أو ثلاث مرات وبتقسيمها إلى خطوط . على أبعاد ٢٠ سنتيمترا وعلى الحافة الجنوبية من الخط . على مسافات ٦٠ سنتيمترا تقريبا تحفر حفر صغيرة ، يوضع فيها من ٦ إلى ١٠ حبات من التقاوى . وبعد مدة خمسة عشر يوما يكون النبات خلالها قد نبت فى التربة ، يجىء الفلاح ليتفقد الحفر التى لم ينبت فيها الزرع فيعيد زراعتها ويرويها باليد . وبعد ستة أسابيع يكون النبات قد نما بدرجة كبيرة فيجىء الفلاح ليقتلع من كل حفرة مازاد على نبتتين إثنتين فقط وتسمى هذه العملية فى عرف الزراعيين عملية « تطليق الباقات » .

ويروى الزرع بعد ذلك ، كل خمسة عشر يوما إلى خمسة وعشرين يوما خلال شهرى مايو ويونيه . ثم كل ١٢ يوما إلى ١٥ يوما خلال شهر يوليو ويبذل الفلاح أشد الجهد لإيصال الماء إلى كل الخطوط وأثناء مرور الماء ، تنقى الحشائش من طريقه ، وتقتلع النباتات الضارة حتى لاتعوق نمو الشجيرات ، أو تمتص غذاءها .

وهذه العملية أشبه بعملية زراعة الحدائق والعناية بالأشجار وهى تحتاج إلى كثرة اليد العاملة ووفرة السكان . وهى فى الولايات المتحدة ، تعتمد على الآلات والماكينات أكثر مما تعتمد على العمال . واليد العاملة متوفرة ، لحسن الحظ ، والعمل المطلوب سهل يسهل على الأطفال والنساء ، كما يسهل على الرجال ، ولهذا يدر على الأسر أرباحا طيبة ، ويستوعب الأيدى ويساعد على الرخاء ، ويساعد فوق هذا على زراعة القطن فى مصر .

وبعد ازدهار سريع يبدأ ، فى شهر يوليو ، يتفتح اللوز وينمو الثمر ثم يحل موعد الجنى .

ثـم يجئ اوان رمى البـــذور

ويجنى القطن ، على دفعتين ، بين نهاية شهر أغسطس ، وأول شهر أكتوبر ، وتتحرك القرية ، فى فرق ، وجماعات ، يشرف على كل منها « ريس » حيث يتم جنى القطن باحتشاد الرجال والنساء والأطفال . ووسط الحشود ، يرتفع صوت المغنية بلحن يردده المجتمعون وهم مقبلون على العمل حيث ينزع كل منهم من اللوزة قطنها محاذراً أن يبقى منه شيئاً عالقاً بالقشرة ، أو أن يخلط به بعض الورق أو غيره ، وحينما يمتلىء جلبابه المرفوع حوله المعقود على شكل وعاء أو كيس يذهب ليفرغه فى ساحة أعدت لذلك ، وسط الحقل ، ثم يعود ليملأه من جديد ، ومن هذه الساحة ، التى يتجمع فيها ما يجنيه العمال من القطن ، يحمل القطن إلى المخازن ، ومن المخازن ، يحمل ، على ظهور الدواب ، بعد مدة ، إلى المحالج ، حيث يحلج ، ويكبس فى بالات ، فى المدة ، بين سبتمبر إلى أبريل ، حيث يعمل عدد جم من الفلاحين ، وخاصة من النساء والأطفال ، يجتمعون بقيادة الخولى لتنظيف القطن وتنقيته من بقايا البذرة وسط جو مملوء بالغبار ، حيث يتعرضون لاستنشاق هواء ضار مؤذ للصحة .

ويبلغ عدد المكابس من هذا النوع فى البلاد كلها ، نحو ١١٢ مكبساً منها فى الوجه البحرى وحده ٧٣ مكبساً وفى الوجه القبلى نحو ٣٩ مكبساً ، وهى تعمل فى كبس القطن وإعداده للتصدير ويعمل فيها العمال عملا شاقاً ، بدون رعاية صحية ، عملا يعرضهم لأمراض الصدر بما يستنشقونه من هواء مملوء بالغبار والأتربة ، وبما يقاسونه من مجهود بدنى غاية فى الصعوبة والعناء .

وفى الحقل ، بعد الجنية الأخيرة ، تبقى أعواد الشجيرات وسيقانها وهى لا تصلح إلا للوقود ، فيجمعها الفلاح ويلقيها مكدسة فوق سطح منزله لاستخدامها عند الحاجة .

(ب) قوت الفقير :

يلى محصول القطن فى الانتشار ، محصول الذرة ، ويشغل هذا المحصول مساحة كبيرة ، تزيد عن مليون ونصف من الأفدنة .

ومع أنها عرفت وانتشرت ، قبل القطن ، فهى ليست بعيدة القدم ، وكانت فى عهد المماليك ، كثيرة الانتشار ، وكتب عنها (سلفستردساسى) سنة ١٨١٠ يقول :

« كانت زراعة الذرة منتشرة فى مصر فى الوجه البحرى ، والوجه القبلى على السواء وكان الخبز المصنوع من الذرة هو الغذاء العادى لسواد الشعب » .

والذرة هو الإسم العربى لها ، ووزارة الزراعة تسميها الذرة الشامية أى السورية لتميزها عن الذرة الرفيعة ، أو العويجة وهو النوع الآخر الأسبق وجودا .

وفى أفريقيا ، فى الأراضى ذات الرى الجيد ، والتربة الغنية ، تتراجع ، الأنواع المختلفة من الذرة ، ليحل محلها ، هذا النوع من الذرة الأمريكية السهلة الزراعة ، الوفيرة الغلة التى يمكن تكرار زراعتها .

وهذه الملاحظة ، أكثر انطباقا ، بالنسبة لمصر ، فقد كانت الذرة الرفيعة ، تزرع بكثرة ، على الأخص فى الوجه القبلى (حيث يوجد رى الحياض) أما الآن ، فهى آخذة فى النقصان ، كلما تقدم نظام الرى الدائم .

وقد أخذت الذرة الشامية ، تغزو وادى النيل ، لأنها تلائم حالة الفلاح ، وطبيعة الأرض التى اشتهرت بأنها أخصب تربة فى العالم ، ولا يقارن بها إلا تربة موزمبيق .

والفلاح يزرع الذرة فى شهر يوليه حيث يبذرها ويسمدها بكمية غزيرة ويرويها سبع ريات ، وبعد ثلاثة عشر أو خمسة عشر أسبوعاً يقتلع أعوادها الطويلة المحملة بالكيزان الغليظة الممتلئة بالحبوب .

وحقول الذرة ، قبيل الحصاد ، تشبه الغابات الكثيفة التى يصعب اقتحامها ويتهيبها اللصوص .

وفى وقت الحصاد . حينما يكمل نضج الثمار يبدأ العمال والأطفال والنساء فى تقطيع الأعواد ، وتجريدها من الكيزان .

ويقول رجال الزراعة أن محصول الفدان يمكن أن يبلغ ١٠ أرادب أو ١٢ أردباً لكن المتوسط هو سبعة أرادب ونصف .

ومن أعواد الذرة ، بعد تجريدها من الكيزان ، يقام سياج دائرى حول كميات الذرة الموضوعة فى الوسط على شكل أكوام مرتفعة فى الأجران حيث تجرد من أغلفتها ، ثم توضع فى أكياس ، ثم ينقلها الفلاح لتكون فى بيته .

حان وقت الحصاد

أما أحطاب الذرة ، والأعواد التي نزعت منها الثمار ، فتحمل على ظهور الدواب إلى المنازل ليستخدمها الفلاح فى حاجاته المنزلية ، مثل تقوية السقوف ومثل استعمالها وقوداً الخ . وعلى هذا ينتفع بمخلفات الحقل ، كما ينتفع بغلته .

(ج) القمح :

كانت مصر ، فى العصور القديمة أيام الرومان ، تعتبر مخزن غلال لروما ؛ إذ كان القمح ينتج فيها بكميات وافرة . أما اليوم ، فقد تأخرت كثيراً فى زراعة القمح ، وفقدت مكانتها من هذه الناحية .

ويزرع القمح فى مساحة تساوى مساحة الذرة ، أى فى نحو مليون ونصف مليون من الأفدنة ، وتستهلك هذه الكمية بواسطة الطبقة المتوسطة فى القرى وفى المدن[1] . والقمح المصرى لا يصدر للخارج ، نظراً لقلة ما يحتوى عليه من المادة الغروية ، ولارتفاع نسبة التراب به ، وهو فوق هذا ، لا يكفى للاستهلاك المحلى .

وقد تعاقدت روسيا سنة ١٩٤٨ مع مصر على أن تصدر لها مصر ٣٨٠٠٠ طن من القطن مقابل ٢١٦٠٠٠ طن من القمح ، و ١٩٠٠٠ طن من الذرة تصدرها روسيا لمصر .

والفلاح يبذر القمح فى شهر نوفمبر حيث يكون قد سمد الأرض ورواها قبل موعد الجفاف ، ثم يروى القمح مرة أو اثنتين قبل حصاده . ويحصد القمح فى شهر أبريل ، مستخدما منجله البدائى أو مستعملا يده . ويحمل القمح فى لفافات ، على ظهور الجمال أو الحمير إلى الأجران حيث تحل الأربطة ، وتدرس كل أسرة فى دورها ، ما عندها من قمح . فتدور جاموستها فى النورج الذى تمر عجلاته المحددة القاطعة على القش والسنابل لتفرى القش وتحوله إلى تبن ، محتفظة بالحبوب سليمة . والفقراء جداً من الفلاحين ، يضربون السنابل بعصى غليظة حتى تنفرط الحبوب . وتقوم هذه العملية عندهم مقام الدراس ، لكن كثيراً منهم ، يملكون بالاشتراك مع غيرهم نوارج تقوم لهم بعملية الدراس .

(١) يفضل الاعيان من المصريين والاجانب الدقيق الأبيض المستورد من استراليا وكندا على الأخص .

والنورج عربة ثقيلة من الخشب لها عجلات ذات أسلحة تمر فوق القش متوازية لتقطيع وفرى السيقان . تجرها الجاموسة في سيرها ، والفلاح يسوقها كيلا تتوقف عن الدوران ، جالسا فوق ، مقعد خلفي مركب في مؤخرة النورج . وأثناء ذلك . يقف شخص آخر من الفلاحين : ليسوى القش تحت النورج كلما اختل وضعه وخرج عن الدائرة بفعل العجلات من فوقه والنورج أداة لاتكاد توجد إلا في مصر وحدها.

ثم يشرع عامل آخر ، بعد ذلك ، أى بعد أن تصير أعواد القمح كومة من التبن تتخللها الحبوب - يشرع العامل فى عملية التذرية (الدراوة) لفصل الحبوب عن التبن. فيقف فى تيار الهواء ، وبيده المذراة (المدره) وهى أشبه بالشوكة . حيث يرفع بواسطتها التبن المخلوط بالقمح فى الهواء فيطير التبن فى الهواء فى ناحية ، ويرسب القمح فى ناحية قريبة ، وتستمر هذه العملية إلى أن ينفصل القمح عن التبن ثم ينظف ليتخلص من أدرانه . ويوضع بعد ذلك فى الأكياس لنقله . وهذه العملية شائعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

(د) البرسيم :

تتغذى الماشية صيفا بالتبن ، مضافا إليه الفول أو الشعير ، أما فى الشتاء فغذاء الماشية البرسيم .

ويزرع البرسيم فى كل المناطق وهو يشغل مساحة قدرها ٢٠ ٪ من مجموع الأراضى ، إذ هو غذاء جيد للأرض كما أنه غذاء للحيوان . وهو واسطة لامتصاص الأزوت من الهواء ونقله إلى الأرض وهو ينمو بسهولة ولا يحتاج إلى نفقات زراعة ولا إلى عمل كثير . ويزرعه الفلاح بين شهرى سبتمبر ونوفمبر . عقب حصاد الذرة ، في كثير من الأحيان أو عقب جنى القطن أو الأرز قبل أن تقتلع بقايا القش إذ هى تحمى البذور ، والنبات الصغير من البرد .

وبعد خمسين يوما من زراعته . يحل موعد الحشة الأولى ، وبعدها تتوالى الحشات الأربع ، بين كل منها والأخرى ٣٥ يوما . وترعى المواشى البرسيم فى الأرض حيث لايحتاج الفلاح لقطعه بالمنجل . بل يكتفى برعيه وهو مزروع واقف على سوقه فتربط

الماشية . فى أول الحقل . لتأكل ما أمامها . ثم تنقل فى المكان الذى يليه ـ وهكذا . والبقرة ، أو الثور أو الجاموسة ، يكفيها من نصف فدان إلى ثلثى فدان ، طول الموسم أما الحمار فيكفيه ربع فدان .

(هـ) الزراعات الغذائية :

لكن عمل الفلاح ، فى التربة المصرية ، لم يلبث أن أنتج أنواعا أخرى من الزراعة نذكر من هذه الأنواع ، ما له أهمية وندع ما عداه :

فمن تلك الأنواع : الأرز الذى أدخلت زراعته زمن الخلفاء ، حيث نقلت إلى مصر من الهند . وهذا المحصول يزرع فى جهات دمياط وشمال الدلتا لكثرة المياه . فى تلك المناطق . والمساحة التى تزرع أرزا تقدر بنحو ٦٣٠,٠٠٠ فدان وهى تتسع وتنمو من سنة لأخرى ، تبعا لزيادة مياه الفيضان . والحكومة تحدد مساحة الأرز كل عام . حسب كفاية مياه الفيضان .

والأرز من الأنواع التى تصدر للخارج نظرا لجودته .

والفول وهو غذاء الماشية بين شهرى يونيو وديسمبر . والأنواع الجيدة منه تصلح غذاء جيدا للإنسان فتهيأ منها أطعمة شعبية لذيذة تصنع بالزيت أو بالزبدة .

ومن المزروعات البصل . وقصب السكر . وهى تزرع فى أعالى الصعيد .

والشعير والعدس . والبلح . وهناك محاصيل أخرى كثيرة آخذة فى الازدياد من سنة لأخرى .

والفلاح يحتفظ بمساحات ضئيلة يزرع فيها ما يحتاجه من أنواع الخضار حسب الموسم ، وهو يزرعها بدون سماد ويحتفظ بها لاستهلاكه الخاص فيزرع البامیا فى الشتاء والفول فى الربيع والملوخية فى الصيف . وسنتكلم عن هذا عند الكلام على غذاء الفلاح .

وهذه الأنواع القليلة الكمية والمساحة لا تحتاج لمجهود كبير .

وعلى كثرة تنوع المحاصيل والزراعات فى مصر . لم يصبح الفلاح متخصصا فى نوع أو أنواع معينة ، ولم يصبح عمله تخصصا . بل هو يزاول كل أنواع الزراعة ويقوم

فيها بعمله اليدوى بدون تخصص ومع اختلاف أنواع العمل وضروبه ظل يمارسه بسهولة ، وبدائية لاتخلق منه متخصصا ولا رجل مهنة ، ولاتجعله يجيد نوعا خاصا منه.

على أن الفلاح ليس كذلك إزاء الآلات الميكانيكية الجديدة على الجملة ويلاحظ مما تقدم جميعه أن الكلام ليس عن جرارات الحرث ، ولاماكينات الحصاد ولاماكينات الدراسة ولا عربات النقل لأن الفلاح لا يستخدم شيئا من هذه الآلات لفقره ولأنه ليس فى حاجة إليها إذ هو لا يريد وسيطا بينه وبين الأرض .

ومما لاشك فيه أن الآلات الحديثة أصبحت مستعملة الآن وأخذ استعمالها يعم وينتشر بالتدريج ولكن فى الملكيات الكبيرة التى تزرع لحساب ملاكها زراعة مباشرة وهذه الماكينات تدار بواسطة الفلاحين . ولكننا هنا لا نتكلم عن هذه الاستثناءات ، لأن الفلاح نفسه لا يستعمل هذه الآلات .

لكن . هل الذى يمنع الفلاح من استعمال الماكينات فى الزراعة هو الجهل أو الميل إلى القديم وكراهة الجديد . لقد قلنا دائما أنه الميل إلى المحافظة . والنفور من الجديد . وإذا كانت الآلة الميكانيكية قد تأخر حتى الآن دخولها إلى الحقل فى مصر فذلك لأن مالك الأرض حسب حسابه فظهر له أن اليد العاملة أقل نفقة من الآلة ، نظراً لكثرتها ورخصها . وسيتغير الأمر عما قريب . وستلتقى وجهتا النظر وسيصبح الأمر غير ما نرى . ففى الولايات المتحدة الأمريكية تحتاج زراعة ألف فدان مجهزة بالماكينات إلى ستة عشر عاملا أما فى مصر فتحتاج هذه المساحة إلى ٥٤٠ عاملا . ولن يكون الأمر كذلك على الدوام . وستتغير الحال . وغدا ستزداد مطالب العمال . تبعا لارتفاع مستوى المعيشة الآخذة فى الزيادة ، ويومئذ تصبح الماكينات ، بالنسبة لصاحب العمل أكثر اقتصادا وأشد ملاءمة .

ولكن سيظل العمل اليدوى فى الزراعة هو صاحب المنزلة الأولى ، لأن إدخال الماكينات فى الزراعة ، فى وادى النيل ، سيترتب عليه فصل العلاقة التى تربط بين العامل والأرض ، وهى علاقة حيوية تأصلت بين الفلاح والعامل وبين الزراعة . وأصبح من غير الممكن قطعها ، فهى علاقة تأصلت وساعدت عليها طريقة العمل وطبيعة الحياة فى شعب كثير العدد .

٢ — كيف يقوم الفلاح بعمله وعلاقته بصاحب الأرض :

وهذه الأرض التى يعمل فيها الفلاح بكل قوى بدنه ، حرثا وسقيا وغرسا والتى يتحمس أشد التحمس شوقا إلى امتلاكها لكنها لن تكون ملكه ، لأن الواقع هنا هو أن الأرض هى التى تملك الرجل وليس الرجل هو الذى يملك الأرض .

وربما ساعدنا هذا على تفسير ما عليه الفلاح من فقر مادى ومعنوى .

والواقع أن الحالات والأساليب التى تحدد الطريقة التى يزاول بها الفلاح عمله ، وتنظم علاقته بصاحب الأرض ـ هذه الحالات تشله وتلغى حريته ، ولا تسمح له بالتحرر واستنشاق ريح الأمل .

ولنستعرض هنا هذه الحالات ، التى ظل يعانيها الفلاح منذ عهود طويلة وهى قائمة حتى الآن ولم يتغير شىء منها .

السخرة : ألغيت السخرة ، بحسب الظاهر فى سنة ١٨٩٣ ، ولكنها ظلت بحكم الواقع والقانون فى صور أخرى وعناوين مختلفة يجمعها كلها كلمة « المنفعة العامة » والفلاح يدعى لتلبية « المنفعة العامة » بصفة جبرية ، وينتزع من حقله ومن قريته ، ويرسل إلى أية جهة يفرض عليه العمل فيها لكى يقوم بما يأتى :

(١) حينما يصير الفيضان فى حالة تنذر بالخطر ، تجمع الإدارة مئات الألوف من الفلاحين ، وتحشدهم للعمل ليلا ونهارا حيث يساقون للعمل فى تقوية الجسور وتعليتها ، والمحافظة عليها خوفا من تدفق المياه وتلف السدود ، فحينما تبدو ثغرة ، أو تلوح بادرة خطر فى ناحية تسارع الجموع إليها ، بما فى يدهم من فؤوس وقفف ، حيث ينقلون إليها الأتربة ، وجذوع النخل ، والحطب والقصب وكل ما تصل إليه أيديهم ـ حتى يتغلبوا عليها ويمنعوا انهيار الجسور ، وتدفق التيار .

وقد شهد عام ١٩٣٤ خطرا كان يهدد البلاد وينذر بالعواقب الخطيرة لولا سواعد هؤلاء الفلاحين .

وكانت الحكومة قد اعتمدت مبلغ ١٥٠,٠٠٠ جنيه فى ميزانيتها لذلك العام لأجل مكافحة الفيضان ، أى لشراء الأدوات والمواد الضرورية ، وصرف مكافآت الرؤساء

وتعويضاتهم ، ولكن الفلاح لم يحظ بشيء من التشجيع أو الأجر أو التعويض فى مقابل نقله جبريا من موطنه

والقانون ينص على أن المصريين جميعاً عليهم أن يقوموا فورا بما يطلب منهم للمساعدة على دفع أى خطر يهدد البلاد لكن الفلاح وحده هو الذى يرغم على القيام بهذا العبء ، ومع ذلك فقد اشتملت إحدى خطب العرش ، التى ألقيت فى مجلس النواب على العبارة الآتية : من الآن فصاعدا ، لن يجبر أحد على العمل فى جسور النيل أو الحياض أثناء الفيضان دون أن يصرف له أجر مناسب على عمله .

٢ — ثروة البلد مهددة ، القطن معرض للتلف بسبب الدودة ، التى تهدده كل عام فى مبدأ الصيف ، وهناك يحتشد الرجال والنساء والأطفال ، يسوقهم المقاول من إحدى المديريات الأخرى ، إلى حقل مهدد بالخطر ، ،كل منهم يحمل زاده من الخبز لمدة شهر ويناموں فى العراء ، ومن الساعة السادسة صباحا حتى الظهر ، ثم من الساعة الثانية حتى الساعة السادسة مساء يعمل هؤلاء المسخرون ، منحنين فوق شجيرات القطن ، يفتشونها صفا صفا ، شجرة شجرة ، ورقة ورقة ، لكى ينقى الدود منها حيث ينزعون الورقة المصابة بكل حرص ويضعونها فى جلابيبهم المهيأة لذلك ، أو فى أكياس بأيديهم ، وإذا أفلتت منهم ورقة مصابة فالويل لهم إذ تهوى عصا المراقب فى الحال على ظهر من يرتكب هذه الجريمة وعلى سبيل المثال : حدث فى يونيه عام ١٩٣٦ تطبيقا لقانون ١٩١٠ أن خصص مليون شاب فلاح لإنقاذ نصف مليون فدان كانت مهددة بدودة الورق ، أو دودة اللوز ، وقد أعلنت الجمعية الزراعية عن مكافأة قدرها ٢٠٫٠٠٠ جنيه لمن يكتشف علاجا يقى مصر شر هذه الآفة ومنذ ذلك الحين انتشر استعمال المبيدات الحشرية ، وقل استعمال الأيدى ، أى قل هذا النوع من السخرة .

٣ — وكل خمس سنوات ، وكانت آخر سنة منها هى سنة ١٩٣١ ، كان الجراد يغزو مصر ويهدد الزراعة ، وكان يهاجم البلاد فى سحب كثيفة وأرتال جرارة مهددا الزراعة بالتلف ، والبلاد بالمجاعة ، فيخرج الأهالى فى جماعات مماثلة لهذا الجراد

في كثافة وضخامة عدده ، وتنتقل قرى بأجمعها إلى البلاد والنواحي الأكثر تعرضا للخطر ، لطرد هذا الجراد ناحية الصحراء أو البحر .

وكانت طرق المقاومة هي حفر الخنادق وإيقاد الحرائق وإشعال الحطب لينتشر الدخان في الجو ، والصياح ، وتحريك الأيدي بالأغصان والتلويح بها في الجو وغير ذلك من وسائل إزعاج الجراد وطرده عن البلاد .

٤ — أما النوع الأخير من أنواع السخرة فهو ضغط العمد على الأهالي ذلك الضغط الذي يحدث بطريقة ظالمة ولكنها في نظرهم كالشيء العادي ، وهي أن يضطر الفلاحين لتخصيص بضعة أيام للعمل في مزرعة العمدة ، دون أن يتقاضوا عنها أجراً .

الفلاح الأجير :

تبلغ نسبة الأجراء وعمال اليومية من بين مجموع القرويين الفلاحين ٣٧٪ يجمعهم للعمل رئيس منهم (ريس) لحفر القنوات أو مد الطرق ، أو حصاد الزراعة والفلاح في هذه الحالة ، يجند مع غيره في جمع كبير ، حاملاً فأسه ، في كتيبة من أمثاله تحت رقابة وملاحظة مشرف ، على صورة هي أشبه ما تكون بمعاملة المساجين وهو في الحالات الغالبة يكون ترحيلة ، في بلد غير بلده .

وهذه التراحيل ، أكثر ما تكون في الوجه القبلي حيث زراعة القطن أقل انتشارا ، واليد العاملة أعظم وفرة وكبار الملاك لهم سيطرة ، وكذلك في أراضي الحكومة ، حيث الزراعة على نظام الاستغلال المباشر .

وهؤلاء العمال الزراعيون ، إذا لم يكونوا مرتبطين بمالك ، ولم يكونوا مطلوبين لعمل كبير ، يكونون معرضين للبطالة والفقر ، أما الذين يرتبطون بعمل دائم فهم الذين يكونون قد أسعدهم الحظ ، هؤلاء يشبهون في إيطاليا نوع العامل «الأوبليجاتي» وهؤلاء يتقاضون أجرهم في الغالب ، على قسمين ، قسم يكون نقدا وقسم آخر يكون عيناً ، فالمالك يؤجر العامل فدانا بالإيجار ، وكل يوم يمضيه العامل في عمل للمالك ،

يخصم من الإيجار ، وفى نهاية العام ، يكون الفلاح ؛ إما دائنا إذا كان قد زاد الأجر الذى يستحقه بحسب الأيام التى أداها على إيجار الفدان ، وإما مدينا ، إذا كان ما يستحقه أجرا على الأيام التى عملها ، أقل من إيجار الفدان ، وهناك طريقة أخرى وهى أن يتقاضى الفلاح خمسة قروش عن اليوم ، وأن يكون له ناتج فدان من الذرة.

ونظرا لوفرة الأيدى العاملة ونقص التشريع المنظم للأجور ظلت الأجور فى أقل مستوى .

وعلى الرغم مما أحدثته الحرب من تغيير ، فمبلغ ١٥ جنيه يعتبر حداً أقصى قلما يصل إليه العامل .

وفى تقرير لوزارة الزراعة فى يونيه سنة ١٩٣٠ كان عمال اليومية يتقاضون من ١١ قرشا إلى ١٥ قرشا أجراً يوميا فى الوجه البحرى ومن ٨ قروش إلى ١٠ قروش فى مصر الوسطى ومن ١٠ إلى ١٤ فى الوجه القبلى .

وخلال الحرب صدر أمر عسكرى جعل الحد الأدنى للأجور خمسة قروش .

أمامشروع القانون الذى وضع سنة١٩٥١ لتحديد أجر العامل الزراعى بعشرين قرشاً ، فلم يوافق عليه مجلس النواب مع أن هذا المبلغ لا يكفى الفلاح هو وأسرته إلا بما ينضم إليه من مزايا ومنح تقليدية طبيعية وحبوب من المحاصيل التى يلتقطها أطفال الفلاح عقب جنى المحصول من ذرة وخلافها وكمساحات صغيرة يزرعها الفلاح خضروات لأكله .

نظام المزراعة (الشركة الزراعية) :

يعمل بنظام الفلاحين الأجراء عمال اليومية . فى المزارع الكبرى ، أما نظام الشركة الزراعية فيعمل به فى المزارع الصغيرة فتعطى الأرض للفلاح مشاركة بينه وبين المالك ، وتكون عادة من خمسة أفدنة إلى عشرة على الأكثر .

ويقوم المالك بسداد الضريبة ، وعليه نفقات الرى ومواد الزراعة والمواشى والبذور والسماد ، ويقوم الفلاح رب الأسرة بتقديم العمل اللازم . أى جميع

الأعمال اليدوية التى تلزم للزراعة طول السنة من الحرث إلى الحصاد ، وفى نظير هذا يكون له خمس المحصول ، أو ربعه فى المساحة التى يزرعها . أو يتحمل نصف جميع المصاريف ، ويكون له فى مقابل ذلك نصف المحصول .

ويكون الاتفاق ، وهو شفوى فى معظم الأحيان أن لم يكن فى كلها قابلا لتغييرات كثيرة .

وهذا النظام . أو هذا النوع من الاتفاق ليس فيه مخاطرة ، وهو يضمن للمالك كل ما يريده من العمل ، وللفلاح خبزه اليومى ، ولكن الفلاح لا يجنى من ورائه كبير ربح إذ هو يعمل هو وأولاده ، وكل من يستطيع أن يحصل على معاونتهم ، ومع هذا لا يستطيع أن يقوم بزراعة ما يزيد على خمسة أفدنة ، وفى نهاية العام لا يحصل على أكثر من محصول فدان أو فدان وربع نظير عمل لا ينقطع مدة اثنى عشر شهراً ، إذا سارت الأمور على ما يجب لأنه ليس من النادر أن يكون ما يحصل عليه أقل مما ذكرنا .

ولما كان الفلاح قبيل الحصاد ، تخلو يده من النقود ، فإنه يلجأ إلى المالك فى فى طلب قرض يستعين به على شراء حاجاته وسد مطالبه الضرورية فقد يحتاج إلى كسوته وكسوة أولاده وزوجته وقد يضطر إلى مواجهة بعض الطوارىء مثل ختان أحد أولاده ، أو دفن ميت يموت له أو غير ذلك ، وهذه القروض الضرورية قد تزيد على نصيبه من الشركة أى على كل دخله ، وقد يتبقى عند الحساب فى ذمته دين للمالك يطلب تأجيل دفعه للعام القادم .

<u>نظام الإيجار بالنقد :</u>

والفلاح هنا يعتبر من أصحاب الأعمال ، إن صح هذا التعبير أكثر مما كان يعتبر كذلك فى الحالتين المتقدمتين .

فهو يستأجر الأرض بقيمة تتراوح بين ١٢ جنيها و ٣٠ جنيها للفدان حسب الجهة التى تقع فيها الأطيان ، وترتبط قيمة الإيجار بما تكون عليه أثمان القطن ، ويدفع المالك ضريبة الأطيان ، ويتقاضى إيجار أطيانه على قسطين يكون الأول

منهما ومقداره ربع الإيجار فى المحصول الشتوى ، والثانى وهو الثلاثة الأرباع الباقية من زراعة القطن أو الذرة ، وأحياناً يكون الدفع عيناً بأن يسلم المستأجر كمية محدودة من المحصول يكون قد اتفق على تحديدها قبلا تؤخذ من محصول القطن فإن لم يكف يؤخذ ما نقص من محصول الحبوب .

ويعمل بهذه الطريقة الإيجارية نحو ٤٠ ٪ من الفلاحين .

ويحرر العقد لمدة طويلة تكفى عادة لزراعة الأرض زراعة دورية يستوفى فيها النظام المتبع والمدة الكافية لنظام الدورة الزراعية هى عادة ثلاث سنوات .

أستأجر أحد الفلاحين فى مركز ميت غمر وهو من المراكز الغنية فدانين لسنة زراعية على أن يزرع أحد الفدانين قطناً حيث يقدر محصول الفدان بمقدار يتراوح بين أربعة وخمسة قناطير حسب نوع البذرة وحسب جودة الأرض . هذا القطن جميعه يستولى عليه المالك سداداً لإيجار الأرض ، أيا كانت حالة السعر أما الفدان الآخر فيزرعه الفلاح زراعة شتوية ، ويكون نصفه برسيما . ونفسه الآخر قمحاً ، والبرسيم هو غذاء الماشية ، أما القمح فيسدد من ثمنه ثمن البذور والسماد والمبيدات الحشرية إلخ . وهذه الأشياء يكون قد حصل عليها من المالك وهو الذى يتقاضى ثمنها ، ويزرع المستأجر أيضاً فى هذا الفدان زراعة نيلية . ذرة أو أرز ، وهذان هما المحصولان اللذان يستفيدهما الفلاح رب الأسرة ومنهما غذاؤه الأساسى ، هو وأهل بيته ويبيع ما يفيض لديه منهما إن صلحت الأحوال .

وعلى هذا يمكن أن يصل من عمله طول العام ، إلى ربح قدره اثنا عشر جنيها ، هذا كما قلنا حين تستقيم الأمور أما إذا ساءت الحال بأن أصيب المحصول ، أو انخفضت الأسعار ، فإن على الفلاح أن يسدد جميع الإيجار المتفق عليه طبقاً لنص المادة ٣٩٢ من القانون المدنى وإذن فهذا هو الخراب والدمار ، وحينئذ تتدخل الحكومة : فتصدر قانوناً يقضى بتخفيض الإيجار بنسبة ٢٥ ٪ أو ٤٠ ٪ حسب تاريخ العقد ، وهذا كما حدث فى السنوات الزراعية (١٩٢٩-١٩٣٠ ، ١٩٣٠ - ١٩٣١ ، ١٩٣١ - ١٩٣٢) .

لكن الحكومة لا تستطيع مثل هذا الإجراء فى جميع السنوات ، ونظراً لكثرة الطلب وتهافت الفلاح على إستئجار الأراضى تؤجر الأطيان بأسعار مرتفعة ونتيجة ذلك أن الفلاح دائماً يعانى الأزمات والمتاعب .

وقد دارت مناقشة مع أحد المستأجرين تكشف عن مدى بؤس الفلاح وفاقته سئل الفلاح السؤال الآتى :

ما دمت تعانى كل هذه الخسائر فلماذا تستمر على استئجار الأراضى وزراعتها ؟ وكانت جاموسة هذا الفلاح قد حجز عليها وبيعت سداداً لدينه . فأجاب : لأن الزراعة هى المهنة التى ورثتها عن آبائى وأجدادى ، ولا أجد عملا غيرها .

لكن لماذا تستأجر الأرض بهذا الثمن الباهظ ؟

ذلك لأن الملاك قد اتفقوا ، فيما بينهم ، على ألا يؤجروا الأرض إلا بهذا الثمن ولأن الفلاحين لا يستطيعون تخفيضه ثم أضاف الفلاح العبارة الآتية :

« ما داموا يأخذون منا كل شيء فسنضطر للسرقة » .

صغار الملاك من الفلاحين :

رأينا ، فيما تقدم ، أن أكثر من مليونى فلاح ، يملكون قطعاً صغيرة جداً من الأرض ، هى ، بالنسبة لأربعة أخماسهم ، من قيراطين إلى فدان ، وهى لا تكاد تسد رمق الفلاح هو وعائلته ، ومع ذلك فهى فى محيط الطبقة الفقيرة من الفلاحين تعتبر شيئاً ذا قيمة ، ويعتبر أصحابها ملاكا .

وأقصى ما يتمناه الفلاح ، أن يكون مالكا من هذا النوع ، وأن يتزوج ، وأن يكون له أولاد ، وجاموسة .

والفلاح صاحب القطعة الصغيرة يتحمل من الأعباء والنفقات ، مثل ما يتحمل المستأجر ، ولا بد له من التقاوى والسماد وأدوات الزراعة والمواشى (ولو بالاشتراك مع غيره كما هو الغالب الكثير) وليس عليه إيجار يقوم بسداده ، ولكنه يقوم بدفع الضريبة وهو مدين فى معظم الأحيان ، وذلك لأن الفلاح سيء التدبير لا يعرف الاقتصاد ،

وليس لديه احتياطى مدخر ، فهو مضطر للاقتراض لشراء البذور أو السماد ، وهو يستأجر الأراضى المجاورة لأرضه ليساعد أرضه الضئيلة التى لا تكفيه ، أو يشترى أرضا جديدة ، بدلا من سداد دينه القديم .

والبنوك لا تقرض على الملكيات الصغيرة فهو يضطر للاقتراض من المرابين والمستغلين الذين يقرضونه بفائدة ٣٠٪ و ٥٠٪ رغم أن قانون سنة ١٩١٢ حدد أقصى سعر الفائدة بـ ٩٪ .

وفوائد هذا الدين واجبة السداد كالدين نفسه ، فهو يعمل وينصب هو وعائلته الكثيرة العدد ، ويجتهد فى أن ينتج حقله أكثر ما يستطيع إنتاجه بأقل التكاليف الممكنة ـ مع ميزة أنه مالك صغير ـ وهذا يجعله فى أسوأ موقف فى الوقت الذى يحل فيه دفع ديونه ، ويضطره أن يسلم جميع ثمرة كفاحه وعرقه إلى الدائنين ، أو أن يبيع جزءاً صغيراً من أرضه كى يستطيع الوفاء ببعض التزاماته .

هناك قانون الخمسة الأفدنة ، الصادر فى ٣ ديسمبر سنة ١٩١٢ ، وهو يقضى بعدم جواز الحجز على خمسة أفدنة فأقل ، لكن هذا القانون ، بانتزاعه من البنوك ضمان قروضهم ، قد حرم هؤلاء الملاك الصغار من حق الاقتراض من البنوك ، وهو حق مشروع ، ومعتدل ، وأسلمهم إلى المرابين الذين يغتالونهم .

والفلاح فى حاجة إلى القروض وهو يسىء استخدام النقود التى يقترضها ويقترض مرة أخرى ليعالج الخروج من ورطته ، فيزيده ذلك لورطا ، والدين العقارى هو السرطان الذى يفتك بالفلاح المالك الصغير .

والحل المقترح لحالة الفلاح الصغير هذه هو أن تقوم الحكومة بسداد ما عليه للمرابين ، وتحل محل المرابين ثم تتقاضى دينها على أقساط مريحة .

ومع هذا فهو يملك تلك القطعة الصغيرة ولهذا فهو يملك ما تنتجه ، والقطن الذى ينتجه المستأجر ، ويراه يؤخذ من يده ولا يملك الاحتفاظ به هذا القطن ، بالنسبة للمالك الصغير ، الذى نتكلم عنه يبقى له ، ويستطيع بيعه والانتفاع بثمنه .

كتب لنا أحد المدرسين بمدارس الريف قال : فى قريتنا (نزلة على) كما فى غيرها

من القرى ، عمال زراعة ، ومستأجرون ، وملاك ، والأولون يعيشون فى أشد حالات الفقر ، وليس لديهم ما يشترونه أو يبيعونه . فى هذه الأزمة الطاحنة ومبلغ الخمسة القروش الذى يتقاضاه العامل فى اليوم ، لا يسد حاجته ، ولا يقوم بأوده وقد سافر كثير منهم إلى مدن القنال ليجدوا لهم عملا يعيشون منه هم وأولادهم لكن الغلاء فى هذه المدن الكثيرة السكان ، كان أصعب احتمالا ، فلم يتمكنوا من ادخار ما يلزم لعائلاتهم التى ظلت فى القرية ، وبعد شهور قليلة عادوا إلى القرية أشد فقراً مما كانوا .

ومستأجر الفدان أو الفدانين هو أيضا بائس ، مرتبط بالأرض ، هو وأولاده طول العام ، لا يذوق الخضروات ولا الفواكه ، وبعد الحصاد لا يملك سوى بضعة أكياس من الذرة لغذائه إذ أن ما عدا هذا من ناتج زراعته بيع وسدد منه إيجار الأرض للمالك .

وهذا وحده هو الذى استطاع مكافحة الغلاء ، لأن ما لديه من القمح والذرة ، وما عنده من الماشية كل هذا غلا سعره ، غير أن السماد قد نقص ، وصار من الصعب الحصول عليه .

والفدان الذى أنفق عليه صاحبه ٣٠ قرشا للبذر و١٢٠ قرشا ثمنا للسماد الكيماوى و ٧٠ قرشا للرى ولأشياء مختلفة يمكن أن يأتى بربح قدره ١٥ جنيه ، وحينما تكون حاجة الفلاح شديدة للنقود يسرع إلى بيع قطنه لأحد التجار المرابين الاستغلاليين فى القرية ، فينتهز هذا حاجة الفلاح للنقود وجهله بالأسعار فى سوق القطن ليشتريه منه بأقل الأثمان .

ولو أن الفلاح كان على خط أكبر من الذكاء لفضل حمل قطنه إلى الحلقة (أنشئت الحلقات فى الريف سنة ١٩١٢) فى البندر القريب منه ، وهناك فى الحلقة يراقب الوزن والسعر بواسطة موظفى الحكومة ، ولا يستطيع التجار التلاعب بالفلاح ، وحينما لا تكون الحاجة إلى النقود شديدة يستطيع المالك الصغير ، الاحتفاظ بقطنه ، مدة أخرى ، وعدم بيعه بسرعة وإيداعه إما بمخازن بعض

كبار الملاك ، أو بشونة أحد البنوك ، أو الحالج ، وأخذ مبلغ يسدد به ديونه العاجلة بضمان محصوله .

وأحيانا يبيع المالك الصغير قطنه مقدما ومعنى ذلك أن يتعهد المالك الصغير منذ البدء بالزراعة بتسليم كذا قنطارا ، من نوع كذا ، ويحدد الثمن وقت الاتفاق على البيع ، أو يحدد الثمن فقط بالنسبة لنصف الكمية ، ويترك النصف الآخر ، لتحديده حسب يوم القطع فى بورصة الاسكندرية ، وهذا اليوم يكون فى بحر المدة المحددة فى نفس الاتفاق .

وعلى الرغم من جميع ما اتخذ من وسائل واحتياطات لحماية الفلاح الصغير من الغبن والاستغلال ، فهو ما يزال يخدع ، بسبب جهله ، وحبه لذاته ، حتى أنه يخدع ويستغل لا فى بيع قطنه فقط بل فى بيع سائر محاصيله .

مثال ذلك يقدم بنك التسليف لصغار الفلاحين سلفا على القمح ، وهو يقدمها لصغار الفلاحين وحدهم ، حتى يستطيعوا الانتظار إلى أن تتحسن الأسعار ويتسنى لهم البيع بالسعر المناسب ، وهذا إجراء حسن .

لكن التجار الريفيين يستغلون هذه الميزة ، الممنوحة لصغار الفلاحين وحدهم ، فيحصلون من العمد على شهادات تثبت أنهم من صغار الزراع ، ويشترون القمح من الفلاحين بسعر ١٢٠ قرشا للاردب ويسارع الفلاحون إلى البيع ، تحت تأثير الحاجة إلى سداد الضرائب ، ولجهلهم بطرق التقدم لبنك التسليف ، وهذا فى أوان البدء فى جنى المحصول ، على اعتقاد أن هذا أحسن تصرف .

ولكن الأردب فى القرية يعادل ١٧٥ ك . ج بينما يشتريه بنك التسليف على أساس ١٥٠ ك . ج كما فى المدينة ، ويقرض عليه مبلغ ١٣٠ قرشاً للأردب ، وهكذا يودع هؤلاء التجار القمح الذى اشتروه من الفلاحين زاعمين أنه من زراعتهم فى شون بنك التسليف ويربحون هكذا ١٠ قروش فى الأردب زائداً ٢٥ ك هى فرق التسليم فى كل أردب .

وينتظرون وهم مطمئنون تحسن السعر لكى يبيعوا قمحهم بالسعر الذى يريدونه ويجنوا الربح الذى يحبون .

* * *

كما أن الحقول فى مصر لا تفصلها حواجز ولا أسوار ، بل تفصلها قنوات صغيرة ، وجسور رفيعة ، كذلك الفئات التى عددناها آنفاً من العاملين فى الزراعة . فهى ليست محددة بعضها من البعض ، وليس بينها فواصل وكل واحدة من هذه الفئات يمكن أن يتحول أفرادها إلى الأخرى ، ويمكن أن ينتسب هؤلاء الأفراد إلى فئتين أو ثلاث منها ، وليس فى ذلك شىء من الغرابة ، وبينها وجوه شبه كثيرة منها :

١ — الفقر : لأن الفلاح ينقصه الإدخار والاقتصاد والنظر البعيد ، ولأنه ضعيف . منفرد . جاهل . يستغله من هم أقوى وأغنى منه ، وينتزعون ثمرة عمله . فالبنك ، والمرابى ، والحكومة ، والعمدة ، والمالك ، كل هؤلاء يجنون ثمار كده ، ويصلون إلى الغنى عن طريقه ، أما هو فيظل فقيراً ، كالإبرة تكسو الناس ، وتظل هى عارية ، كما يقول أحد الأمثال الريفية .

٢ — التبعية : فالفلاح تابع لسواه ، لا يملك حريته فى العمل . فهو لا يستطيع أن يغرس ما يريد ، ولا أن يحدد الزمن الذى يريده فعمال اليومية منهم يعملون فى جماعات ، ومهمتهم محددة يؤدونها تحت مراقبة شديدة من رؤسائهم الذين يشرفون عليهم ، والمزارع الشريك ، وكذلك المستأجر نظام عمله يحدده له المالك ، وهو تابع فى مواعيد الزراعة ، وفى نوع مايزرع لأوامر وتعليمات وزارة الزراعة . ليست لديه حرية ما أياً كانت ، وليست لديه مقدرة على الخلق والابتكار ، وليس لديه اختيار من أى نوع ، ولا يملك توجيه نفسه ، واستخدام وقته .

٣ — الفلاح واثق من نتيجة عمله فهو يعرف أنه سيحقق على الأقل الحد الأدنى لما يريده ، وضامن على الأقل للخبز الذى يقوته ، ومهما كانت أحواله رديئة .

فهو لن يعدم القوت ، ولن يموت جوعاً ، وعلى أسوأ الفروض تبقى له الأرض وعمله فيها ، وحياته من زراعتها .

٤ — معاونة الأسرة والأبناء . يجب دائماً أن نعتبر عمل الأبناء والزوجة من الدعائم التى يعتمد عليها الفلاح كعمله هو نفسه ، ففى المحيط الريفى المصرى تساهم الزوجة ، والأولاد ، والجاموسة ، والحمار فى عمل الحقل ، وتعد من رأس مال الفلاح .

والفلاح — رب الأسرة — عدته فى الحياة عمله وعمل زوجته التى هى ساعده الأيمن فهى تقوم ببذر البذور ، وجنى المحاصيل ، وتربية الطيور فى المنزل وصنع الزبدة والجبنة وبيعهما .

والأولاد يشتغلون برعى الماشية وسوقها للحقل ، وللماء ، ويجمعون الوقود ، ويسهرون على الساقية ، ويبحثون عن السماد ، ويشتغلون فى جنى القطن مدة خمسة أو ستة أسابيع من العام يقضونها فى أعمال الجنى ومكافحة الدودة والعمل فى المحالج ، وتدر عليهم هذه الأعمال أجوراً يومية تكون جزءاً من إيراد عائلاتهم .

وجاموسة الفلاح يعتمد عليها الفلاح فى رى أرضه وحرثها وفى درس المحصول إلخ . . . وهى تنتج اللبن ، ويؤخذ من تحتها السماد المخصب للأرض المنمى للزرع .

أما الحمار فهو أداة نقل السماد والمحاصيل وعدة الركوب .

وهذه الخلية الزراعية يمكن أن تقوم بما يلزم لزراعة خمسة أفدنة دون احتياج إلى يد عاملة أجنبية .

واليد العاملة فى مصر تمثل ٣٦ ٪ من نفقات الإنتاج ، وفى انجلترا تمثل ٦٧ ٪ .

ومتوسط إيراد الفلاح من جميع الفئات التى أشرنا إليها ثلاثة جنيهات فى الشهر ، وهذا القدر هو حد الكفاف أو أقل منه ، وهذا الإيراد العائلى ، هو ناتج عمل الأسرة كلها ونستطيع بلا شك أن نصف الفلاح بالقناعة وبالتجرد من المطالب والحاجات إلى حد كبير .

وصحة الفلاح جيدة رغم كل شيء ، وهو يحصل على غذائه ، ويجد ما ينفقه فى أعياده ، وهو يعيش عيشة الاعتدال والاقتصاد فى ظروفه الحالية .

فى حديث بيننا وبين أحد هؤلاء الفلاحين أدلى الرجل إلينا بالمعلومات الآتية :

تتكون أسرتى من ستة أفراد . كل فرد منها يحتاج إلى كيلة من الذرة فى الشهر فيكون ما تحتاجه الأسرة هو ما يأتى :

كيلة من الذرة لكل فرد	٦ × ٢٥ = ١٥٠ قرش
كيلة من القمح لكل الأسرة	٥٠ «
أجرة الطحن	١٥ «
المجموع	٢١٥

وتحتاج الأسرة فضلا عن ذلك إلى وجبتين مشتملتين على عناصر التغذية الكافية لكل شهر ، وهما تتكونان من الأصناف الآتية مع بيان أثمانها :

رطلان من اللحم	٢ × ٨ = ١٦
سمن	٥
خضر	٥
بصل	٢
بترول	٢

٣٠ × ٢ = ٦٠

وهذا عدا الجبنة والأرز والفاكهة .

وذلك هو ما يلزم للغذاء الضرورى فى أدنى مراتبه ٢٥٠ قرش ومكسبى فى الشهر هو ٣٠٠ قرشاً .

انتهى حديث الفلاح .

وقد قمنا بتحقيق فى سنة ١٩٤٦ فى إحدى مدارسنا القروية بعنوان « صناعة الوالد » لمعرفة موارد آباء التلاميذ فوصلنا للنتائج الآتية :

بين الآباء

٢٧	عاملا زراعياً لدى أحد كبار الملاك بأجر يومى مقداره ٥ قروش	
١	مستأجر لفدان واحد	
٢	جمال	٩ قروش
١	سائق عربة المالك	٢٥٠ قرشاً فى الشهر
١	حمال لقصب السكر	
٢	تاجر أقمشة	١١ قرشاً إيراد يومى
١	بقال متجول	٩ قروش فى اليوم
١	كاتب عمومى	٢٠٠ قرش فى الشهر
١	جزار	٦ قروش فى اليوم
١	منجم	٥ قروش فى اليوم
١	حلاق متنقل	٧ قروش فى اليوم
١	بناء	٨ قروش فى اليوم حينما يجد عملا

نساء مترملات

٢	ابنها البكر يعمل أجيراً فى الزراعة
٣	تعيش من الصدقات
١	بائعة بيض
١	مربية كتاكيت
١	خبازة فى البيوت
١	خياطة
٥	تعيش من جاموستها التى تملكها مشاركة

وليس بين أهالى التلاميذ مالك عقارى واحد لكن بينهم من يملك معزة أو حماراً أو جاموسة أو نحو ذلك والفلاح يظل معلقاً دائما بأمل ضئيل فى أن تتحسن الأحوال قليلا لكى يستطيع الوصول إلى ما يسد الرمق ويمكنه من شراء أى شىء ولو قطعة من القماش . وحينما تتسع آماله ، يحلم بشراء جاموسة ، أو بضعة قراريط من الأرض هذا حينما يسرف فى الأمل ، وهذا الأمل البراق الذى يراه الفلاح قريباً منه يجعله يستأنف حياته كل سنة بدون كلل أو إعياء ، وبنفس النشاط والدأب . كما تفعل الأرض التى تعيش فوقها ، ومعها . . .

الفصل الخامس

بنية الفلاح وتكوين جسمه

لقد رأينا الفلاح ، وعرفنا كيف يعتمد على كل جسمه أثناء العمل ، ويحركه كما تتحرك جميع أجزاء الآلة أثناء تأدية عملها .

فلننظر الآن إلى هذا الجسم ، ولندرسه لكى نعرف إلى أى الأجناس البشرية ينتمى ، وأى نموذج هو من نماذج البشر .

ولنحلل أسلوب حياته ، وما يتعرض له من عوامل تؤثر فى صحته ، وتزيد أو تنقص من علله وأمراضه ، فسنجد أثر الماء والشمس والهواء والتربة فى جسمه وكيانه .

ومن الغريب أن هذه العوامل المؤثرة لم تفقده استقلاله ، وتجعله تابعاً لها تبعية تامة ، بل تركت له استقلالا واضحا ، فهو حر من هذه الناحية ، وإن كان مقيداً ، من ناحية أخرى ، هى ناحية « التقاليد » .

هذه التقاليد تخضعه لسلطانها ، فهو إذن مقيد ، وهذا ما يكسبه دائما صفة الثبات ، وهذا الثبات قوة يمتاز بها .

إلى أى الأجناس ينتمى الفلاح المعاصر ؟ ولأى فصائل الشعوب يمكن إرجاع أصله وإلحاق جنسه ؟

هذا ما لم يجب عنه أحد من الباحثين ، وعلماء الأجناس إجابة قاطعة .

ولقد تعرض لذلك باحثون وعلماء كثيرون ، ولكن أحداً ، كما قلنا ، لم يخرج عن حدود الافتراضات ، والظنون والتخيلات .

ولكيلا نصعد إلى ما وراء القرن الثامن عشر نجد فولنيه Volnay مثلا يقرر لنا أن المصريين يرجع أصلهم إلى الجنس الأسود . على حين يقول فيفان دينو Denon Ucwent أنهم من أصل قوقازى . أما بوانسينيه دى سيرى (poiasinet de siruy)

وبلين الصغير Pline Le Jeune فيعتقدان أن المصريين ينحدرون من السلتيين ، وإذا رجعنا إلى فنكلمان Winkelman وجدناه يقول أن المصريين القدماء أصلهم من الصينيين هاجروا إلى مصر منذ أزمان بعيدة ويرى موروودى جون Moreau de Gonner أن بولينز هى مهد الأجيال المصرية القديمة .

وفى نهاية القرن التاسع عشر . اهتم الباحثون والعلماء . بالبحث عن أصل المصريين القدماء . فيما جاور مصر من الأقطار الأفريقية والأسيوية فقرر «هارتمان» «Hartman» وبترى F.Pelrie أن المصريين القدماء من أفريقيا وقرر ماسبيرو أنهم من الحبشة .

وقد قام شانتر Chanlre من ناحية بتجارب وأبحاث طويلة أجراها على نماذج مصرية حديثة وقديمة بلغت عدة آلاف . وانتهى من بحوثه إلى أن المصريين قد يكونون نزحوا إلى مصر من بلاد أخرى ، وقد يكونون نشأوا فى مصر نفسها لكنهم على أى حال أفريقيون من أصل ليبى ، وأنه إذا كان قد تسرب إليهم بعض الأجناس الأسيوية فإن هؤلاء لم يكونوا من الكثرة بحيث يؤثرون على الأصل(١) ويرى شو أنفرت Shou infurth استناداً إلى دراسات نباتية ، أن جنوب الجزيرة العربية كان هو نقطة ارتحال المصريين القدماء وأميلينو دى روجيه Amélineau de Rougé يؤكد ويؤكد معه جى دى مورجان y. de morgan اعتماداً على بحوث مقارنة فى اللغات والفنون والأخلاق والخواص الجثمانية أن المصريين القدماء أتوا من بلاد الكلدان(٢) .

وقد سادت فى الوقت الحاضر نظرية تلوح أقرب إلى الحقيقة من سواها ، وهى تتلخص فى أنه فى عصور ما قبل التاريخ . لا بد أن تكون شعوب أسيوية (عربية أو بابليون) قد احتلت وادى النيل واختلطوا رغم سيادتهم بمن كانوا فيه وهم خليط

---

(١) J. de morgan Recherches sur l'origine des Egyptians

(٢) Ernest chantre recherches aneropologiques en Egfpte

من السكان الأصليين والأحباش ، وبتقادم الزمن أصبحوا لا فرق بينهم وبين أهل البلاد ، واندمجوا فى كتلتهم .

هذا الرأى الذى محا الخلافات السابقة ، وجاء على أنقاضها . له ميزة استعراض الآراء المختلفة ومقارنتها ، والمفاضلة بين ما تستند إليه من أسانيد ، وهو يسمح بدخول المصريين فى مفهوم شعوب البحر الأبيض المتوسط السامية التى تشغل شمال أفريقيا وجزءاً عظيما من آسيا الوسطى وشواطىء البحر الأبيض المتوسط وتشمل شعوباً سوداء متاخمة مثل أثيوبيا .

وإذا درسنا ملامح الصور التى نجدها على الآثار المكتشفة من عهود المصريين القدماء اقتنعنا بأن المصريين يرجعون إلى ثلاثة عناصر تكون منها شعب مصر على طول الحقب :

١ — الساميون : dolicocéphals وهم ذوو قامات متوسطة .

٢ — أبناء شواطىء البحر الأبيض المتوسط Brachycéphales وهم ذوو أنوف مستقيمة صغيرة .

٣ — ثم الليبيون Brechycéphals وأنوفهم معقوفة .

هذه الأجناس الثلاثة هى أصل المصريين جلوا إلى البلاد منذ أزمان بعيدة ووجدت بينهم حياة الزراعة والحقول والمناخ وجعلتهم يندمجون فى سكان البلاد الأصليين ويتكون من الجميع الجنس المصرى أى الفلاح وهو فى جوهره جنس موحد كوحدة وادى النيل .

ومهما يكن الأمر . وإذا كنا لا نعرف شيئاً يقينياً عن أصل المصريين القدماء ، ولا من أين أتوا . فنحن نعرف يقيناً أن سكان مصر الحاليين الفلاحين منهم على الأقل ، وهم الذين يعنينا أمرهم فى هذه الدراسة ينحدرون من المصريين القدماء من عهود الفراعنة ، ويتصل نسلهم بدون انقطاع مدة خمسين قرناً لم يختلطوا خلالها بالأجناس الأخرى تقريباً .

ومنذ انتهى عهد الفراعنة وخضعت مصر لحكم الفرس ثم اليونان والرومان ،

والعرب ، والترك ، والفرنسيين ، والإنجليز كان هؤلاء الغزاة يترفعون عن الاختلاط بالشعب المصرى ولا يمتزجون به مكتفين باستغلاله وسلب ثروته ، ولهذا ظل عنصر المصريين موحداً ونقياً ولم تصبح مصر مستعمرة بالمعنى الصحيح إذ لم يجد هؤلاء الغزاة لهم مكاناً فى الحياة المصرية لقلة عددهم ، ولا كتفائهم بالحكم والسيطرة دون الاندماج فى أهل البلاد ، أو الحلول محلهم .

على أن هذه العهود لم تخل من اندماج بعض الرحل من الطارئين والآتين من البلاد المجاورة من سود وبيض ، ثم جاء الفتح الإسلامى فى القرن السابع فلم يكن مجرد استعمار كغيره بل كان اختلاطاً واندماجاً ، إذ استقرت القبائل العربية فى مصر وساكنت أهلها ، وفرض العرب لغتهم وديانتهم كفاتحين وأدخلوا كثيراً من عادات قومهم خصوصاً ما يختص بالنساء والأخذ بالثأر وعادات الفروسية والنجدة وكرم الضيافة إلى غير ذلك ، ولكن كثرة عدد السكان الأصليين ، وعلى الأخص فى القرى ، وخصوبة النسل عند المصريين ، واستقرار نظم الحياة الزراعية ، وغنى التربة كل ذلك غلب على الحياة العامة ، وحفظ على العنصر المصرى كيانه ، وحينما استقر العرب فى الأرض السوداء تعودوا تقاليد الزراع . وهم يعيشون بكثرة فى الدلتا حيث كانت هجرتهم إليها أكثر من الوجه القبلى .

وقد اختطوا لهم قرى ودساكر على حافة الصحراء وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال كان قد حدث الاندماج بين العرب والمصريين وتوحد أسلوب الحياة وإن كان كثير من الأعراب قد ظلوا رحلا يشتغلون بنقل القطن وبقية المحاصيل فوق ظهور الجمال ويرعون الأغنام ، وظلت فيهم عادات القتل والسطو مما يلازم البداوة وحياة الصحراء .

وهم إلى الآن يختلفون بملامحهم الأكثر دقة ، وأمزجتهم الأقرب إلى العصبية .

وقد حدث الاختلاط على الحدود الجنوبية بين السود وبين الفلاحين، ولما كان الاختلاف بين النوعين ظاهراً كان الاختلاط كذلك أكثر وضوحاً لكن النموذج المصرى يتغلب على النموذج الآخر .

واندماج الأجناس المجاورة القريبة من الشعب المصرى واضح السبب ومنطق بالنسبة لشعب قوي فى عدده ومستقر فى أرضه كما قلنا .

ولو أن الغزاة والمهاجرين كانوا يبلغون الملايين ، وكانوا آتين من جرمانيا أو البلقان ، لأمكن أن يفرضوا شخصيتهم ومميزات جنسهم على شعب البلاد رغم تأثير الجو ، ونوع الحياة وكان من الممكن أن يغيروا خصائص الجنس لكن ازدحام مصر بسكانها ووقوع الصحراء الشرقية والغربية على جانبيها وعمق وبعد الحدود ، ووعورة المسالك بين الجهات الجنوبية ، كل ذلك حال دون اجتياح البلاد واكتساحها بموجات الهجرة وأبقى على وحدة شعبها .

وهذه العوامل الجغرافية ساعدت على حفظ العنصر المصرى ، والفلاحون ، وسكان الريف على الأخص يحتفظون بملامحهم وأشكالهم التى تميزهم عن العناصر المتعددة ، الآتية من مختلف بلاد الشرق الأدنى .

والأقباط يمثلون أكثر من غيرهم العنصر المصرى القديم على حقيقته . وهذا واضح فى المدن حيث يمثل الأقباط بيئات وطنية متميزة ، بينما المسلمون ، ومعظمهم من سلالات العرب الفاتحين ، والأتراك الغزاة ، وهم يتزوجون نساء من كل الأجناس والبلاد ، يختلفون عن الأقباط من حيث الاحتفاظ بالملامح والصفات العنصرية وخواص البيئة .

وفى الريف يحدث ما يخالف هذا ، فالسكان موحد والسحنة ليس بينهم تغاير يذكر ، والفلاحون الذين ظلوا على المسيحية ، والذين اعتنقوا الإسلام ويبلغ عددهم ٨٨٪ من المجموع هم من سلالة واحدة وإذا كان الأقباط منهم لأسباب دينية يمتنعون عن الزواج من غيرهم ، وبذلك يحافظون على نسلهم نقياً من العناصر الأجنبية ، فالمسلمون منهم أيضاً بنفورهم من البدو لا يتزوجون منهم إلا نادراً جداً . أما الأجانب الذين يحدث فى بعض الأحيان أن ينزلوا بقرى الريف فالزواج منهم أو تزويجهم يعتبر من الفضائح فى نظر أهل الريف ، وعلى هذا فالعنصر المصرى يحافظ دائماً على سلامته بين الأقباط والمسلمين على السواء .

وعلى هذا فالنموذج المصرى موحد حتى أننا لنستطيع تشخيصه وتحديد صفاته وخصائصه بكل دقة ، فالفلاح ذو بنية قوية دون بدانة وجمجمته ووجهه عريضان ، وجبهته ضيقة ، وعيناه سوداوان ، وشعره أسود ، ووجنتاه بارزتان إلى حد ما وأنفه كبير ، وشفتاه غليظتان ، ولكنهما غير متدليتين ، وفكه قوى ، وملامحه غليظة فى مجموعها لكنها لا تشعر بالفظاظة وهى فى الغالب سلبية غير معبرة .

ومفاصل جسمه شديدة القوة والتماسك ، وهنا فارق كبير بينه وبين البدو وهو كبير العنق والرسغين وظهره مقوس ، وقدماه ضخمتان مستويتان ، وكتفاه ليستا منخفضتين ولكنهما تنحنيان على الصدر ، وكشحاه نحيلان ضامران ، وطول قامته فى المتوسط متر وثمانية وستون سنتيمترا .

وعلى هذا النحو أيضاً ، النساء ، مع ما لابد منه من الاختلاف ، وهن على ما يظهر أكثر من الرجال احتفاظاً بنقاء العنصر[١] .

وما وصفناه هو ملامح العنصر ، والمثال المشترك بين أفراده ، على النحو الذى يكون فى جميع الكائنات الحية ، ولاشك أن هناك اختلافات فى الأفراد لكنها اختلافات لا تمحو اتحاد الجنس وعموم الشبه ، بل تقتصر على حيز ضيق ، ليس من شأنه أن يخل بهذه الوحدة التى أشرنا إليها .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر الملاحظات الآتية :

١ — أن حجم الجمجمة (٧٥ تقريبا) أقوى فى المجموع بمصر السفلى .

٢ — ميل خفيف إلى السحنة النوبية كلما ابتعدنا نحو بلاد النوبة ، لاحظ ذلك المقريزى وعبد اللطيف فى القرن الرابع عشر ، ويستطيع كل الرحالة الذين يسافرون إلى أسوان أن يلاحظوا ذلك .

٣ — إن سكان الصعيد ذوو لون يميل إلى السمرة بسبب حرارة الجو ، وأنهم أقوياء الأجسام مفتولو العضلات ، بسبب جفاف الهواء ، وأنهم أطول أجساما من

(١) الدكتور أيات باشا . ثبات الجنس فى النساء المصريات . نشرة الجمعية الجغرافية . القاهرة مجلد ٦ من صفحة ٤٦١ إلى ٤٧٠ .

واحتفظت الفلاحة بخصائص العنصر الأصيل

سكان الدلتا كتب عبد اللطيف البغدادى فى رحلته حين مر بمصر « من النادر أن تصادف هناك شخصاً يعلو وجهه لون مشرق ينبئ عن غزارة الدم وإشراق المحيا والأطفال هناك نحاف الأجسام ، تنقصهم نضارة الوجوه وقوة الأبدان واعتدال القوام ولا يظهر شيء من ذلك إلا فى سن العشرين حيث يبدأ الرجال يكتسبون الصحة وسلامة الأبدان وسكان الصعيد ذوو أجسام نحيفه وأمزجتهم خشنة قاسية وألوانهم على وجه العموم أكثر سمرة من أهل الدلتا .

الزى والملبس :

لا يعتنى الفلاح عادة بشعر الرأس ، وهو يقصره .

وإذا مات أحد أقاربه من الذكور يطلق شعر لحيته حتى تمضى أيام الحداد .

والفلاح يعتنى بإطالة شاربه ولا يحلقه اعتدادا برجولته ، وحينما يتقدم فى السن يطلق لحيته لأن ذلك ادعى إلى التوقير والمهابة ، ويحلقون شعر رأس الأطفال لأن ذلك من النظافة والمحافظة على الصحة ، ويترك عادة للطفل شعيرات قليلة فى مقدم الرأس وهى عادة أشبه بالتقليد الدينى .

والعناية بالشعر عند النساء هى جزء من العناية بالجمال والمحافظة على الصحة ، ولكنها فى القرى لا تتجاوز الحالة البدائية فيضفر النساء الشعر على شكل جدائل تطول بأشرطة سوداء أو ملونة توصل بها وتكون تحت غطاء الرأس (المنديل) أو الملاءة التى تتدثر بها .

وللفلاحين ، من الجنسين ، منذ القدم ، عناية بإزالة شعر الجسم ، فى المواضع الداخلية ، وذلك بالموسى أو بعجينة تصنع من السكر والليمون والشبه (الحلاوة) .

ومن عاداتهم القديمة ، التى تماثل ما لدى غيرهم من الشعوب ، عادة الوشم ، للزينة والصحة وهى عادة عرفها الفلاح منذ الأزمان البعيدة ومارسها ، واتخذها للزينة والصحة ، واتباعا للعادات والتقاليد المتوارثة .

وهم يثقبون شحمتى الأذنين لكى يهيئون مكانا للقرط فى الأذن ويعدون الثقبين منذ الطفولة المبكرة ، وأحيانا يثقبون جانب الأنف ، كما يثقبون الأذن ويوضع

فى الثقب خيط يحفظه إلى أن يحين استبداله بالقرط ، وفى بعض الجهات ، يثقبون أذن الغلام اليمنى .

وهم يقومون بعملية الختان للغلام ، بين السادسة والعاشرة من عمره ، وهى عادة شبه دينية يجرى عليها المسلمون والأقباط ويقوم بها الحجامون فى القرى ، وتؤدى باحتفال يحف به السرور والفرح وتتبادل فيه التهانى .

والفتاة أيضاً ، لابد لها من هذه العملية وإلا كان عدم ختانها ، مما يعيبها عند الزواج

والفلاح لا يسم وجهه بقطوع وندوب فى الجلد ، كما يفعل النوبى أو السودانى ، بل هو يلون جلده بالوشم كما قلنا ، وقد عثر الباحثون على مستندات من عهد الامبراطورية الوسطى ، تحتوى على رسوم وصور ، توضح عمليات الوشم على أجسام بشرية فى تلك العصور .

والوشم يكاد يكون عاما لدى النساء والرجال منذ المراهقة وهو عادة شعبية شديدة الذيوع فى الريف .

ويكون فى وسط الجبهة أو الذقن أو على الصدغ أو على ظاهر اليد ، على صورة نقط أو نقوش أو رسوم ، وأحيانا يكون على الصدر أو الظهر أو البطن ويكون فى هذه الحالة رسوما أو صورا ساذجة غير متقنه ، لسيف أو شجرة ، أو بكتابة الاسم والأقباط يرسمون صورة الصليب فوق الرسغ فى مؤخرة الكف ، أو يكتبون تاريخ السنة التى حجوا فيها إلى أوراشليم وزاروا بيت المقدس .

ويتولى عملية الوشم محترفون يكونون عادة من الأعراب البدو ، ويقوم الرجال منهم بوشم الرجال ، والنساء بوشم النساء ، ويمارس يرى هؤلاء عملهم ببساطة تامة ، فى زاوية من زوايا الطريق ، أثناء قيام السوق والعملية مؤلمة ، تسبب إلتهابا فى الموضع الذى تكون فيه حيث يشاك الجلد بمجموعة من الإبر المدبية الحادة ثم يطلى بالسواد حيث تحرق بعض المواد ، ثم تمزج بالزيت فيتولد من ذلك لون أخضر غير قابل للمحو .

والخضاب بالحناء ، للشعر أو اليد عادة مصرية أصيلة للتزين ترجع إلى عهد الأسرة

العشرين على الأرجح ، حيث يسحق ورق الحناء ويجعل عجينة توضع وهى دافئة فوق الموضع المراد صبغه وتلوينه ، وتثبت على الجلد ، من ٣ ساعات إلى ٢٤ ساعة فتصبغ الجلد أو الشعر بلون أحمر برتقالى أو أحمر قاتم ، ويستمر هذا اللون نحو خمسة عشر يوما .

والنساء المترملات يصبغن شعرهن بها للتجميل والظهور بمظهر الشابات للفوز بزواج جديد ، أما الشابات فالحناء ، بالنسبة لهن ، تكون للجمال والنظافة ، وتصبغ رءوس الأطفال بالحناء عقب حلاقتها بالموسى .

والنساء يتخضبن مرتين أو ثلاثا فى العام ، فى الأعياد والمناسبات الهامة .

والكحل عادة مصرية ، وهو ذو لون أسود ويوضع فى العين للتزين والعلاج ، وهو نوع من الزينـــة رخيص الثمن ، يصنع من بعض الأعشاب وتستعمله المرأة وأطفالها .

والختان ، والكحل ، والوشم وجميع هذه العادات من وسائل التجميل والعلاج ، هى أيضاً لأغراض أخرى تتعلق بالاعتقادات مثل منع الحسد ، وجلب البركة وما إلى ذلك ، ولا تخلو هذه العادات القديمة من معان وتفسيرات ورموز .

والفلاحون كثيرو الانغماس فى الماء ، هم وأطفالهم ، ويحدث هذا بحكم العادة فهم فى غنى والحالة هذه عن الاستحمام ، والوضوء كل يوم للصلوات يحقق لهم كذلك قدراً طيباً من النظافة والمحافظة على الصحة .

والنساء حين يذهبن إلى النهر أو الترعة لملء جرارهن أو لغسل الملابس يجدن الفرصة المواتية للاغتسال بالماء ويتكرر ذلك فى معظم الأيام .

الملابس والأزياء :

ملابس الفلاح تمتاز ببساطتها ، وإذا كان هناك تشابه ملحوظ بين الطبقات الشعبية فى بلاد العالم ، أو على الأقل فى البلاد الأفريقية والشرقية فى كثير من العادات

وفى الملابس وأشكالها فلمصر من حيث الزى والملبس مميز خاص فالملابس فيها خالية من التعقيد تجمعها وحدة شاملة فى جميع الأقاليم .

وكما وحدت الأرض بين الفلاحين ومنحتهم طابعا خاصا ، وحدت كذلك بينهم فى الزى والملبس .

وملابس الفلاح تخلو من التأنق الذى تفرضه المودات ، وليس بها من ضروب التوشية والزركشه مثل ما هو موجود فى ملابس الريفيين فى سوريا وفلسطين .

ولزيادة البيان والتفصيل نقول : غطاء الرأس عبارة عن « اللبدة » وهى مصنوعة من الصوف ، تغطى الرأس ولكنها لا تقى كثيراً من الشمس، وهى المميز للفلاح حتى أن من العبارات المألوفة التعبير عنه بكلمة « أبو لبدة » وهو لقب يطلق على أبطال القصص الشعبية ، وغطاء الرأس للأطفال هو الطاقية المصنوعة من القطن .

والفلاح الأكثر سعة أو الأكثر تأنقا يحيط غطاء الرأس بقماش أبيض يلفه حول الطاقية أو اللبدة وقد يستعمله أيضاً كوفية حول العنق والعمامة ترجع فى منشئها إلى التقاليد العربية الإسلامية الوافدة على البلاد أيام الفتح الإسلامى .

والجلابية هى لباس الفلاح وتكون زرقاء اللون مائلة أما إلى البياض أو قاتمة وهى من القطن ، على شكل قميص بدون رقبة وبدون حزام ، مقفل إلى أسفل الصدر وطويل يبلغ القدمين له كمان طويلان وهو فضفاض متسع الجوانب مشقوق من فوق الصدر يسمح برؤية الصديرى بأزراره وخطوطه .

وتحتاج الجلابية التى يرتديها الشاب إلى خمسة أمتار من النسيج المتوسط الذى يساوى المترمنه نحو تسعة قروش ويتقاضى الخياط نحوعشرة قروش أجرا لخياطتها .

والجلابية ثوب فضفاض مرن يسمح للفلاج أن يستخدمه أثناء عمله بحرية وأن يثنى أطرافه عند الحاجة حينما يضطره حفر الأرض أو استعمال الفأس أو جنى المحصول إلى شتى الحركات والأوضاع الجسمية فتكون جلابيته سهلة الاستعمال قابلة للثنى والبسط وغير ذلك .

وحين العمل يقلب الفلاح جلبابه ويثنيه حتى الركبتين ويرفعه إلى حزامه على صورة قميص قصير أو ينزعه ويطويه ويضعه فى مأمن إلى أن يستعمله كوسادة فى ساعة القيلولة وإذ ذاك يبدو فى لباس أبيض وسروال واسع يغطى ساقيه مربوط فوق الخاصرة بحزام رفيع وصدرة فوق القميص الأبيض الذى تخفق أطرافه عند منتصف الفخذين فوق السروال ولكن حينما يشتد الحر ينتزع الفلاح صدرته بل قميصه ويشتغل عارى النصف الأعلا من جسمه .

والفلاح يمشى حافى القدمين أثناء عمله وعند فراغه ينتعل ما يسمى (بلغة) وهى حذاء شعبي معروف ، يكسى القدم من أمام ويترك الكعب عاريا والفلاح يلبسها فى الأعياد والمناسبات وبعد الوضوء .

وجلابيب الأطفال تلبس بدون ملابس داخلية تحتها وتكون قصيرة ومن ألوان زاهية خلافا لجلابيب الرجال .

وللنساء ملابسهن وهى من أقمشة زاهية الألوان ، وهن يضعن على رءوسهن عصائب مزركشة محلاة بالخرز والترتر .

وملابس البنات ، بطبيعة الحال ، ليست فى بساطة ملابس الرجال والأطفال ففيها تعقيد يسير لابد منه وهى عند الخصر وعند الثديين تضيق وتتسع لكى تبدى معالم الأنوثة ، ومفاتن الجسم النسوى ، وهى من أقمشة قطنية ذات ألوان زاهية وشعورهن مغطاة بمناديل من الموسلين الجميل مما تعرضه الأسواق وهن يعقدن أطرافها على رءوسهن ويتشحن أحيانا بأقمشة جميلة ذات ألوان زاهية .

والنساء الفلاحات حينما يخرجن إلى الطريق يغطين رءوسهن ، وحينما يقابلن الرجال يحجبن أسفل وجوههن بالبراقع ذات اللون الأسود ويضفين الملاية على أجسامهن إلى القدمين تسترا واحتشاما وإخفاء لمفاتن أجسامهن عن أعين الرجال مما يجعلهن أكثر حرية وأجسامهن أكثر مرونة وأقدر على السير والحركة .

هذه الملاية من نسيج صوفى مصنوع بأيدى الفلاحين أنفسهم وفى مديريتى جرجا وقنا يسمونها (المقندلة) أما فى الفيوم فتصنع من أقمشة ناعمة ذات لمعان .

والجلابية ذات اللون الأسود والأكمام الطويلة الواسعة ، تسمى فى إقليم القليوبية الشمار ، وهناك فى إقليم المنوفية ، زى يدعونه « الشنتيان » مكون من جزء علوى ومن سروال واسع .

وهذه الملابس الريفية أخذت الآن تتحول عن لونها الأسود منذ أخذت الأسواق تقدم ألوانا وضروبا كثيرة من المصنوعات ذات الألون المتعددة وثوب الفلاحة مقفل عند العنق والمعصمين وهو لا يتميز بحزام كما يلاحظ عند البدويات فى سوريا وهو ينتهى بذيل يلامس الأرض تقريبا .

وتتألف الملابس الداخلية من قميص طويل ، أحمر أو وردى أو من عدة ألوان وسروال واسع وكل ذلك مصنوع على طريقة بدائية وتصنعها الفلاحة نفسها

وجلابية الفلاح تصنع على قدر جسمه بواسطة خياط القرية وملابسه الأخرى وهى القمصان والصدارى والسراويل واللبد يجدها فى محلات الباعة بالبنادر حيث يقدمها تجار الجملة بكميات كبيرة لهؤلاء الباعة ، ويجرى عرضها بكثرة على الأخص قرب حلول الأعياد الكبرى ويقدم النساجون فى بعض القرى وكذلك الشيوخ الذين يغزلون الصوف إنتاجا ضئيلا .

والنساء القرويات يتحلين ببعض الحلى المعدنية والأحجار ذات الألوان الزاهية فيضعن فى العنق العقود من ألوان صفراء وزرقاء ثم يضعن فى أيديهن أساور من الزجاج أو الفضة أو الذهب حسبما تكون عليه حالتهن من السعة أو الضيق ، من الفقر أو الغنى ، ويضعن حول الساقين الخلخال وهو حلقة سميكة من النحاس أو الفضة وهو يحل محل خاتم الزواج ويجب على المرأة أن تحمله دائما وهى تستطيع أن تبيع كل شىء ما عدا الخلخال فهو الذى لا يجوز بيعه ، وفى حالات الحداد فى الأسرة تترك لبس حليها مثل العقد والقرط والأساور أما الخلخال فلا تنزعه إلا عند موت سيدها أى زوجها والريفية لا تلبس حذاء ولا جوربا ولكنها تنتعل أحيانا نعلين كنعلى الرجال .

والخلخال له شأنه الخاص فى زينة الفلاحة ، وفى أغانى الفلاحين وعادات الزواج والعرس إلخ .

هذه البساطة والمرونة فى أشكال الملابس والزينة وفى عادات التحلى والتزين تكشف عن شعب عرف التمدن منذ زمن بعيد كما تكشف أيضاً عن ملاءمة للمناخ والعادات.

ولما كانت ملابس الفلاح فضفاضة مرنة كانت مساعدة على تحقيق ما يلزم للجسم من التنفس وللأعضاء من الحرية ، وكانت كذلك منسجمة مع المنظر الطبيعى العام ومع البيئة.

غير أنها لما كانت قاتمة فهى تمتص الحرارة وكانت ملابس النساء على الأخص وغطاء الرأس بالنسبة للرجال تمتص حرارة الشمس بدلا من أن تطردها كان هذا مما يقلل من ملاءمتها.

ومما يلاحظ على هذه الملابس كذلك أنها مفرطة فى الطول والعرض فهى تثقل المشية وتجمع الغبار ومع هذا ففوائدها تفوق أضرارها وهى إلى الاحتشام وملاءمة البيئة والعادات أقرب.

الصحة والمرض :

إن الحياة التى يحياها الفلاح فى الحقل تجعله يواجه الطبيعة بجسمه ، ويتغلب على العوامل الجوية من برد وحر ، ويصارع عناصر الطبيعة من طين وماء وهواء ، لا يكاد ملبسه الخفيف الفضفاض يحميه من لوافحها وزعازعها.

وقد أكسبته هذه الحياة مناعة وقوة أصبح بهما لا يبالى الأمراض ولا يكاد يشعر بالآلام ، فلا تؤثر فيه الجراح القاسية ، ولا يحتاج فى مسكنه وفى نومه للترف ، فهو يفترش الأرض ، ويلتحف السماء فى كثير من الأحيان ، ويتحمل الصداع والزكام بصبر وجلد ، ولا تزعجه الروائح الكريهة ، ويتمتع بكامل شهيته للطعام والشراب ، وحواسه قوية متنبهة ، وسمعه مرهف دقيق غير أن قوة التحمل ، وعدم المبالاة ، كثيراً ما ينشأ عنها تعرض للأمراض العفنة المؤذية التى تشوه جسمه ، وتفنى قواه ، فالأمراض المتوطنة تهاجمه ، والسل ، والجذام ، والبلهارسيا ، والإنكلستوما ، والملاريا ، من أمراض البيئة الريفية ، وفى بعض المديريات يزيد عدد ضحايا هذه

الأمراض عن ٨٠ ٪ من الأهلين وهى كلها تنشأ عن عدم النظافة ، وعن استمرار ملامسة الطين والأوحال أثناء العمل الزراعى .

وينتشر الرمد بصورة مزعجة بين القرويين ، ورغم أن خضرة الحقول تريح الأعين ، فإن لذع الشمس ، وحدة ضوئها ، والغبار السميك الذى يهب من ناحية الصحارى القريبة ، والأرواث والأوحال والذباب والحشرات ، كل ذلك يتضافر على إلهاب الأعين منذ الطفولة ، وقل أن يجتاز الإنسان قرية من القرى دون أن يلحظ كثرة المصابين بالعمى والعور ، والإحصاء الرسمى يثبت أن عدد هؤلاء يبلغ ٦ ٪ من مجموع السكان ، وفى سنة ١٩٢٧ أثبت الإحصاء وجود ٢٦٦,٥٥٠ شخصاً فقد كل منهم إحدى عينيه وأصبح مصاباً بنصف العمى و١١٠,٠٠٠ مصاب بالعمى الكامل ، وفى عام ١٩٣٧ بلغ عدد المصابين بالبصر فى مديريتى المنيا وأسيوط ٥٠,٠٠٠ ما بين أعمى وأعور .

والواقع أن العدد الحقيقى لمرضى العيون أكثر من ذلك ، فالمصابون بأنواع الرمد الكثيرة مثل الجلوكوما والتراكوما ، والتهاب العيون لا يحصى عددهم .

واستعمال الماء غير النقى ، وحفاء الأقدام فوق الأرض المبللة بالماء ، أو فى القنوات الموحلة كل ذلك يدخل عن طريق الجلد ميكروب البلهارسيا[1] إلى أجسام ٩٠ ٪ من الفلاحين لأن هذا الميكروب يتوالد وينمو ويقوى فى الرطوبة والمياه والمستنقعات بالقرى ، وقد كثرت هذه البرك بسبب تعميم نظام الرى الدائم وكثرة المياه فى القنوات والبرك .

والبول الدموى إذا أهمل علاجه صار مزعجاً وأدى إلى ضعف الفلاح وسلب قواه ، وسبب حصى المثانة والقروح والبواسير فيها ، وقد يصعد التقيح إلى الكلى والكبد بل وإلى العين .

---

(١) اكتشف الدكتور تيدرور بلهارس Thodor Bfhars المتوفى فى عام ١٨٦٢ وهو ألمانى الجنس كان أستاذاً بكلية الطب بالقاهرة . ميكروب البلهارسيا الذى كان مجهولا حتى ذلك الوقت وكان الاكتشاف سنة ١٨٥٨ وهذا الميكروب يسبب الإصابه بهذا المرض المتوطن ومنذ ذلك الحين استمر العمل على مقاومة هذا المرض مدة عشرين عاماً بواسطة الدكتور بارلوف . (Pr. C. H. Barfow) الطبيب الأمريكى الذى كان يحقن نفسه بالعلاج المضاد ليجرى أنواع العلاج .

وعدوى البلهارسيا تنتقل بواسطة البول وعدوى الإنكلستوما بواسطة البراز ، وكلاهما من الأمراض المتوطنة الشديدة الفتك بصحة الفلاحين وقواهم المنتجة ، والإنكلستوما أقل من البلهارسيا ولكنها أشد خطراً ، لأنها تأكل الكرات الحمراء من الدم[١] .

ولما كان الفلاحون لا يتبرزون داخل المراحيض بل يقضون حاجتهم خارج المساكن فى أى مكان من الحقل فإنهم بذلك يسببون انتقال العدوى بهذه الأمراض إذا كانوا مصابين بها وبذلك يساعدون على انتشارها إذ أن الفلاحين يمشون حفاة الأقدام ، ويتمددون على الأرض دون أى احتياط ، وهذه الديدان تنتقل عدة أمتار فى الظلام ، وتكمن فى الرطوبة ومنها تسلك طريقها تحت الجلد إلى الأمعاء .

وقد أصبح الفلاحون بسبب انتشار هذه الأمراض بينهم ممتقعى الوجوه ، ضعاف الأجسام . لاتقوى بنيتهم المتينة على مقاومتها والنجاة من أضرارها .

والملاريا تنتشر بسبب مزارع الأرز وبسبب البرك التى يتوالد فى مياهها البعوض الناقل للميكروب وقد بلغت الإصابة بها ٦٥ ٪ وفى بعض القرى ٩٠ ٪ .

وقد قلنا إن الفلاح لا يكترث بالأمراض ولا يحتاط من عدواها ، وهو بذلك يساعد على انتشارها وفتكها وتوطنها ، ولا يبالى بالتعليمات والاحتياطات التى تتخذها السلطات بل يعمل على عكسها .

وقد أنشأت وزارة الصحة مستشفيات فى عواصم المديريات لمعالجة هذه الأمراض المتوطنة ، ولكن هذه المستشفيات لا تفيد إلا أهالى القرى القريبة منها ، أما القرى البعيدة فإن صعوبة المواصلات ، وفقر الأهالى يحولان بينهم وبين الانتفاع بها على الوجه المطلوب .

---

(١) مصلحة الصحة العمومية : تقريرات وملاحظات : (الإنكلستوما والبلهارسيا فى مصر) المطبعة الأميرية القاهرة سنة ١٩٢٤ .

وهو كتاب يحتوى على مراجع كاملة عن هذين المرضين وبيان أضرارهما فى قرى متعددة فى مصر والمجهود الذي تحاوله الحكومة لتقليلها .

والذهاب إلى هذه المستشفيات يشق على القروى ، وإذا ذهب إليها حال بينه وبينها : كثرة المرضى وقلة الأطباء والأدوية فى الغالب .

الأطباء والمستشفيات :

أعلن وزير الشئون الاجتماعية فى سنة ١٩٤٨ أن عدد الأطباء فى مدينة القاهرة بلغ ألفى طبيب ، وأن عدد الأطباء فى بقية الجهات بلغ مثل هذا العدد أى نحو ألفين وقال أن نسبة الأسرة فى مستشفيات المدن ٨٠٪ والباقى فى الريف .

وفى إعلان لوزير الصحة العامة قال :

يبلغ عدد الأطباء فى مصر نحو ٤٥٠٠ منهم نحو ١٤٠٠ تابعون لوزارة الصحة ، ولكى يكون لكل ٥٠٠٠ شخص من السكان طبيب ، يجب أن يكون لدينا أيضاً ١٢٠٠ زيادة على العدد الحالى ولدينا ٢١٠٠٠ سرير فى المستشفيات أى أن لكل ٨٠٠ مريض سريرا ، وهذا فى حين أن فى انجلترا لكل عشرة من السكان فقط سرير » .

ونضيف إلى هذه البيانات الرسمية أن من بين الـ ١٤٠٠ طبيب ، وهم أطباء وزارة الصحة نحو ٦٠٠ طبيب فقط هم المخصصون لعلاج ٤٠٠٠ قرية فى مصر ،

وهؤلاء الأطباء يتقاضون مرتبات ضئيلة ، ويقيمون فى مساكن غير مريحة ،

ويعرفون أن دورهم فى النقل إلى قرية أخرى لن يتأخر طويلا ولذلك يوجهون اهتمامهم إلى كسب ما يستطيعون من النقود خارج عملهم ، أى من عيادات خارجية ، ويغادرون القرية فى أقرب فرصة ممكنه .

ومن هؤلاء من يستغل المرضى من الفلاحين أشنع استغلال ، وقد جمعتنا المصادفة يوما بفريق من هؤلاء الأطباء ، فى أحد المستشفيات بإحدى المديريات ، وكان أحد هؤلاء الاطباء قد علم بصدور أمر بنقله إلى إحدى القرى البعيدة ، فكان ... إلى زميل له تعاسة حظه بهذا النقل ، وأجاب الزميل ، معزياً زميله : لا تأسف ... هذا النقل يا صديق ، فالقرية التى أنت ذاهب إليها ، مكان لا بأس به ، لقد ... بها سنتين فكانت حياتى بها خيراً مما يعيش الإنسان فى المدن وأضاف ينصح زميله :

هؤلاء الفلاحون إلى الكلاب !! لو علمت ، من السهل أن تحصل منهم على إيراد شهرى لا يقل عن مائة جنيه .

وفى بعض القرى ، يتقاضى الطبيب على التصريح بدفن الميت ، مبلغ خمسة جنيهات ويضطر أهل الموتى إلى دفع هذا المبلغ الباهظ تجنبا للمضايقات والإشكالات .

وفى بعض الجهات ، حينما تضاف إلى الطبيب ، أعمال القرية المجاورة ، لغياب الطبيب المعين بها أو نحو ذلك من الأسباب ، يمتنع هذا الطبيب من الانتقال ، حتى يتوافر عدد من المرضى يكون كافيا ومبررا فى نظره لمشقة الانتقال . . ويصمم ، مع ذلك على قبض مايطلبه مقدما .

واقد عرفنا واحدا من هؤلاء كان يستخدم عربة المستشفى المتنقل للذهاب بها إلى سينما البندر القريب . وطبيبا آخر ، كان يعهد بالمستشفى إلى الممرض (التمارجى) ويقيم هو بالمدينة ولايذهب إلى مقر عمله إلا مرتين فى الأسبوع وقد حدث أن أصيب عامل فقير بناحية النخيلة ، أثناء إدارته لمضخة رى كان معينا لإدارتها ، وكان جرحه خطيراً ، فحمله أقاربه إلى أقرب مكان وذهبوا لاستدعاء الطبيب ، فرفض الطبيب الذهاب معهم ، إلا بعد قبض مبلغ خمسة جنيهات ، ولم يستطع أهل المريض أن يجمعوا أكثر من نصف هـــذا المبلغ ، لشدة فقرهم ، فرفض الطبيب الذهاب ومات المريض .

هؤلاء الأطباء سواء أكانوا متزوجين أم غير متزوجين لاتكاد مرتباتهم القليلة تفى بجزء من مطالبهم (مرتباتهم فى حدود ٢٠ جنيها فى الشهر) وهم لايتحملون هذه الحياة الانعزالية ، فى تلك الوحدات والمستشفيات فى قلب الريف إلا إذا كان لديهم من الوعى مايجعلهم يؤمنون برسالتهم ، ويقدسون واجبهم الإنسانى .

وكمثل للأخطاء القائمة والمشاهدة :

حدث أن بلدة « ملامس » نقل طبيبها وكلف بالقيام بعمله ، طبيب بلدة الغرايزة التى تبعد عنها بثلاثة كيلو مترات ولم توضع تحت تصرفه سيارة يستخدمها فى انتقاله فلم يذهب هذا الطبيب إلى « ملامس » وظل هذا المركز الطبى الهام مقفلا ومعطلا . من المسئول عن ذلك ؟ وهذا بالرغم من أن ميزانية الموظفين ضخمة .

وقد اعتمد مبلغ ٦٩٧٣٢٨ ج . م . لمكافحة البلهارسيا والإنكلستوما فكيف وزع هذا المبلغ ؟؟ ،

خصص منه مبلغ ١٤٥٢٠٠ ج لمساكن الأطباء ، ومبلغ ٤٩٣٦٨ لمرتبات الأطباء ومبلغ ٢١٨٧٠ للأغذية ومبلغ ٧٢٦٠٠ للسيارات . ومبلغ ٢١٧٨٠ للبنزين ولم يبق سوى النصف للأدوية والعلاج ! !

الجهل والفقر يحولان بين الفلاح وبين الانتفاع بالخدمات والاحتياطات الطبية . وإذا كان الفلاح لا يذهب إلى الطبيب إلا حين يشتد به المرض ، ويدخل فى مرحلة الخطر ، فذلك لأنه من شدة فقره يخشى أن يفقد أجر يومه عن عمله ، ويتكبد مصاريف السفر إلى المستشفى البعيد عن مسكنه ، فى نفس الوقت ، وإلى جانب هذا كله ، ثمن العلاج والدواء ثم هو حين يصل إلى المستشفى يجد أمامه عدداً كبيراً من المرضى ، ولا سبيل له إلى العودة لمسكنه فى المساء ، إلا إذا تخطى دوره أى إلا إذا دفع رشوة للموظف ، ثم هو إذا وصل بعد هذا كله إلى الدكتور لم يحظ من هذا الدكتور ، بأكثر من دقيقتين أو ثلاث لفحصه ، ومعرفة المرض ، ونقول معرفة المرض ، لأنه حين قيد إسمه لم يكتب أمام إسمه شىء عن نوع المرض ، ولا عن الحالة ، والدكتور يريد الانتهاء بأقصى سرعة لكى يذهب إلى عيادته الخاصة ، التى تدر عليه ربحاً طيباً والتى يرسل إليها كثيراً من المرضى .

لقد حاول هذا الطبيب أول تعيينه أن يسير بأمانة ، وأن يؤدى عمله بالذمة ، طبقاً لليمين التى أقسمها واجتهد ما أمكنه أن يوفق بين ماتقضى به واجبات المهنة ، وبين ماتضطره إليه الضرورات التى تعترضه ، غير أنه مالبث أن صنع مايصنعه أمثاله الذين يلقون نظرة سريعة على المريض ، ويسمعون منه كلمات قليلة يكتبون له كشف الدواء فى كلمات موجزة ، وقلما يبذلون عناية تذكر ، فى فحص المريض ، إلا إذا كان المريض موصى عليه ، أو كانت حالته خطيرة تستدعى شدة الاهتمام .

وقد لاحظ الدكتور محمد خليل عبد الخالق أستاذ علم الطفيليات بكلية الطب ، الذى صار أخيراً وكيلا لوزارة الصحة العمومية ، إخفاق المستشفيات التى أنشئت

بكثرة فى بضع السنوات الأخيرة ، وقال أن ذلك راجع إلى قلة عدد الأطباء ، مما أدى إلى سوء العلاج ، وعدم النجاح فيه ، إلا فى حالات قليلة ، كان النجاح فيها راجعاً إلى انتهاز الطبيب للحالات النادرة التى تصلح بسبب ندرتها ، أو خطورتها ، لمضاعفة العناية بها ، إذ أن النجاح فيها يكسب الشهرة ، وذيوع الإسم ، ويضاعف من إقبال المرضى على عيادته الخاصة .

وقد يلاحظ أن هذه السرعة ، وقلة العناية ، أقل ضررا فى مستشفيات طب العيون لأن أمراض العيون غير معقدة وسهلة التشخيص .

ومما يحدث فى كثير من الأحيان ، ويؤدى إلى نتائج سيئة ، أن يتناول مريض دواء معدا لمريض آخر ، على اعتقاد أنه مريض بنفس الحالة ، أو أن يرسل المريض قريباً له لكى يصفُ للدكتور مرضه ، ويحصل منه على كشف الدواء ، ويحدث ذلك حينما يكون المريض فى حالة شديدة ، تمنعه من الذهاب للمستشفى ، أو حينما يكون المريض فقيراً لا يستطيع دفع أجر انتقال الطبيب إلى مسكنه ،

ومع هذا فقد بذلت الحكومة جهدا طيبا فى العناية بعلاج الريفيين ، فأنشأت فى المديريات وفى المراكز مستشفيات للعلاج ، وهذه ينتفع بها سكان الجهات القريبة منها ، وأنشأت وحدات علاجية كثيرة . والريف مقسم الآن إلى ٨٥٠ منطقة ، كل منطقة بها ١٥٠٠٠ نسمة وبه أكثر من مائتى وحدة صحية من هذا النوع ، وهى تقوم وسط الحقول بيضاء اللون ، حسنة البناء ، وسط أربعة أو خمسة من القرى . وهذه الوحدات لكل منها طبيب وتشتمل كل منها على مستشفى صغير ، وعيادة مجانية ، وصيدلية ، ومغسل للثياب للفلاحين ، ومياه صالحة للشرب ، ومسكن للطبيب ، ومنزل للمرضين . وهذه المجموعة تبلغ تكاليفها ١٨٠٠٠ ج تقريباً .

ومما يدعو إلى الأسف ، أن كثيراً من هذه المجموعات الحديثة لم تفتح حتى الآن وأبوابها مغلقة ، وذلك لعدم توافر الأطباء والمستخدمين اللازمين لإدارتها .

وقد أعلنت وزارة الصحة عن الأطباء اللازمين للعمل بها فلم يتقدم لإجابة طلبها سوى ٨٠ أجابوا الطلب بشروط اشترطوها .

ولنستعرض واحدة من هذه الوحدات التى افتتحت ، وباشرت عملها بالفعل :

يدير هذه الوحدة طبيب شاب مبتدىء مرتبه الشهرى ستة عشر جنيها ، وهو يقوم بالعمل فى الوقت نفسه فى الوحدة القريبة منها لأنها خالية من الطبيب .

يبدأ اليوم برعاية النساء والأطفال ولديه ٢٥٠ حالة أعدت لها سجلات وبيانات منذ الحمل حتى الشهر الرابع والعشرين بعد الولادة ، والدكتور يقول لنا : أن الأمهات فى هذه المنطقة مصابات بالأمراض الخبيثة بوجه عام .

وأمامه بعد ذلك ، العيادة الطبية ، حيث يستعرض فيها حوالى ستين مريضاً .

ومن واجبات الدكتور بعد ذلك ، أن يراجع قيد المواليد والوفيات فى القرى التابعة للقسم الذى يشرف عليه ، وهذا القسم يبلغ عدد سكانه ٢٥٠٠٠ نفس .

وأجهزة الغسيل والنظافة ، من مغاسل وحمامات غير مستعملة ، بل هى معطلة ومهملة ، إذ الفلاح لا يعرف كيف يستعملها ، ولم يتعود عليها ، لا لغسل ملابسه ، ولا لاستحمامه .

ولإعطاء صورة كاملة ، نقول أن هذه المجموعة تشتمل على ٢٢ من الموظفين والعمال وهم : الطبيب ، المولدة ، خمسة ممرضات للنساء ، ثمانية ممرضين للرجال ، ٢ مساعدين للمعمل ، ميكانيكى لمضخة المياه ، سواق ، جناينى ، حارس ، طاه (طباخ) كاتب حسابات ، ومجموع مرتبات هؤلاء فى الشهر هو مبلغ ١٥٠ جنيها .

ورغم ما وصفناه من إنشاء المستشفيات والوحدات العلاجية ، لا يزال الفقراء من سكان القرى ، والكفور المنعزلة يذهبون إلى حلاق القرية للعلاج ، إذ يجدونه قريباً منهم والوصول إليه سهل ، لا يكلفهم من الجهد والنفقات ما يكلفهم الإنتقال إلى المستشفيات والوحدات وذلك على الرغم من فداحة ما ينشأ عن جهل هؤلاء الحلاقين ، إذ يؤدى علاجهم إلى الوفاة أحياناً .

لكن هذا الحلاق يمارس العلاج فى الريف ، كما يمارس المرابى إقراض المزارع واستنزاف ثروته ، هذا يقوم مقام الأطباء ، وذلك يقوم مقام البنوك والمصارف . .

وحدث ما شئت ، عن ضحايا هذه الحالة المؤلمة ، وما ينشأ عنها من ضياع الأرواح والأموال .

والفلاح لا ينفر من الوسائل الطبية ، ولا يتقاعس عن العلاج ، بدليل أنه يسارع إلى الوحدات الطبية المتنقلة ، حينما تصل إلى قريته ويقبل عليها وينفذ تعليماتها .

أقامت وزارة الصحة بمدينة طهطا مستشفى متنقلا أعلنت عنه فى القرى المجاورة، وافتتح إفتتاحا رسمياً ، وزود بطبيب وكيماوى وستة من الممرضين ، وكان يفد عليه كل يوم ثمانون من المرضى ، بينهم نحو ٢٥ مصاباً بالإنكلستوما وثلاثة بالبلهارسيا .

غير أن مجهودات وزارة الصحة على ضخامتها غير كافية ، وهى لا تلقى المساعدة الواجبة من جانب القادرين عليها من الأهالى ، أضف إلى ذلك ، أثر العادات المنتشرة بين الفلاحين وقلة العناية بالنظافة بينهم ، ولهذا ظلت الأمراض منتشرة .

ولو أن لدى الفلاحين من الوعى الصحى ومن الحرص على تعليمات وزارة الصحة قدراً مناسباً لهان الأمر إلى حد ما ، ولكن مستوى معيشتهم وجهلهم يجعل المسألة معقدة وهذا فى الحقيقة هو جوهر المشكلة .

غذاء الفلاح ومشربه :

من أهم المشاكل فى الريف مشكلة « المياه الصالحة للشرب » وهى بالطبيعة غير مياه الرى ، والكلام فى هذه غير الكلام عن تلك ، وكلاهما من عناصر التغذية الحيوية.

ومشكلة المياه الصالحة للشرب ، كما قلنا من أهم المشاكل فى الريف ، ومصر بلد حار وعمل الفلاح فى الحقل وما يسببه من كثرة العرق يجعله أكثر من غيره إحتياجاً إلى إطفاء العطش وإلى شرب الماء . والفلاح يشرب من الماء الجوفى النقى ، إذا كان مالك العزبة التى يقيم فيها ، قد أقام بها طلمبة ماء إرتوازى ودق ماسورة مياه لاستخراج الماء الجوفى ، أو من ماء النيل الجارى وإن كان مخلوطاً بالطمى حينما يكون النهر ماراً بقريته ، لكنه يضطر إلى الشرب من ماء القنوات الآخذة من النهر، وهو ماء آسن راكد فى معظم الحالات . وهذه الترع والقنوات تغتسل فيها الحيوانات وتتبول فى مياهها كما يغتسل وتتبول فيها الإدميون، وتستعمل لتنظيف وغسل الخضار

لا يخلو بيت الفلاح من الجرة والزير

والملابس ، وتطرح فيها الجيف ، وتذهب النسوة إليها لملء جرارهن من مائها ونقله إلى الزير وخزنه بالمنزل بكمية تكفى لاستعمال اليوم . وهذا الزير يسع نحو ثلاثين لتراً هى مقدار ما يستهلكه المنزل إلى اليوم التالى فإن بقيت منه بقية ، أضيفت إليها الكمية الجديدة ، وهكذا دون أن ينظف قاع الزير من الرواسب المتعفنة .

وهذا الماء يستقر فى الزير طول الليل فيترسب الطمى فى قاعه إلى الغد ويبرد الماء بواسطة الهواء المتسرب من المسام .

أما ما يترشح من قطرات الماء من مسام الزير ويكون كافياً لملء القلة للشرب ، فالفلاحة تتركه يضيع هباء فى فناء الدار على شكل بركة ويشربه الدجاج .

وأخيراً بعد إنشاء وزارة الشئون الاجتماعية،أقامت الحكومة كثيراً من محطات الشرب ، وما زالت جادة فى إنشاء الكثير منها ، وقد صار ما أنشىء من هذه المحطات حتى الآن يغذى حوالى ثلاثة ملايين من الفلاحين .

وقد اهتم الإنسان منذ القدم بشرب أنواع من المشروبات غير الماء طلباً للذة والتذوق ، ولم يشذ الفلاح بطبيعة الحال عن ذلك .

إنه لا يشرب النبيذ لأن الدين يحرمه ولأن موارده المالية لا تتحمله ، وجو البلاد الحار يمنعه من شربه . ولهذا فقد اتخذ لنفسه مشروبات أخرى منها القهوة يصنعها من البن اليمنى الذى جلبه إلى مصر فى نهاية القرن الخامس عشر ، صوفية اليمن . والفلاح يستهلكها بكميات كبيرة وإن كانت أقل مما يستهلك منها فى المدن . وهو حين يذهب إلى السوق ، يتناول القهوة مع رفاقه أثناء الحديث والاجتماع فى السوق ولعب النرد مع الرفاق .

ومنذ حرب سنة ١٩١٤ كثر شرب الشاى واستعماله ، وحل محل القهوة ، وقد دخلت عادة استعماله إلى مصر منتقلة إليها من طرابلس ، ثم لم تعد قاصرة على الرجال بل صار الشاى مشروبا ضروريا ، يستعمل الآن فى كل البيوت ويشربه الكبار والصغار . والرجال والنساء على السواء . واشتد سلطان هذه العادة ، فأصبح الفلاح لايستغنى عن شرب الشاى كما لايستغنى عن الخبز فهو ينفق فى شراء الشاى مثل إنفاقه

وجعلنا من الماء كل شئ حى

فى شراء الخبز ، وإذا لم يجد مايشترى به الشاى ، ارتمى على الأرض . وفقد قواه ، وقابليته للعمل . والفلاح يبيع ماشيته ، وهى عدة عمله ، وأداة كفاحه لكسب رزقه لكى يحصل على ثمن الشاى الذى يشربه . أخبرنى الأب خزام ، أسقف طيبة . قال :

حدث مرة أن دخلت إحدى القرى ، ولما لاحظت أنها خالية من المواشى ، سألت عن سبب ذلك ، فقيل لى أن السبب هو أنها بيعت للحصول على ثمن الشاى . . وهم يغلون الشاى حتى يسود لونه ويعطى عصارة مركزة ، قوية الأثر ، تحدث بمرور الزمن ، اضطرابا فى المعدة ، وتضعف الأعصاب ، وتذهب القوى . وقد أصبح هذا الشاى الأسود من المخدرات التى أدمنها الفلاح وأصبح لايستغنى عنها .

والفلاح لايبالى بشىء من الأضرار المار ذكرها مادام يرى فى شرب الشاى متعة وراحة لأعصابه مهما نشأ عنه من ضرر فى صحته .

وقد صارت الواردات من الشاى أضعاف ما كانت عليه منذ بضع سنين إذ استورد من الهند وسيلان فى سنة ١٩٣٨ ، ٧٨٨٣ طناً من الشاى قيمتها ٨٣١٢٣٤ جنيهاً ، وقد زادت الحكومة فى رسم الدخول أكثر من ثلاثة أضعافه حيث رفعته من قرش ونصف إلى سبعة قروش ، ثم إلى ثمانية ونصف عن كل كيلو ، لكى تجعل الحصول عليه صعبا ، وتحد من استهلاكه ، ولكن ذلك لم يكن من نتيجته إلا أن أسرع بالفلاح نحو الخراب وبصحته نحو التدهور ، لأنه أصبح عادة لايمكن الإقلاع عنها ، والفلاح يتحمل الجوع له ولأسرته فى سبيل إدمانه عليه .

وأصبح التجار يبيعون شاياً مزيفاً يصنعونه من نشارة الخشب ، وقشر الفول وأوراق الملوخية ، ومن الشاى الذى استعمل فى الفنادق والقهاوى والبواخر يمزجون كل ذلك ويلونه ويدقونه ثم يبيعونه للفلاح المسكين ، شايا مزيفا ، حينما يمتنع عليهم الحصول عليه بواسطة التهريب .

ويبدو لنا أن انتشار الرى كان له أثر فى انتشار هذه العادة الفتاكة ، لأن انتشار الرى الذى ضاعف ثروة مصر ترتب عليه ، فى الواقع ، ازدياد الرطوبة وكثرة المياه ،

وهذا أدى إلى ظهور مرض الإنكلستوما والبلهارسيا ، وهذان المرضان أضعفا الفلاح وقللا من قدرته على العمل وجعلاه يلجأ إلى هذا المنبه لعله يجد بواسطته شيئا من القوة والصبر . ومما يدل على هذا أن الرجال أكثر استهلاكا للشاى من النساء بسبب حياتهم فى الطين والمياه .

وكيف لانشير هنا إلى « الكوكاكولا » وأمثالها من المياه الغازية وقد انتشرت منذ سنين حتى وصلت إلى القرى المصرية الثانية فى أقصى الصعيد .

وهذه المشروبات تعتبر مكملة للقهوة والشاى بيد أنها غالية الثمن تكلف الفلاح ما لا يطيقه .

والتبغ هو أيضاً إحدى آفات الفلاح التى تستنزف صحته وثروته ، وقد كان يزرع فى مصر إلى أن صدر الأمر بمنع زراعته فى سنة ١٨٩٠ ويستورد الآن من اليونان وتركيا واليابان . وقد كان السبب فى منع زراعته أولا محاربة انتشار الحشيش ، ثم إرضاء تركيا ، ولكن رســـوم دخوله أصبحت من أهم موارد الدولة إذ تبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٧ جنيها فى السنة . والسيجارة المصرية الشهيرة تصنع من تبغ مستورد من تركيا واليونان واليابان .

* * *

والفلاح يأكل فى اليوم ثلاث مرات ، الأولى عند شروق الشمس . قبل الذهاب إلى العمل . وهذه هى وجبة الفطور .

وعند الظهر فى الحقل (الغداء) .

وفى البيت عند الغروب (العشاء) .

وهو يأكل جاثيا ، جالسا على الأرض ويتناول الأكل بأصابعه .

والفلاح يتناول غداءه فى الهواء الطلق مع جمع كبير من أمثاله . يجلس كل منهم وأمامه آنية الخزف فيها طعامه المتواضع أعدته زوجته وحملته إليه وقلة الماء للشرب تدور عليهم الواحد بعد الآخر .

والوجبة الأساسية هي وجبة العشاء وهي التي تشتمل على الطعام المطبوخ الساخن يقدم للأسرة مجتمعة في الدار حيث يهيأ الطعام ويطبخ بالسمن وبالنسبة للأقباط بالزيت ، ويكون الطبخ على موقد بريموس أو في فرن الدار .

والوقود عند الفلاح يكون من حطب القطن أو من قصب الذرة أو الجلة وهي روث البهائم بعد تجفيفه .

ولما كان الفلاحون لايعنون بتربية الماشية ، كانت اللحوم غالية الثمن إلى حد ما ولذلك كان أكلهم اللحم قليلا ، وهم يأكلونه مرة في الأسبوع على الأكثر ، وقد لا يأكله الكثيرون منهم ألا في الأعياد أوحين يذبح حيوان أصيب بكسر أونحوه ، والفقراء منهم ينتظرون أن يذبح أحد الأثرياء ثورا أو جاموسة يكون قد نذر ذبحها أو يكون قد صنع وليمة في عرس أو مأتم الخ .

وأهل الشواطىء من الفلاحين يصطادون الأسماك ، ويهيئون منها أطعمتهم ، ويكثر أكلهم للخضار المطبوخ . مثل الملوخية والبامية (الباقلاء) وغير المطبوخ مثل البصل والخيار والطماطم الخ والفول والعدس والأرز كلها أطعمة شعبية جادت بها الطبيعة على أهل الريف .

ولا تتاح لهم الحلوى والفاكهة إلا في قليل من الأحيان . وفاكهتهم هي البلح والبطيخ والقصب والذرة المشوية .

ويصنع الفلاح خبزه من دقيق الذرة في الغالب ، ومن القمح في أحيان قليلة .

وطريقة طحن الحبوب ، وصنع الدقيق وإنضاج الخبز وسواه من المأكولات هي الطريقة البدائية أو ما يقرب منها مع تحسين قليل أو كثير حسب قربهم أو بعدهم من العمران .

هناك اختلاف يسير في الأطعمة بين كل مديرية وأخرى وبين الفصول المختلفة من صيف وشتاء وربيع وخريف لكن الأطعمة الأساسية لا تتغير والمش وهو يصنع من اللبن الحامض ويضاف إليه الملح وهو يؤكل كطعام أساسي مع كسرة الخبز في مصر كلها من أقصاها إلى أدناها .

وأدم الفلاح هو الملح الدمياطى ، والعسل الأسود المصنوع من طبخ عصير القصب والفلاح قلما يستعمل السكر أو الملح بكميات قليلة فى طعامه العادى ولكن فى الأعراس والأفراح والموالد تباع حلوى وفطائر من ذلك النوع الخشن الصنع يقبل عليها الفلاحون وأطفالهم بشراهة وبشغف شديد .

وأساس غذاء الفلاح هو الخبز المصنوع من دقيق الذرة (البتاو) الذى يحتوى من الطاقة الحرارية على نسبة ٨٠٪ من مجموع ما تقدمه أغذيته وعلى نصف البروتين الذى يحتوى عليه غذاؤه والشاب يأكل منه فى اليوم نحو كيلو ونصف ، وقد تبين لبعض الباحثين أن هذا « الخبز الكامل » يحتوى من الماغنيزيا على ستة أمثال مايحتوى عليه الخبز الذى يباع فى حوانيتنا .

ولا تدق حبوب الذرة فى الهاون كما يدق الدخن فى أفريقيا السوداء ، ولكنها تطحن على الطريقة المتبعة فى جميع بلاد الشرق الأدنى بين حجرين فى رحى بدائية مثل الرحا التى توجد فى المغرب وهى تتكون من أسطوانتين عريضتين قطرهما ٥٠ س م تقريباً وسمكهما نحو خمسة سنتيمترات إحداهما تثبت على الأرض بينما تدور الثانية على محور فى وسطها ثقب يوضع منه الحب المراد طحنه وفيها يد خشبية مثبته رأسياً على حافتها لكى تدار بواسطتها وهذه العملية ، كجميع عمليات الخبز تقوم بها النساء ، وقد أخذت هذه الرحا فى الاختفاء منذ كثر انتشار المطاحن البخارية فى أنحاء الريف .

ويعجن الدقيق المضاف إليه قليل من الحلبة والدخن والقمح أو الفول ، ويوضع الرغيف مدحوا فوق قطعة من الخشب على صورة قرص مستدير رقيق قطره ٣٠س م تقريباً وله مقبض لإمساكه وتقذفه الخبازة فى فوهة الفرن حيث يستقر فوق الصاجة المحماة وعند نضجه يلتقط بعصا حديدية معقوفة من طرفها أعدت لهذا الغرض ويوضع الرغيف بعد ذلك مع بقية الأرغفة حتى تتكون الكمية المراد خبزها ، وتكون الأرغفة المنضجة فى فرن المنزل سمراء اللون مكونة من طبقتين رقيقتين ذات طعم شهى وهى بدون لباب ، وليست فى القرى مخابز عامة ولكن كل أسرة تعد خبزها مرة أو مرتين كل أسبوع . وفى مصر العليا يكون الخبز أصغر من خبز

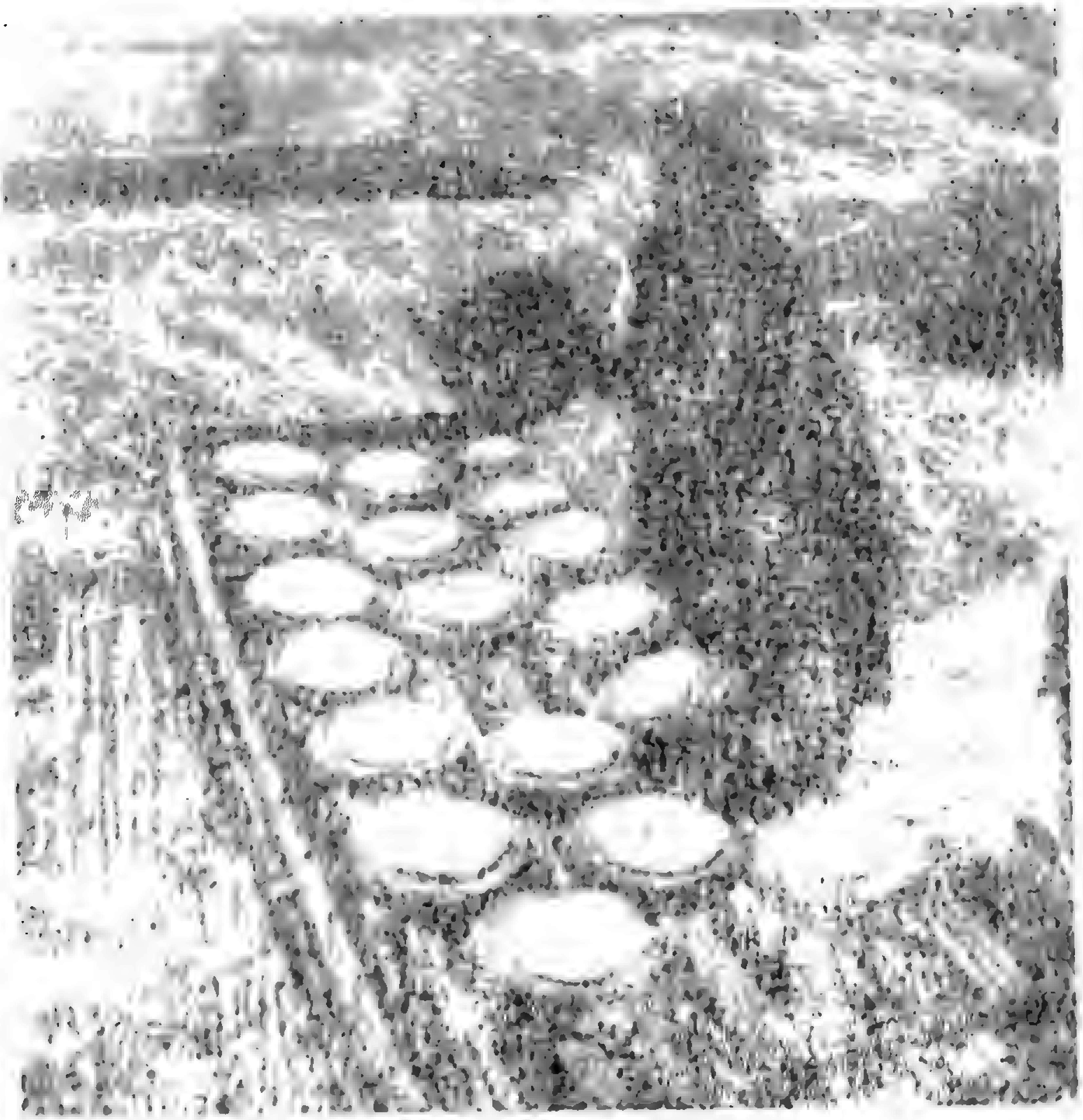

الفلاحة تعجن خبزها

الوجه البحرى (١٢ سم تقريباً) وأكثر سمكا ، ويسمى (بتاو) وهى تسمية فرعونية قديمة مأخوذة عن الكلمة الهيروغليفية (بتاو) ومعناها الخبز . حدثنى أحد العمال من أهالى أرمنت فقال إنه يأكل اثنى عشر رغيفاً من ذلك النوع .

أن الخبز المصنوع من دقيق الذرة التى زرعها الفلاح فى حقله ، والخضر التى استنبتها فى مزرعته أو التى اشترتها زوجته من السوق وهى أقل جودة ، فضلا عن الجبنة التى يكون قد صنعها مما توافر أو بقى له من لبن جاموسته . هذه الحاصلات والمنتجات الأكثر اقتصاداً فى الجهة التى يقيم بها هى غذاؤه وقوته العادى .

وعلى هذا يكون غذاؤه كما ترى ، ينقصه التنوع ، والكثرة والغزارة فهل هو من أجل هذا يعانى نقص التغذية ، وقلة العناصر المغذية الضرورية له ؟

الجواب على هذا بالإيجاب وإن كان بعض علماء التغذية يرى عكس هذا فمسيو شيروف ـ بيرون Sehrump of Pierzon ، يرى فى هذه المنتجات بل فى الماء الذى يشربه الفلاح الرقم العادى للمعدنيات ويرى مثل هذا الرأى أيضاً الأستاذ إيلى ناصف ويبدو أن عمل الفلاح ، وصحته ، ومقاومته البدنية يؤكد هذا الرأى ، على حين أن نقص الكمية التى يجب توافرها من الحبوب واللحوم يثبت أن هناك نقصاً فى التغذية ، وإن كانت الذبائح فى الأرياف كثيرة لا تدخل فى الإحصاءات والفلاح لا يأكل غير الحبوب ، ومع هذا فالفلاح سىء التغذية لأنه مريض .

وهذا إلى جانب ما يبدو من آثار الأمراض المتوطنة مثل الملاريا ، والحمى الراجعة ، والكوليرا ؛ وما تركته هذه الأمراض فى بنية الفلاح وصحته وما يشاهد من نقص فى المادة الأزوتية ، والدهنية ، والطاقة الحرارية فى غذاء الفلاح وما يدل عليه ارتفاع عدد المرفوضين لعدم الصلاحية من بين المتقدمين للخدمة العسكرية .

كل هذا معناه أن الفلاح يعانى سوء التغذية وضعف البنية .

على أننا نعتقد أنه إذا عنى بصحة الفلاح وعولج من الأمراض المتوطنة وآثارها كان سوء التغذية محتملا ولم يكن ليؤثر على صحته إلى هذا القدر الذى نراه .

وهناك ملاحظة هامة ، نوردها هنا ، فلها دلالتها ، وهى أن تحقيقا أجراه نحو عشرين من كبار رجال الأعمال الذين يستخدمون آلاف العمال فى حفر المشروعات والترع ، وهذا التحقيق يظهر منه أنه من ثلاثين عاما كان العامل من هؤلاء العمال ، يستطيع بسهولة نقل ستة أمتار مكعبة من التراب فى اليوم ، بينما هو الآن لا ينقل أكثر من أربعة أمتار .

وعلى هذا فالأرض السوداء التى يقيم بها الفلاح شبيهه بلسان « أيزوب » الذى هو أحسن وأسوأ جزء منه كما يقال فى الأساطير ، إذ أن هذه الأرض التى أشرنا إليها تعطى الصحة والمرض . وكمية المعادن فى التربة التى يتغذى منها النبات الذى يتغذى منه الفلاح ، كافية لتغذية النبات ، وإمداده بالمادة الغذائية الجيدة التى تمنح القوة والصحة ، غير أن هذه التربة الرطبة تحتوى على جراثيم وميكروبات الأمراض الطفيلية التى تنتقل إلى جسم الفلاح الذى يعيش عليها ، وينغمس فى مياه الرى فى مجاريها .

وهكذا ، بينما هذه الأرض تهبه القوة ، تعطيه المرض ، فيكون ثمة تعادل غريب ، فى هذا الكيان البشرى ينشأ عن هذين الأثرين المتضادين يخلق من هذا العنصر شيئاً قوياً قادرا على المقاومة وهذا أمر شديد الوضوح يبدو رغم كل شىء ولهذا قلنا ، ونقول إنه رغم نقص العناية بالصحة ، ورغم كثرة الأمراض والوفيات وبالاختصار رغم هذا البؤس المادى الذى وصفنا جميع آثاره ومظاهره ورغم ما سنراه من ذلك فى مسكن الفلاح ، رغم هذا كله نقول أن ما نشاهده ليس أسوأ ولا أقسى جوانب بؤس الفلاح .

الفصل السادس

القرية والمجتمع الريفى

حينما نتكلم عن الفلاح يجب أن نتكلم عنه مجتمعاً ، وأن نذكره بصيغة الجمع ، لأنه فى الواقع يعيش مندمجاً فى مجتمعه ، ولا يعيش منفرداً ، فهو فى الحقل يعمل مع زملائه إذا كان أجيراً ، ومع معاونيه إذا كان مالكا صغيراً ، ومع أولاده وزوجته إذا كان يزرع أرض غيره بالمشاركة ، أو بالإيجار .

وفى هذا العالم الصغير المقفل ، المكتظ الذى يتمثل فى القرية يعمل الفلاح مع الجمهور تحت ضوء الشمس ، وفى رحابة الحقل ، ولا يعمل منعزلا فى بيته ، والنساء الفلاحات حينما يذهبن إلى الماء لملء جرارهن يذهبن جماعات ، والأطفال يلعبون معاً فى جماعات كبيرة أو صغيرة ، وحياة الفلاح اليومية تمثل الاشتراكية ، واللون الغالب عليها هو اللون الاجتماعى التعاونى ، لا اللون الانفرادى .

ومحيط القرية ، لا محيط الأسرة هو الذى يكون شخصية الفلاحين ، ويخلق فيهم الصفات والسمات الاشتراكية والوطنية .

ولكى نفهم المجتمع الريفى ، وطبيعته يجب أن ندرس « القرية » .

تبدو القرى المصرية للرائى وسط الحقول ، أو فى سفوح التلال والصخور عند مشارف الصحراء بمجموعة من البيوت الصغيرة المبنية من الطين واللبن على هيئة مكدسة مشوشة تعلوها أكداس من الحطب ، وبجانبها فى بعض الأحيان مجموعات من الأشجار يستظل بها بعض المارة ، ويتخلل هذه الأكداس أحياناً مبنى أو مبنيان ، قد كسيا باللون الأبيض ، وتميزا بلون الجير الذى طليا به هذا المبنى أو المبنيان هما فى الغالب مسكن رجل ثرى من أهل القرية ، أو برج حمام أقيم بها على بعد قليل من مجموعة المساكن والأكواخ .

ويبدو النخيل ، وأشجار السنط والجميز واللبخ فى مجموعات تقوم عند جوانب

المنــــازل الريفيـــة فى أحضـــان النخيـــل

القرية أو فى وسطها ، وتشرف عليها فيكون مرآها الطبيعى تحت شمس مصر الساطعة جميلا أخاذاً يحدث مرآه روعة وبهجة للنفس .

وقد سجل مسيو «برين» فى إحدى لوحاته المصورة فى كتابه «الجغرافية البشرية» لوناً من ألوان هذا الجمال الطبيعى ، لاننقلها هنا لأننا معنيون قبل كل شىء ، لا بهذا الجمال الذى طالما استوقف أنظار الشعراء والفنانين ، بل بما وراء ذلك من صور الحياة الإنسانية .

قبل أن يستقر النهر فى مجراه الحالى ، فى آماد بعيدة من التاريخ بنيت القرى ، ولما أخذ النهر مجراه الثابت لم تكن القرى كلها على شاطئيه ، بل كان بعضها قريباً من الشاطىء ، والبعض الآخر غير قريب ، وامتدت على طول الوادى وعلى حافة الصحراء على ربوة من الربوات (كوم) أو مرتفع واقع على مكان مدينة قديمة ، أو فوق بقايا سد أو جسر تحول عنه مجرى النهر (وهذا فى مصر العليا) وفى أنحاء مصر نحو ١٢٠ مائة وعشرون قرية أسماؤها مسبوقة بكلمة (كوم) وهذه القرى تتميز بالازدحام إذ هى تبنى على الأرض المرتفعة التى لا يصل إليها ماء الفيضان السنوى عند ارتفاعه .

وتقع القرى فى مواقع مختلفة ، فبعضها يبنى قريباً من مجرى النهر أو على شاطئه ، وبعضها بنى على مرتفعات متاخمة لجبال الصحراء وهذا الاختلاف فى المواقع لا يمكن تعليله من الناحية الجغرافية ، وربما وعى تاريخ مصر القديم جداً ، ما يفسر لنا سبب هذا التفاوت ولكن من الذى يمكنه أن يعى تاريخ أربعة آلاف قرية منتشرة طولا وعرضاً فى جميع أنحاء وادى النيل ؟

غير أن تعليل ما عليه هذه القرى من الزحام ، وكثرة السكان ، أمر ممكن . فالفلاح يحرص على الأرض الأكثر خصباً والأفضل رياً ، ولذلك يضيق من المساحة المعدة لبناء المساكن حتى لا تمتد إلى الأرض المزروعة زراعة جيدة .

* * *

وقد رأينا كيف كانت الأرض وفلاحوها ملكاً للحكومة ، ولكبار الإقطاعيين

حتى القرن التاسع عشر ، فلم تكن الأوضاع القائمة إذ ذاك تجعل الفلاح الذى لم يكن يملك شيئاً من الأرض يبتنى مسكناً خارج القرية ليعيش فيه ، وكان الأمن مضطرباً ، والبلاد تعيش تحت سطوة اللصوص وقطاع الطرق ، فكانت القرية هى المأمن الوحيد له ولماشيته وعتاده .

ومما ساعد أيضاً على نمو القرية وامتلائها بالسكان ، أنها فى نظر الحكومة هى الوحدة المسئولة ، وهى التى يقيم فيها من يمثل السلطة ، فيما يتعلق بالضرائب والتحقيقات ، والقرعة العسكرية ، ومسح الأراضى ، ولهذا كانت هى المكان الطبيعى المأمون لإقامة الفلاح فهى فى حماية الحراس الرسميين المعينين من الحكومة .

ولهذه الأسباب منعت الحكومة بناء البيوت بعيداً عنها ، ولا يزال هذا المنع قائماً حتى اليوم .

يضاف إلى هذه الأسباب التى قوتها التقاليد والعادات ازدياد نمو عدد السكان ، وغلاء أثمان الأراضى ، وضيق الأمكنة . وقد حددت المساحة فى سنة ١٩٠٧ كل قرية ورقعتها .

وتتألف القرى من بضع مئات أو بضعة آلاف من السكان ، وبين هذه القرى ما يبلغ عدد سكانها ١٥٠٠٠ نفس .

والقرية المصرية تعيش كأنها أسرة كبيرة ، وجميع القرى متشابهة ، كل منها مماثلة للأخرى .

ويمكن ملاحظة بعض الاختلاف بين الوجهين القبلى والبحرى كما تمكن ملاحظة الاختلاف بين فلاح جهة ، وفلاح جهة أخرى ، غير أن هذا لا يمنع من شدة التشابه بين قرى مصر بعضها والبعض .

خذ صورة فوتوغرافية لقريتين من القرى فى جهتين متباعدتين ، ثم اعرضهما على فلاح مسن من الصعيد أو من الدلتا تجده لا يستطيع التمييز بينهما . ذلك أن نوع المعيشة ، وشكل السكان لا يختلف فى كل منهما عن الأخرى .

ولزيادة التفصيل نقول :

أن بعض البلاد يكون أكثر أهمية كمراكز البوليس ، وكالبلاد التى بها مزارات لبعض الأولياء المشهورين ، والبلاد التى بها أسواق كبيرة للبيع والشراء هذه البلاد يزداد فيها التجمع والتكتل ، ويتضاعف عدد المنازل والشوارع ، ومنها مايصبح مدناً صغيرة بها تجارة واسعة ، ومؤسسات وفروع لبعض المصارف . محكمة ، مركز للبوليس ومحطة للسكة الحديد ، ولكن أحياء الفلاحين فيها لا تنم عن تحضر ، ولا عن تقدم فى نوع الحياة يزيد عما فى القرى الصغيرة ، والدساكر والنجوع ، وعزب كبار الملاك ومحلات البدو والأعراب ، ففى هذه الأماكن كلها لا يتغير مستوى الحياة ، وهى كلها متشابهة لا تغاير بينها .

لنأخذ على سبيل المثال واحدة منها ولتكن س مثلا قرية كاملة .

وقبل أن ندخلها ، لننظر إليها من الخارج ولنتبين من مظهرها العام نوع الحياة التى يعيشها السكان ، لنقترب من فنائها ولنتقدم نحو ساحتها .

إن القرى فى فرنسا تتميز ببناء الكنائس فيها ، والكنائس هناك تسبغ على القرية روعة ، وفى مصر أيضاً لكل قرية مسجدها ، وأحياناً تقوم فيها كنيسة للأقباط ، وبناء المساجد من أوسع وأشد المبانى رونقاً فى القرية لكنه لا يكاد يشتمل على هندسة فنية ، ولا على روعة أو عظمة البناء حتى المآذن فى القرى والأبراج فى الكنائس ، لا يخلع على القرية مظهراً خاصاً فهى لا تعلو على المستوى العام لمبانى القرية .

* * *

والقرى فى مصر تسعة أعشارها من الفلاحين المسلمين ، والأقباط فى مصر يبلغ عددهم أكثر من مليونين بينهم خمسون ألفاً من الكاثوليك ، وهم يعيشون مع أخوانهم المسلمين فى القرية يمارس كل منهم عباداته حسب أحكام دينه فى حرية كاملة .

والفلاح المسلم شديد التمسك بدينه حريص على العمل بأحكامه .

وأركان الإسلام خمسة وهى :

١ — شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

٢ — إقام الصلاة

٣ — إيتاء الزكاة

٤ — صوم رمضان

٥ — الحج إلى بيت الله الحرام

هذه الأركان يعرفها العامة . كما يعرفها المتعلمون ، وسنتحدث فيما بعد عن الركن الأول ، الاعتقاد بوجود الله .

وتؤدى الصلاة كل يوم فى الأوقات الخمس ، وتقام صلاة الجمعة فى يومها من كل أسبوع ، وتؤدى جماعة فى المسجد ، ويتوضأ المسلمون للتطهر قبل الصلوات ، والوضوء شرط صحة .

وحينما يتوجهون لصلاة الجمعة ، وسماع الخطبة تخلو القرية والحقل من الرجال ، ولا يبقى فيها غير النساء والأطفال ، وحينما لا يكون بالجهة مسجد لأداء الصلاة ، يسوى أهل الجهة مساحة من الأرض ، ويقيمون حولها سوراً قليل الارتفاع ، ويعدونها لصلاتهم على حافة مجرى الماء حيث يسهل عليهم الوضوء ، والصلاة تكون انفرادية أو جماعية . ففى الحالة الأولى يصلى الشخص منفرداً ، وفى الحالة الثانية يجتمع المصلون فى صفوف متراصة يتقدمهم الإمام ليصلى بهم وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد .

والمسيحيون يحضرون صلاتهم أيام الآحاد فى الكنيسة أو البيعة ، وهنا يحضر النساء والأطفال مشتركين فيها حيث يرتلون الترانيم والدعوات .

وعوام المسلمين لا يطالبون بفهم أسرار بلاغة القرآن ، ولا يطالبون بمعرفة ما اختص به العلماء والأدباء من تفسير وتحليل وهذا طبيعى ، وكذلك الحال بالنسبة لجماهير المسيحيين من الأقباط . إذ يكتفى منهم بما يقدرون عليه من ذلك .

واللغة التي يتكلم بها جميع السكان فى مصر من أقصاها إلى أقصاها هي اللغة العامية ، وهى صورة محرفة من العربية الفصحى ؛ وهى تختلف عن لغة التخاطب فى سوريا والمغرب فى كثير من عباراتها ومفرداتها وطرق النطق بها ، وفى مصر نفسها ليس هناك اختلاف كبير بين المديريات المختلفة ، بل هناك فقط تغاير فى بعض العبارات والمفردات وصور النطق ، ففى مصر الوسطى لهجة أقرب إلى التحضر والتمدن من لغة الصعيد . أما فى الصعيد فاللغة خشنة وطرق النطق بها أقرب إلى البداوة والجفاء ، والصعيدى ينطق معظم الحروف من الحلق ويمزج بين العين والحاء ويكثر من ألفاظ التعجب إلخ .

ويحرص الفلاحون أشد الحرص على صوم رمضان ، كما يحرص الأقباط على صيامهم (الفصح والعذراء) . والمسلمون يصومون بالإمساك عن الطعام والشراب ، وعن المتعة الجنسية ودواعيها من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ، ويستمرون على ذلك طول الشهر . أما صوم الأقباط فمدته مائة يوم فى السنة يمتنعون فيها عن الطعام والشراب من منتصف الليل حتى الظهر ، وهم لا يأكلون أثناء هذه المدة اللحوم ولا الدهن .

والزكاة يؤديها الفلاح المسلم فى حدود قدرته المالية ، ولا يتخلف عن أدائها ، وهو يؤديها عيناً من منتجات زراعته حسب الأحكام الشرعية إلى كل من يستحقها من الفقراء والمساكين والعجزة ، ومن لا يستطيعون الكسب .

والحج يؤديه المستطيعون حسبما أوجبه الدين ، ولا جناح على غير المستطيع طبقاً للنص الشرعى .

وحينما يرجع المسلمون من الحج ، وقد تكبدوا مشاق الرحلة المباركة وآبوا إلى وطنهم ، وقد أدوا الفريضة ، وسعدوا بنعمة ربهم ، وحج بيته المبارك ، يقيمون الحفلات ، ويدعون الأهل والأصدقاء وتفد عليهم وفود المهنئين من الجيران والأصدقاء وغيرهم ، ويصبح الحاج من أهل الوجاهة فى قومه ، ويعم هذا الشرف أبناءه وذويه وينادى بعد ذلك بلقب الحاج فلان ، ويعمد إلى طلاء واجهة المنزل بالجص ، ذى اللون الأبيض الزاهى محلى بنقوش مختلفة الألوان تخليداً لذكرى حجه مسجلا سنة الحج والزيارة .

ويفعل الأقباط مثل ذلك ، حين عودتهم من أوراشليم ، والحاج من الأقباط يطلق عليه لقب المقدس .

وللأضرحة ، ومزارات الأولياء شأن يفوق كل ما عداه ، وهذه الأضرحة هى مقابر الأولياء ، والصالحين ، وأهميتها فوق أهمية المساجد نفسها ، إذ يفد لزيارتها جميع الأجناس والأعمار ، من نساء ورجال وأطفال ، وهى مصدر البركة عندهم وجالبة الخير لجميع القرية ، وقد تكون خارج المبانى ، تظللها بعض الأشجار المتعقدة ، أو بقرب بعض الآبار ، أو القنوات ، وتكون مبنية ، فى الغالب ، على شكل حجرة ذات خمسة أمتار فى مثلها ، تعلوها قبة وتكون مطلية بالجص ذى اللون الأبيض ، وليس من الضرورى أن يكون بداخلها جسم الولى ، بل يكفى أن يكون فيها أثر تذكارى منسوب إليه ، من خوص ، أو شمع ، أو قماش أو خصلة من الشعر ، أو قليل من بواكير الثمار .

وخادم الضريح ، الذى يقوم على صيانته وخدمته ، يكون رزقه مكفولا ، من النذور والصدقات ، أو من ريع بعض الأعيان الموقوفة عليه ، ووظيفة هذا الخادم ، تكون فى بعض الأحيان ، وراثية عن الأب والجد .

ويوم مولد الولى ، كل سنة ، يفد القرويون ، إلى مكان الضريح ، ولا يكاد يتخلف أحد من سكان القرى المجاورة عن شهود المولد ، وما يقام حول الضريح من حلقات الذكر ، حيث تتلى الدعوات ، والأوراد ، والأناشيد ، والأذكار .

وعلى بعد غير قليل من مدينة الأحياء ، تقع مدينة الأموات ، ومثوى سكان الأبدية ، تلك هى مقبرة القرية ، ويختار لبنائها عادة ، مرتفع من الأرض التى لا تزرع ولا تصلح للزراعة ، أو ناحية صخرية ، بعيدة عن الرطوبة ، وعن ضوضاء الحياة وصخب الأحياء ، وقد تكون المقبرة فى الشاطىء الآخر من النهر ، ومدينة الأموات هذه مؤلفة من المقابر ، حيث تبنى كل أسرة مقبرة ، تكون متسعة أو ضيقة ، حسب حالة الأسرة ومقدار ثروتها ، وهذه المقابر مبنية بالطوب ، ومقام بها أعمدة من الأسمنت عند رأس الميت ، وعند قدميه وموضوع عليها خوص أخضر ، يجف بمضى

خارج القرية تمتد المقابر

الوقت ، ويجدد مرة فى العام ، وهم لا يسجلون عليها أية كتابة ، ولا يضعون فوقها زهوراً ، لكن تعرف كل أسرة ، مقبرة موتاها ، وتميزها عما سواها فى الأعياد ، حينما تحضر لزيارتها ، وعلى الأخص فى أيام العيدين ، حيث يحضر القرويون بجموعهم ، وبكامل أسرهم ليؤدوا واجب الوفاء لموتاهم ، يحملون معهم طعامهم وزادهم ، لكى يقيموا مدة كبيرة ، بجوار الأموات ، وفى هذه الأيام تبدو القرية ، وكأن سكانها هجروها ، فأصبحت خالية منهم ، أو كأنها فى شهر أكتوبر ، فى فترة جنى القطن ، حيث يذهب الجميع ، صغارا وكبارا ، إلى الحقول ، وتخلو منهم منازل القرية .

فى اللوحات التى يرسمها بعض الفنانين للقرى المصرية يبدو منظر الأشجار والخمائل ومجموعات المنازل ، منعكسا فوق صفحة الغدير من الماء ، فى الواقع أن هذا الغدران والخلجان ليست سوى مستنقعات مملوءة بماء آسن ، أخضر اللون ، مما يعلوه من عفونة ، ومعظم القرى ممهورة بهذه المستنقعات التى يتوالد فيها البعوض ، وتنتشر بسببها الحميات .

ربما قيل أن الضرورة قضت بوجود هذه المستنقعات ، إذ يضطر الفلاحون ، حينما يبنون منازلهم ، لصنع الطوب الذى يبنون منه فيحفرون هذه البرك ليأخذوا منها الطين الذى يصنعون منه طوبهم ، ويملئونها بالماء ليعجنوا به التراب ، ويستمر تعميق هذه البرك فينساب فيها ماء الترشيح ، وأحيانا تنشأ هذه الحفر من تعلية الجسور أو تحويل الطرق والمجارى ، فيؤخذ الطين من أقرب موقع ، ولا تلبث هذه الحفر أن تمتلئ بالمياه الراكدة ، وتصبح مستنقعات ، تستخدم لسقى الحيوانات ، ويغتسل فيها الأطفال والنساء أحيانا ، وربما أخذ منها الماء لاستهلاكه فى أعمال البيوت والمنازل .

وقد قامت الحكومة بردم الكثير من هذه المستنقعات التى هى بؤر للجراثيم ومرتع للبعوض ، ومصدر للعدوى وانتشار الأمراض ، وبلغ ما قامت الحكومة بردمه منها نحو خمسين مستنقعا ، بذلت فى ردمها جهدا يشكر ، وقد تطلب ردم ثمانية عشر مستنقعا منها نحو عشرة آلاف متر مكعب من الأتربة .

القـــريـة تحت ظـــلال النخيـــل

وقد عثرنا على مرسوم صدر فى عام ١٨٩٢ يحظر على الأهالى إحداث هذه المستنقعات أو توسيع ما هو موجود منها .

وعلى مقربة من هذه البركة ، خارج المبانى أيضا يقع الجُرن ، وهو الفضاء المعد لوضع المحاصيل ، بعد جنيها وحصادها ، ليدور فوقها « النورج » وتفصل من التبن ثم يعبأ فى الأكياس ، وقد أعده الفلاح ، وصقله ومهده ليصبح صالحا لهذه العملية ، وتشترك الأسر فى الانتفاع بهذه الأجران واستعمالها ، وهى من المنافع العامة لا تجوز ملكيتها ، وتختلف سعة كل جرن باختلاف عدد المنتفعين به قلة وكثرة وهو يستخدم أيضا كساحة عامة للقرية تقام عليها الاجتماعات ، والحلقات والمباريات ، والأعياد ، والحفلات .

وترى بعد ذلك على مقربة من الجرن ، أكوام وأكداس من القمامات والأتربة ، وجثث الحيوانات ، تكاد تفوق المنازل ، علوا وارتفاعا ؛ لولا أن الكلاب والغربان تتولى إنقاص هذا العلو ، والفلاح يجىء ليأخذ منه السماد لأرضه ، وهذه الأكوام ، منبع للأمراض والأوبئة ، وكان من الممكن أن يشتد خطرها لولا أن حرارة الشمس الشديدة ، تقتل جراثيمها ، وتحد من أضرارها ، وخارج القرى ، أيضا ، وخاصة فى الفيوم ، وفى مصر الوسطى ، ترتفع أبراج الحمام إلى نحو ١٠ أمتار وهى مربعة الشكل ، محلاة بالألوان البيضاء والسمراء ، مبنية على أسس متينة ضخمة القواعد (٤ — ٧ أمتار) ، يعطى منظرها شكل القلاع والتحصينات ، وهذه الأبراج ترى عند الغروب ، حينما تأوى إليها أسراب الحمام المتجمعة بعد سرحتها اليومية ، لتحصل على غذائها فوق المزارع ، وهذه الأسراب ضخمة العدد ، لا تكاد العين ترى آخرها لكثرة عددها ، وهى تحتاج فى بنائها إلى مبالغ ضخمة ، وإلى عمال ذوى خبرة ، وهذا يفوق قدرة الفلاح المتوسط ولا يستطيعه إلا الأثرياء ، كالعمدة وأمثاله من كبار الملاك .

وفى الوجه القبلى تبنى هذه الأبراج على زاوية الدور . وهذا هو سبب ما نشاهد من علو أبنية القرية فى تلك الجهات ، ولكن هذه الأبراج ، على وجه العموم ، سواء

أكانت ملصقة بالمنازل ، أم منفصلة عنها ، ظاهرة متميزة بين مبانى القرية بعلوها ، وارتفاع طبقاتها ، ووقوعها على مسافة من المبانى ، ولها واجهات مزخرفة ، وحدائق من حولها ، وهى فى العزب ، مملوكة لمالك العزبة ، وفى القرى مملوكة للأعيان والتجار الأثرياء .

وفى جانب سهل الوصول ، فى مدخل القرية . يقع الشونة ، فى موقع قريب ، بالنسبة للمزارع (مخزن الغلال ومستودع المحاصيل) ، ويليها مسكن المستخدمين والمكتب التابع للشونة . ثم المدرسة الأولية للقرية .

ولندخل بعد ذلك إلى القرية ، من ناحية نظيفة وقريبة . يعنى بنظافتها أكثر مما عنى بسواها من مساكن القرية فسنجد « المضيفة » أو الاستراحة .

هذه الاستراحة ، تملكها مصلحة الرى ، أو وزارة الداخلية ، ويشرف عليها العمدة . وهى مكونة من غرفتين أو ثلاث غرف ، أعدت لنزول ، واستضافة المسافرين ، والموظفين المتنقلين لمباشرة أعمالهم ،

وفى الريف نحو ٤٠٠ استراحة من هذا النوع .

لم يبق بعد ذلك إلا أن ندخل القرية ، فالذى شاهدناه ولاحظناه ، حتى الآن ، لا يستدل منه على ما بداخلها ، فالفوضى ، والأتربة تسودها ، وليس فيها أى تخطيط ، أو هندسة ، ولا أى أثر للتحضر . ووجه الشبه الوحيد ، بينها وبين المدن الحديثة ، هو شدة الازدحام الناشىء عن ارتفاع ثمن الأراضى ، وضيق رقعتها مع كثرة السكان . وطرقها ودروبها الضيقة المعوجة ، المملوءة بفضلات الحيوان والإنسان على أشنع صورة ، لا تكاد تكفى ، بسبب ضيقها الشديد لمرور ثلاثة رجال فى وقت واحد ، لأن سعتها لا تتجاوز مترين .

ومن المحال أن يفكر أحد فى إمكان سير العربات ، أو السيارات ، أو حتى الدواب فى داخلها ،

وفى الحى القريب من منزل العمدة ، ومن مدرسة القرية ، يقوم سوق القرية وفيه محل البقال . والخياط ، والقهوة ، وبائع الأوانى الفخارية . وما شابه ذلك مما

ســـــوق القريـــــة

بالحاجات الضئيلة ، وهذه هى القرى ذات الأهمية . وهناك قرى ليس فيها محلات للبيع والشراء ، وأهلها مضطرون لانتظار الباعة المتجولين حين يمرون بقريتهم ، لكى يشتروا منهم ما يلزمهم .

والقرى هنا لا يخترقها شارع كبير كقرى فرنسا ، بل هى مضغوطة ، شديدة الازدحام ، بعيدة عن الطريق فى الغالب محرومة من المواقع الحسنة على شاطىء النيل أو على الطرق الكبرى ، وقلما يمكن اجتيازها بعربة أو سيارة ، ولهذا يصعب على الغرباء معرفتها ، ولا يستطيع الإلمام بأحوالها إلا رجال الدين والأغنياء من الوطنيين وعمدة البلدة وصرافها ، هما اللذين يرجع إليهما فى معرفة شئونها .

والعمدة والصراف هما رابطة الاتصال بين الفلاح وبين الحكومة ، ونظار الزراعة هم رابطة الاتصال بين الملاك والفلاحين .

وهناك شخصية أخرى هى حلقة الاتصال بين القرية ، وبين العالم الخارجى . ذلك هو البقال ، الذى يقوم بالخدمات النافعة ، والأعمال الهامة للقرية ، فهو بقال وصيدلى ، وصاحب مقهى ، ومقدم قروض وسلفيات ، وقت الحاجة ، وكثيراً ما يكون هذا البقال إغريقيا من أبناء الجالية اليونانية فهؤلاء هم أكثر الأوروبيين تمصراً وهم لا يأنفون من الحياة فى القرية ، وسط الفلاحين ، يعاشرونهم ويخالطونهم ويعلمونهم ، وقد أدخلوا إلى عالم القرية أساليب الاستمتاع والترفيه . مثل الجرامافون واسطوانات الغناء ، ومثل الألعاب الترفيهية المأخوذة عن الغرب . كالنرد ، والشطرنج وهم يحسنون الاحتيال على الفلاح واستغلاله مستعملين وسائل الإغراء وبيع الخمور وغيرها ، بذكاء ، ودماثة خلق ، وحسن معاملة . وهم يقرضون الفلاح بالفوائد الباهظة والربا الفاحش ، ووسيلتهم فى ذلك سهولة العمليات وخلوها من التعقيد ، والبيع بالآجال الطويلة فى حين يشترون منهم بالنقد ولهذا يسحر الفلاح بما يراه من سهولتهم فى المعاملة ومهارتهم ويقع فى حبالتهم .

وفى القرية شخصيات أخرى ، أقل أهمية وأكثر شعبية ، تعيش على هامش الحياة القروية ، وتؤدى خدمات ، وتقوم بوظائف اجتماعية ، أصبحت بحكم العادة راسخة

لا يستغني عنها ، هناك الحلاق ، وهو يعمل فى مهنته يحلق للفلاحين رءوسهم كل شهر يؤدى عمله فى منطقة اختصاصه حيث يجلس على الأرض وأمامه الزبون جالسا مثله على الأرض ، وبين ساقيه إناء مملوء ماء ، وفى يده موسى قديم ، وعملية الحلاقة سهلة عليه ، يباشرها بمهارة وسرعة ، ثم هو يقوم بخلع الأسنان ، وبالفصد ، والحجامة والختان ، ويعطى النصائح الطبية ويبيع بعض الأدوية ، وهو يمثل وزارة الصحة فى القرى التى ليس بها أطباء وبهذا العنوان ، يقوم بالتطعيم ، وإبلاغ العمدة خبر الوفيات .

وفوق أنه موظف الأحوال المدنية هو مدير عمليات الختان .

وفى ليلة إجراء الختان ، وليلة الزواج ، يدعى لقص شعر الغلام أو الشاب الذى يراد زفافه ، فيذهب إلى الدعوة ، وسط مظاهر البهجة ، حيث يؤدى عمله ، فخورا مزهوا بفنه معجبا بنفسه ، وهو يؤجر على خدماته هذه عينا عند ظهور المحصول كل سنة .

وهناك الساحر : سواء أكان مقيما بالقرية أم متنقلا يجىء إليها من حين لآخر وهو منافس للحلاق تخشى منافسته ، لولا أن عملاءه من الجنس النسائى ، فهو بطلاسمه وتعاويذه ورقاه ووصفاته ، يجد فى الفلاحات ، من يقوم بخدمتهن ، لإبطال السحر ، أو الحياطة من الحسد ، والعين الشريرة ، أو جلب محبة الزوج ، أو الحمل .

والفلاحات لا يمكن إقناعهن بأن هذا دجال مشعوذ ، فللسحر والسحرة تأثير كبير على عقولهن وبمقدار ما يكون الساحر ماهرا فى الدجل يكون استيلاؤه على العقول الساذجة أقوى .

وهذه الناحية من الحياة الريفية تحتاج إلى مجلدات كثيرة ، وعن طريق بعض المعتقدات المنتشرة بين المسلمين والمسيحيين وبتأثير إيحاءاتها قام فى أذهان القرويين أن للسحر أسراره وقوته وأن له صلة تمت إلى عهود المصريين القدماء ، والراهب القبطى فى الريف مفضل على غيره كساحر والأحجار والتماثيل عندهم ذات أثر سحرى وكل ذلك لتأثير القديم ، وقوة الماضى البعيد المتسلط على الأذهان والمشاعر منذ القدم .

والنادبات فى المآتم يجعلن من هذا العمل حرفة ، وعادة الندب مأخوذة من تقاليد المصريين القدماء تأصلت فى الأوساط الريفية ، فإذا مات أحد الفلاحين ، انطلقت صيحات النساء معلنة موته ، ودوى صوتهن وعويلهن فى الفضاء ، وبعد أن يستمر ذلك فترة يحضر على أثرها المعزون والمواسون ، ثم يجهز الميت ويغسل ويكفن ثم يوضع فى نعشه ويحمل على الأعناق ومن خلفه المشيعون إلى أن يوارى فى قبره ويوضع فى لحده بين مظاهر الحزن والرثاء أو العويل والبكاء ، وعملية الغسل يقوم بها أناس محترفون ، وكذلك دفن الميت يتولاه اللحادون .

ويقام المأتم ، ويرتفع صياح النائحات مرددات مراثى حارة يجدن تأليفها ارتجالا حيث يذكرن محاسن الفقيد ، ويعددن فضائله ، وينتزعن الأسى والشجن من الحاضرين برثائهن المؤثر وتفتن هذه النسوة فى معاتبة الأقدار ، واستثارة الأحزان بمراث مرتجلة ، ليست أكثر ارتجالا من دموعهن ، ولا أكثر تصنعا من ثيابهن السوداء التى أعددنها لهذا الموقف الأليم حسبما تقتضيه الصناعة والمهنة .

ووجوههن مجللة بالسواد أو مصبوغة بلون أزرق يعرف باسم « النيلة » علامة على الحداد ورءوسهن مضمخة بالوحل ، ويمثلن من الحركات والسكنات ما يعبرن به عن الجزع والشجن المفتعل ، لاطمات وجوههن وصدورهن وسط المأتم ، والنساء أسرع حضورا إلى المآتم من الرجال .

أما الرجال فيحضرون للعزاء ولتشييع الجنازة ، وهم سكوت ، متأثرون بجلال الموت ويجلسون فى المأتم ، منصتين لتلاوة القرآن ، وتدبر آياته ، ثم ينصرفون بعد أن يصافحوا آل الميت وأقرباءه .

* * *

وهناك أنواع أخرى من الاجتماعات تضم الفلاحين وتهيء لهم فرص اللقاء وهى غير مناسبات الحزن والعزاء ، تلك هى اجتماعات الابتهاج والسرور فى مناسباتها المختلفة .

من هذه الاجتماعات الاحتشاد لسماع الربابة وهى موسيقاهم التى يعرفونها ، حيث يغنيهم شاعر الربابة على عزفها سير الأبطال والشجعان ، وهذا الشاعر هو واحد من بينهم ، هوى هذه الصناعة وانصرف إليها .

ذلك الرجل المحوط بالإعجاب والذى رشحه صوته وقدرته على الإلقاء والإنشاد لمهمة العزف على الربابة ، وهى آلة ذات وتر واحد ونغمة حادة ، يبدأ كلامه بمدح النبي محمد أو السيد المسيح ثم يأخذ بعد ذلك فى سرد بطولة أبى زيد الهلالى ورفاقه ، وعنترة ابن شداد ومغامراته فيشمل المستمعين جو ساحر ، ويستولى عليهم حماس عجيب ، ويتمادى بهم السرور والإعجاب والتحمس فيصفقون ويطربون ، وقد ينتزعون اللبد أو العمائم من فوق رءوسهم ويقذفون بها فى الهواء من فرط التحمس والإعجاب .

وفى الحفلات ذات الشأن ، مثل حفلات الزواج أو استقبال الحجاج العائدين ، وفى حفلات الموالد تزدان الحفلة بالموسيقى ، حيث تعزف ألحان بسيطة حادة ذات أنغام متماثلة وأحيانا تكون خالية من الانسجام ، فالموسيقيون أميون لا يحسنون ضبط النغم كما ينبغى ، أو يعرفون نغما كثير الشيوع ، والآلات الموسيقية عندهم هى المزمار ، والأرغول ، والسلمية ويصحب أنغامها دقات على الطبلة ، وهى آلة مستديرة ذات عمق قليل والدربكة ، وهى قمع من الفخار جعل قاعه من جلد حمار وركب عليه باستدارة .

وهذه الآلات الموسيقية كلها مصنوعة محلياً .

ولا توجد حفلة فى القرى لا تستخدم فيها هذه الآلات .

ويشتد زحام الجمهور واحتفاله ويزداد سروره كلما انضم إلى الموسيقى نوع من الملاهى والمسليات وذلك كألعاب المشعوذين ، وعارضى القردة ، والحواة ، ولاعبى الحطب ، وهى لعبة تمثل نوعاً من المبارزة بالعصى (النبابيت) بين اثنين من الفلاحين يمسكان بعصويهما ويديرانها فى الهواء ويتبارزان ويتغالبان مظهرين مهارتهما فى المعارك واليقظة للخصم والتفادى من الضربات ، وسرعة الحركة فى الوثب والجرى واللف إلخ ، ورقصة البطن التى تقوم بها الريفيات ، ولعبة الأراجوز إلخ .

وساحة القرية التى تقام فيها هذه الحفلات هى الجرن كما قلنا ، أو الفضاء المجاور لضريح الولى الذى يحتفل بذكرى مولده ، وبمناسبة ذكر هذه الموالد نقول أن بعضها يبلغ من الشأن درجة غير عادية ويؤمه عشرات الألوف من الزوار القادمين من الأرياف ليشهدوا ذكرى مولد الولى مسوقين بعامل التماس البركة أو إمتاع النفس بمحاسن الاجتماع ورؤية الحفلات .

ومن أكبر الموالد مولد السيد البدوى فى طنطا ، ومولد سيدى فرغلى فى «أبو تيج» والشيخ يوسف أبو حجاج فى الأقصر ، وجلال الدين السيوطى وعبد الرحيم القناوى ، والشيخ مبارك فى أسيوط .

وعند الأقبـــاط ست دميانه ، وأبو سيفين ، وأقلاديوس الغرب ، ومارى جرجس إلخ . . .

وبعض الأعياد مثل شم النسيم تكون أعياداً عامة للمصريين جميعاً مسلمين ومسيحيين .

هذه الأعياد والحفلات تستمر عدة أيام ، تفد فيها الوفود ، وتخفق الأعلام والبنود ، ويعتلى الفرسان من البدو صهوات الجياد ، وترقص الخيل على أنغام الموسيقى ، وتقام الأراجيح للأطفال فى جانب من الساحة ، وتنصب الألعاب ، وتجرى الخيول الخشبية على عجلاتها فى منظر سار بهيج ، وتقام فى الهواء الطلق الحوانيت للبيع والشراء ، وتعرض السلع البسيطة مثل الحلوى ، والفول السودانى والحمص إلخ .

وفى ساحات هذه الموالد ، والأعياد تفرح الجماهير وتطرب ويعمها السرور وتسلم نفسها إلى المرح بلا قيد ولا شرط .

وسنروى هنا ما اتفق لنا أن شاهدناه من هذه الموالد فقد كنا فى شهر مايو من عام ١٩٥٠ ، نتنقل فى بلاد الوجه القبلى ، ونسافر من بلد إلى بلد للتفتيش على مدارسنا هناك ، وفى بعض الطريق هناك صادفنا منظر يدعو إلى الدهشة إذ رأينا جموعا لا حصر لها آتية من الشمال ومن الجنوب من بنى سويف إلى قنا تزحم القطارات ،

والسيارات العامة ، والطرق والساحات والميادين . كان هؤلاء هم زوار ضريح الفرغلي في مدينة أبو تيج إحدى بنادر مديرية أسيوط تجمعوا في القطارات على هذا الوجه ذاهبين إلى أبو تيج لزيارة هذا الولى ، والتماس بركته وكانت أيام هذا المولد قد قاربت الانتهاء ، إذ كان قد مر على افتتاحه نحو أسبوع .

ودعانا حب الاستطلاع إلى الذهاب في هذا اليوم إلى أبو تيج مع هذه الجموع الزاخرة ، وقد تعودنا منذ زمن على زحام الجماهير في مصر ، ذلك الزحام الذى ينمو نمواً مزعجا عاما بعد عام في وسط تلك الجماهير في سيارات النقل العام ، وفي عربات الترام لكن هذا القطار كان شديد الازدحام ، وعربات الدرجة الثالثة ، وغيرها مكتظة بالركاب ، وكان عدد الركاب في كل عربة منها يبلغ الألوف وظهور العربات تحمل المئات من هؤلاء المسافرين .

واشتد زحام هؤلاء الركاب ، وعلا الضجيج والصخب ، وتبودلت الضربات واللكمات ، وكان من الغريب حقا أن أحداً لم يمت وسط هذا الزحام ، وهذا يؤيد صحة ما يقال عن قوة أجسام الشعب المصرى وشدة مقاومتها .

وفي الساعة التاسعة مساء وصل القطار إلى محطة أبو تيج ، وأخذ يقذف بركابه إلى رصيف المحطة ، وبعد ساعة أو نحوها كان هذا العدد الهائل في فناء المحطة ، وكان الفناء يموج كالسيل بهذه الأجسام البشرية الناصبة الغارقة في الجهد والفقر والعرق .

وكان المولد يقوم كله على هؤلاء القرويين ، وليس فيه إلا عدد قليل من الأفندية .

وأصبح عدد سكان المدينة ومن انضم إليهم من الزائريين في بضعة أيام نحو سبعين ألف نفس بعد أن كان عشرين ألفاً هم عدد سكانها الأصليين . كل ذلك في بضعة أيام ، ومن غير أن تتخذ الأهبة لإيوائهم ، والمحافظة على صحتهم ، ولم يتخذ شيء لزيادة الأماكن ، أو اتخاذ المعدات التى تكفى لمواجهة هذه الزيادة الكبيرة المفاجئة ، اللهم إلا زيادة عدد الأكشاك والحوانيت لبيع الحلوى المتعددة الألوان والأشكال ، وزيادة مصابيح المسجد ، والعناية بإضاءته أما ما عدا ذلك فلكل فرد

من هذه الجموع التى لا حصر لها أن يتصرف قدر طاقته ليحصل لنفسه على المأوى والراحة .

وأصبحت الشوارع الرئيسية غاصة بسيول لا حصر لها من المارة ، أما الأزقة الصغيرة فقد استخدمت لنوم الجماهير .

وفى الساعة العاشرة بدأت حلقات الذكر داخل المسجد ، وتجمع الشبان يذكرون على نغمات الإنشاد ، وإيقاع المنشد ، وخارج المسجد أقيمت بعض الملاهى والتأمت حلقات الجماهير حول المهرجين والمغنين ، وأخذ رجال الشرطة يشاركون الجماهير فى مرحها ، وتقدم بعضهم لشراء بعض الصور التى يعرضها الباعة ، ومنها صورة للسيدة العذراء ، امرأة جميلة تحتضن طفلها .

وفى الساعة الحادية عشرة أخذ يبدو منظر الدروب ، والحارات ، وقد امتلأت بالرجال والأطفال يفترشون الأرض ، ومن بعيد يتراءى منظر قطيع كبير من الإبل اتخذت مباركها ، ونامت دون أن تميل رءوسها ، وإلى جانب آخر يجلس النساء أو يضطجعن ، وعلى وجوههن البراقع السوداء ، ومن بينهن امرأة عجوز جلست مستيقظة تحت ضوء القمر تلاحظهن وكلما رأت إحداهن قد انحسر عنها ثوبها ، وانكشف جسمها تقدمت لتعيد الثوب خوفاً عليها من البرد ، ويتردد وسط السكون والصمت سعال أو شهيق متقطع من حين لآخر .

وفى فجر اليوم التاسع من يونيه ، وهو اليوم الكبير ، وختام أيام المولد خرج موكب الاحتفال من المسجد ليدور دورته فى شوارع المدينة ، وهو يمر فى الشارع الذى تقع فيه مدرستنا .

وطول هذا الموكب لا يقل عن مسافة كيلو متر ، وقد شاهدناه يمر أمامنا كأنه أحد الأفلام الملونة ، يتقدمه أبناء وأحفاد الشيخ الفرغلى ، وعليهم العمائم الخضراء ، وبيدهم أغصان الخوص وأفرع النخيل الخضراء ، ويبلغ عددهم نحو مائة ، تلوح عليهم مخايل الشرف وإن كانت ملابسهم تنم عن الفقر .

ويمر الفقراء ، وهم الدراويش ، أو المجاذيب ، و قد تعرت ظهورهم وصدورهم ،

وأخذوا يظهرون حركاتهم الخاصة بهم ، ويجرحون أجسامهم بالسيوف ، وهم يتجمعون من كل البلاد المجاورة ، كما يتجمع أعضاء النقابات أو الاتحادات ، يتلوهم الفرسان ، على صهوات الخيل . تختال بهم الجياد العربية الأصيلة . وهم من الأعراب . سكان الصحارى جاءوا من الشرق والغرب

ويمر بعد ذلك موكب أصحاب الحرف . يمرون طائفة بعد الأخرى وكل طائفة تحمل شارة تدل على نوع حرفتها ، فى صفين منتظمين وهم يرددون كلمة الله حى ويتغالى بها نشيـــدهم ، ثم يجتمع رؤساؤهم ويتعانقون ، إظهاراً للمحبة والأخوة .

ويمر بعد ذلك جمل الشيخ فرغلى وعليه الحلى ، من الذهب اللامع والديباج الأخضر اللون يحمل فوق ظهره هودجا يمثل قبر صاحب الضريح ويحمل عمامته .

وهذا الجمل ، يترك طول العام بلا عمل ، ويعتنى بعلفه فى تلك المدة لكى يقوم ، فى هذا اليوم ، بهذه المهمة .

ويتبعه ، فى مشية وئيدة سبعة وخمسون جملا ، يمثل كل منها ، ولياً من أولياء المنطقة ، تمشى صفاً طويلا ، كل منها خلف الآخر ، وعليها من الزينة ما تستطيعه القرية التى أوفدته وكل هذه الحلى ، والهوادج ، لا تنبىء حالها عن الغنى واليسار .

ولم تتخلف قرية من القرى عن إرسال جملها ، والمشاركة فى هذا المولد إلا قرية « نكلا » وهى من البلاد الهامة فى المنطقة : امتنعت ، هذا العام عن إرسال جملها لأن نزاعا قام بينها وبين بلدة أبو تيج ، نشبت بسببه معركة ، ذهب ضحيتها قتيل .

وأثناء مرور الموكب . يلقى سكان المنازل المطلة عليه ، من النوافذ ، أرغفة من الخبز ، تبقى فوق المنصة أو يتلقفها الدراويش .

وأخيراً يمر الجزء الرسمى من الموكب ، الجزء الممثل للحكومة ، إذ الحكومة هنا تشارك فى الموكب ، لأنها صرحت به ، وتشترك فيه رعاية منها لهذه العادات والتقاليد الشعبية .

يمر الخفراء بملابسهم السوداء ، ثم تمر كتيبة من المشاة يتقدمها الممثل الرسمى للحكومة على ظهر جواده .

ولهذا الموكب ، فى نفوس الأهالى . من شدة التأثير ، وقوة النفوذ ، مما يجعل أية مشاركة حكومية ، أو رسمية لا تزيده أهمية ، فوق أهميته ، وعظم شأنه ، فهو تعبير عن طبيعة هذه البلاد ، وصورة من تقديسها للعقائد تنبت كما تنبت شتى الزروع فى التربة المصرية ، على شواطىء النيل الخالد ،

هؤلاء الفلاحون الذين ملئت نفوسهم بالتقوى ، وشدة الاعتقاد . والذين أقبلوا متحملين المشاق ، ليشهدوا اجتماعات هذه الموالد ، وليعودوا إلى أرضهم ، بعد ذلك ، راضين عن أنفسهم ، مستريحى الضمير ...

كنت أفكر فى كل هذا ، وأنا عائد من أبو تيج ، تصحبنى ذكريات هذه الحفلات الساذجة ، والمناظر الريفية التى شاهدتها ، كانت هذه الخواطر والمشاعر تنبت فى الذهن كما ينبت النبات ، لا كما تخطر الأفكار فى الذهن ، عند التفكير الهادى .

هؤلاء الريفيون الفقراء ، اللذين يتحملون المشاق الوعرة ، الذين جاءوا يحملون « الخلطة المباركة » وهى قليل من حبوب القمح مخلوطة بطين الحقل ، وجاءوا يقدمون النذور والصدقات ، ويلتمسون البركات من صاحب الضريح ، وبعد أن تنتهى شعائر الزيارة ، وحفلات المولد يعودون من رحلتهم ، متعبين ، ولكن سعداء ، فقد استمتعوا بهذه الزيارة ، السنوية التى أوجبوها على ، أنفسهم ، كأنها شعيرة من شعائر الدين ، أن يعمروا أنفسهم بذلك الجو الروحى ، فى أيام المولد المبارك .

وللريف أسواقه كذلك ، وهذه الأسواق تقام كل أسبوع ، فى أفنية القرى والبنادر ، وداخل شوارعها الرئيسية ، وتستمر حركة البيع والشراء ، من الفجر حتى الظهر ، ويأتى الباعة والبائعات بالسلع ، من المنتجات والحاصلات ، ومن الفواكه والخضروات ، ومما يلزم الريفيين من المصنوعات والأدوات والأقمشة ، وفى جانب خاص ، يكون سوق الماشية وفى جانب آخر تعرض الطيور والدواجن وهكذا .

وتزدحم ساحات هذه الأسواق بالوافدين إليها ، من الريفيين وسواهم ، رجالا ونساء وأطفالا ، زراعا وتجارا وغيرهم ، وينشط البيع والشراء ، فيقدم التجار ما عندهم ، من أقمشة ومصنوعات وأدوات ، ويقدم الفلاحون ما أحضروه ، من خضر وطيور وزبد وبيض وجبن ، تحملها الفلاحة على رأسها فى السوق ، وتتولى عرضها ، والفلاح يترك لزوجته عادة عملية العرض فى السوق ، إذ هى أقدر منه على المساومة .

ويرد المشترون من كل القرى المحيطة ، فيتكون خليط متباين العناصر ذو ضجيج ، مؤلف من أناس وحيوانات ، وأشياء ، ويقوم بعرض الأقمشة ، والسلع الحديدية ، والمصنوعات ، تجار محترفون ، أتوا من عاصمة الإقليم أو من كبار البنادر ، وهؤلاء التجار عملاء لمن هم أكبر منهم من تجار المدينة ، وأما المنتجات من خضر وبيض وزبد ، فيعرضها الفلاح وزوجته التى تتولى العرض والمساومة إذ هى تجيدهما أكثر منه ، كما يعرض الفلاح ماشيته حينما يستغنى عنها أو يريد استبدالها ، أو حينما يضطر لبيعها .

والقطن والحبوب ، يشتريهما التجار ، ويحضر لشرائهما ، مندوبون عن كبار التجار ، فى القاهرة والإسكندرية .

ولا يزال يحدث التبادل ، فى القرى ، بطريق المقايضة ، ولكن استعمال النقود يعم باضطراد .

ويعود الفلاح من السوق إلى بيته ، قبل غروب الشمس ، وقد أتعبه المشى ، ولكنه يعود وقد قضى حاجته ، واشترى وباع ، ومارس الحياة ، وسره النشاط والصياح والحركة .

وعقب انفضاض الأسواق ، أو العودة من الموالد والمزارات ، تمتلئ السبل بالمارة .

والفلاحون يعجبهم الضجيج ، والاجتماع ، والازدحام .

وحينما يتحتم اجتياز قناة أو تعدية للشاطئ الآخر يتحمسون ويتسابقون.

إلى ركوب القوارب التي تنقلهم ، وقد يحدث ، بسبب الزحام انقلاب هذه الزوارق ، وضياع الأرواح ، وترى جموعهم منتشرة على الطرق ، مشاة ، أو ممتطين دوابهم بعد أن يكدسوا ما اشتروه فوق ظهورها ، وكأنهم لحرصهم على ألا يفوتهم شيء منها ، في حالة سفر لا رجوع منه ، وهم حينما يركبون سيارات الأتوبيس ، يتكدسون فيها حتى تكاد تزهق منهم الأنفاس حاملين معهم الأمتعة ، والأربطة ، من كل نوع ، وفيها من الأشياء ما كانوا يستطيعون أن يجدوه في عزبهم وقراهم .... ولكنهم هكذا يريدون ويصممون ! أليسوا قادمين من السوق ؟ ومن الصعب حملهم على النظام والصبر ، فهذا فوق طاقتهم ، ولهم كثير من العذر ، نظراً لحالتهم ، وانخفاض مستواهم الاجتماعي والاقتصادي ، أضف إلى ذلك . سوء النظام وقلة العناية ، في مرافق النقل العام كما هو معروف .

والفلاح ، بعد هذا كله ، ذو صفات وملكات اجتماعية ، واستعداد لحياة المجتمع ، وإن كان ، حتى الآن ، لا يلقى من المثقفين ، والحاكمين من يرعاه ، وينمى فيه هذه الغرائز والصفات .

والقرية ، حتى الآن ، في شبه عزلة عما هو خارجها ، وهي تحيا حياة مقفلة خاصة بها ، تحكمها في داخلها ، التقاليد ، والعادات ، والاعتقادات الموروثة ، والتي لا تصعد الذاكرة إلى مبدئها من التاريخ ، وفي هذه التقاليد ، يعيش الفرد ، حيث تتكون شخصيته ، وتتحدد معالم تفكيره .

والفلاح لا يسعفه خياله ، ولا سعة عقله ، أو يحمله على التفكير في الماضى أو المستقبل ، فهو مكبل في حدود الحاضر ، وهذا شأنه أيضاً ، فيما يتعلق بالمكان ، فهو لا يفكر في خارج قريته ، وقريته هي كل شيء بالنسبة له ، لأنها قريته وحاضره ، وهي تحدد له معنى الوطن والوطنية ، فحين تسأل الفلاح عن وطنه يجيبك بأنه من قرية كذا ، وقد يجيب في بعض الأحيان ، إجابة أوسع من ذلك ، فيقول أنه من مديرية كذا ، ولكنه لا يقول لك ، أنه مصرى ، ولو أنه أشد مصرية من كثير من الساسة ، وكأنه لا يدرك أنه منتسب إلى وطن ، وأنه يجب أن يكون أول الثائرين ، وأشد المطالبين بالحرية لهذا الوطن .

وقد كان لاحتلال الأجنبي لبلاده أثره في ذلك ، والفلاح المصرى ، لم يكن يشعر ، أثناء سيطرة الأجنبي على بلاده بأن لوطنه شخصيته ، وبأنه مطالب بأن يكون جندياً حامياً لبلاده واستقلالها وحريتها ، وهذا هو سر ما شاهدناه في الماضي من نفور الفلاح ، من الخدمة العسكرية .

لقد كان الأجنبي ، يحكم بلاده ، ويلغي شخصيتها ، وكانت القوانين تبغض المواطنين في حياة الجندية ، نظراً لصرامتها ، وقسوتها ، وكان الانتساب إلى الوطن لا يثير في نفس المصرى من الشعور ، ما يثيره في البلاد المستقلة .

ومع هذا ، فقد كان المصرى الفلاح ، جندياً شجاعا ، حارب في جيش مصر ، أيام محمد على وابراهيم وأحرز النصر في أعظم المعارك وسجل لبلاده أعظم الفخار .

والآن ، إذ تعدل قوانين الجيش ، وينال الجندى شيئاً من الرعاية ، نجد النفور من الجندية ، تضيق دائرته ، والوعى الوطنى ينتشر بين الأهالى فلا ينفرون من الجندية كما كان الحال قبلا .

لقد نادى المصلحون والمفكرون ، منذ زمن غير قليل ، بإصلاح قوانين الجيش ، وبجعل الجندية وسيلة من وسائل التربية والتهذيب والتعليم ، لكن أصواتهم كانت تضيع خلال العهود البائدة ، وتذهب أدراج الرياح ، والآن يأخذ الحال في التغير والتحسن ، فالجندى يعامل خيرا مما كان يعامل ، ولهذا أصبحت الجندية في نظر الفلاح غير ما كانت ، بل لقد أصبح يرحب بها ويتحمس لها ، إذ يتعود النظام والنظافة ، والاعتداد بالنفس وتغيره حياة الجيش في صحته ، واكتمال شخصيته . وحينما يخرج من الجندية ، بعد قضاء خمس سنوات ، يخرج وقد ارتفع مستواه الصحى والأخلاقى وتعلم كثيرا من شئون الحياة .

وهو حين يجند ، لا ينسى قريته ولا أهله ورفاقه المقيمين بها ، بل يظل حنينه إليها ، واشتياقه للعودة إلى ربوعها ، وحينما يكتب لأهله ورفاقه ، تحمل خطاباته التى يمليها أو يكتبها ، صورة الحنين إلى الموطن ونغمة الشوق إلى مسقط الرأس .

والقرى تشعر بعاطفة التضامن كأقوى ما يكون التضامن ، حينما تكون ثروتها

الحيوية فى خطر مباشر ، حينئذ يندفع الجميع بلا تفكير ، وبلا تردد ، ويتقدمون ، يدا واحدة ، وقلبا واحدا ، للدفاع عن قريتهم ، لا فرق بين الرجال والنساء والأطفال ، مهما أصابهم فى سبيل ذلك .

وبهذه المناسبة ، نذكر ما حدث فى عام ١٩٣٦ ، فى قرية أبو شادى ، فقد أرادت مصلحة الرى ، أن تحسن حالة الرى هناك ، وشرعت فى تحويل قناة كانت البلد تروى منها أرضها طيلة ثلاثين سنة . فتجمع الأهالى ومنعوا العمال ، وقاوموا الشرطة والجيش ، وقامت بينهم وبين قوات الحكومة معركة حامية ، برزت النساء خلالها ، بين الصفوف يثرن حماسة الرجال كما يحدث فى الحروب ، وتجمع الأطفال يحملون الذخيرة ، فكان ذلك فنا عسكريا مرتجلا .

وحينما يتمادى أحد المرابين أو الملاك ، أو نظار العزب فى ظلم الفلاحين واستغلالهم ، ولا تجد القرية طريقا للتخلص منه إلا بقتله ، لا يجد المحققون من يتقدم للشهادة ضد القاتل ، ولا يجدى البحث للكشف عن القاتل ، لأن القرية حينئذ تجمع إجماعاً تاماً على الإنكار ، وكذلك تقف القرية صفاً واحداً حينما تعتدى قرية أخرى عليها ، فهى تقف فى النزاع متضامنة متماسكة ، لتواجه تحدى القرية المجاورة ، ولتكف اعتداءها ، مهما كانت صورة الاعتداء أو التحدى ، وقد كان يكثر فى الماضى حدوث المعارك ووقوع التعديات بين القرى وحدوث القتل فيها ، غير أن يقظة البوليس الآن ، حصرت هذه الحوادث ، وقضت عليها .

لكن يحدث مع هذا ، أن يقع الانقسام بين أبناء القرية ، وعائلاتها ، فتثور المنازعات والحزازات ، وتتولد الضغائن والأحقاد ، التى قد تطول ، وتتسلسل ، ويرثها الأبناء عن الآباء .

وبينما القرية ، فى حالتها العادية ، تسودها المحبة ، ويرفرف عليها السلام ، ويتعاون أبناؤها ويتحابون فالرجال فى الحقـــول يتبادلون المساعدات ، والخدمات ، والنساء يتعاون فى أعمال البيوت . ويؤلف الفقر والحاجة بين الأفراد ، ويتطوع كل منهم للمساهمة فى المصالح العامة للقرية ، تنشأ هناك فى بعض الأحيان أسباب للنزاع وتكون هذه الأسباب نزاعاً على ملكية الأرض

أو خلافاً وشجاراً بسبب النساء والأطفال ، أو للتحزب بسبب العمدية هنالك يثور النزاع ، ويأخذ صوراً حادة ، وتقع المصادمات الدموية التى تخلف الثأر وتولد الضغائن من جيل إلى جيل ، تهدأ أحياناً لتثور من جديد لأسباب تافهة مثل نقل حد ، أو سرقة سماد ، أو تسرب جاموسة إلى الحقل المجاور ، إذ ذاك تصبح الحياة البشرية لا قيمة لها ، ويقع القتل بلا حساب ، وإذا كان فى القرية عنصر عربى يمتزج بالفلاحين صارت الكارثة أفدح والشر أعظم ، ويعيش الأهالى فى حالة لا أمن معها ، وحين تغيب الشمس تسود الريبة والحذر ، وتشتد الحيطة ، والقلق ، والتربص خوف مباغتة العدو ، ويضاعف كل واحد حراسة ماشيته ويحكم قفل زريبته ، وتتجمع الأسر خلف الأبواب المحكمة الغلق ، ويسهر الرجال فى حقولهم حذرين ، مسلحين خوف الاعتداء على زراعاتهم ، وبقدر تكاثف الظلام يسمع نباح الكلاب ، وتدوى طلقات البنادق ، لا بنادق الخفراء وحراس الأمن ، بل بنادق الفلاحين غير المرخصة ، وأيام جنى المحاصيل ، يكون الحذر أشد ، والتوتر أعنف .

حدث فى سنة ١٩٣٦ فى قرية « قلندول » بسبب الترشيح لعمدية البلدة انقسام بين أهل البلدة انحاز فيه قسم من الأهالى لأحد المرشحين ، وهو محمود بكير ، وانحاز القسم الآخر للمرشح الثانى وهو على عباس ، واستمرت المناوشات بين الفريقين ، ووقع القتل من الجانبين ، ثم تطور إلى مصادمات أشد عنفاً ، حيث انحاز كل من الفريقين إلى ناحية ، وتحصن بالجبل ، وصمم كل منهما على إبادة الفريق الآخر . . . وكانت مهمة البوليس شاقة فى فض النزاع ، وإعادة الأمن والنظام .

وفى بعض قرى الصعيد فى مديريتى قنا وأسوان ، تشاهد بعض مظاهر التعصب ، ولا تزال روح الكراهية ، وحب الانتقام ، تطل وتختفى بين العصبيات والطوائف ، من حين إلى آخر ، والأهالى هناك يعيشون بين الحذر والثقة بعضهم مع بعض .

وأكثر ما يكون النزاع هناك بسبب الأرض ، إذ هى أهم أسباب الوفاق والخلاف والبغض والكره بينهم .

والتأثر بالمصلحة المشتركة ، وحب الجماعة ، وروح الإيثار والمحبة ليس لشىء

من ذلك كبير شأن عندهم ولذلك تفقد القرية مزاياها ، وتبدو عند التدقيق ، وتسديد النظر ، فى صورة جماعات مكدسة ، غير مترابطة ، وليست كياناً اجتماعياً ، أو وحدة إنسانية بالمعنى السليم . »

واتحاد نوع المعيشة ، ودواعى المعاشرة والمعاونة عاجزة عن أن تخلق منها مجتمعاً إنسانياً تربطه أواصر التعارف والمحبة ولا بد لخلق مجتمع القرية من العمل على إنشاء أواصر وروابط إنسانية ، وخلق حياة روحية ، أو وجود شخصيات تكون لها قوة روحية ، وميزات إنسانية تحمل الناس على احترامها ، والاعتراف بزعامتها والفلاح بالاختصار يتصف بضعف الشخصية وعدم الميل إلى الاجتماع ، وإيثار مصلحته الخاصة على المصلحة العامة ، وقد أدى هذا التفكك بين عناصر القرية إلى بقائها متأخرة ، فقيرة ، لا تنهض فيها مشروعات عامة ، ولا تقوم فيها مثل ، وأهداف سامية ، ولا يشملها تنظيم مادى أو معنوى ، ولم تهتم الحكومات المتعاقبة ، ولا البرلمانات المتتالية بهذه الحال ، وكأنما وجدت دوام الأمور على هذه الصورة من مصلحتها ، إذ تظل القرية غارقة فى جهلها وتأخرها ، يسهل استغلالها وتسخيرها . . .

الفصل السابع

مسكن الفلاح ومعيشته

كتب «سائح فرنسى» زار مصر ، وشاهد قراها فى سنة ١٩٣٢ :

« رأيت أشد قرى المانش الأسبانى فقراً ومساكن أهل الرأس الأخضر » وأخصاص اللانداس المتوحشين فى أعماق أنجولا ، فلم أجد بؤساً كالبؤس الذى وجدته فى قرى مصر » .

وكتب « بوزالك » :

« إن مساكن الفلاحين فى مصر ليست أشد تأخراً من المساكن الحجرية أو الطينية الحقيرة المغطاة بالحشائش اليابسة التى لا تزال موجودة ، على نطاق واسع فى أوروبا ، وعلى أى حال ليست القرى فى مصر أسوأ حالا منها فى تونس والجزائر » .

أى هذين الرأيين نصدق ، وعلى أيهما نعول ؟ ربما كان لكل منهما ، وجهة نظر ، أو اعتبار بنى عليه تقديره ، ويبدو لنا أن التشبيه ، والأشياء ليست متساوية يحتوى هنا على مبدأ الخطأ .

ونحن نفضل ألا نعتمد على هذه الآراء المتضاربة ، والمبنية على إحساسات وتقديرات متعارضة .

ولنصف هذه المساكن بحالتها ، وبما بداخلها من مستوى حياة سكانها ، وحالة معيشتهم ، وسنلاحظ بأنفسنا مقدار التشابه والتقارب بينها وبين المستوى الذى يعيش فيه سكانها ، وستشرح لنا هذه المساكن شدة إلتصاقهم بالأرض وإنغماسهم فيها ، ومشابهتهم لها .

لقد كنا قبل ذلك ، نصف القرية فى شكلها العام ، أما الآن فلندرسها داخل مساكنها ، وندع منزل المالك الفخم ومقر العمدة .

تبنى المنازل الحجرية ، فى القرى الملاصقة لحدود الصحراء (فى مصر العليا) ، إذ يسهل القرب من الصخور على الفلاح ، نقلها ، واستعمالها فى البناء ، أما السقوف فكثير منها تكون معقودة ، ومبنية من الحجارة على هيئة القباب (مديرية أسوان) أما فيما عدا ذلك ، فالبيوت فى الوجه البحرى ، على الأخص ، تبنى غالباً من الطوب الأحمر ، الذى يحرق فى الأفران بعد صنعه ، وهى أكثر تكلفة من المنازل الحجرية .

والمنازل المنظمة ، فى العزب النموذجية ، كمنازل الخاصة الملكية ، وممتلكات الجمعية الزراعية ، وبعض كبار الملاك .

وهناك مساكن تبنى من الطين ، والسعف ، والصفيح ، وبقايا الأوانى الخزفية المحطمة ، وفروع الأشجار ، وجريد النخل ، ويسكنها جماعات من أنصاف الرحل ، ومن المتنقلين الباحثين عن المأوى . وأكواخ الزراعة (الزرابى) وهى أعشاش ، معروشة بحطب الذرة والقصب ، قائمة وسط الحقول ، وهى لا تعمر طويلا . بل تعيش فصلا واحداً من فصول الزراعة ، ثم تقضى عليها الرياح .

لنأخذ المثال الوسط ، الذى يمثل ٩٢٪ من المنازل القروية :

هذا المنزل ، مبنى من الطين ، أى من الطوب الأخضر ، وهو منزل بدون طراز ، وبدون عصر ، أو نمط ، وهو يمثل وحدة جميع القرى الريفية ، وثبات طابعها .

وتتراص المنازل على جانبى الحارات الضيقة وواجهاتها تتراوح بين ٥ أمتار وعشرة ، وارتفاعها من مترين ونصف إلى خمسة أمتار حينما يكون المنزل من طابقين .

ويبدو منظر الحى قديماً كقدم القرية ، والمنازل ذات لون رمادى ، وقد ظهر عليها القدم ، وأثر المطر والرياح ، وحرارة الشمس . وما قد يكون حدث من الحرائق وذلك لأن مادة البناء ضعيفة ، قليلة التحمل ، عرضة للتقادم السريع ، وقد جددت ورممت عدة مرات فى المدة التى تقضت من عمرها القصير ...

* * *

أن الصلة التى تربط الفلاح بالأرض ، والطابع البارز الذى تتركه فى حياة الفلاح ، وطرق معيشته ، وأسلوب عمله ، هذا كله يبرز لنا كصورة عامة ، ويشير إلى الجملة المعروفة « المادة تعطى الصورة » .

تبنى الحوائط بسمك يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ سنتمتر وتكون من طوب يصنع من طمى النهر مخلوطاً بالتبن ، ويعجن بشدة ، ثم يصب فى قالب مربع الشكل فينتج طوبة متينة حجمها ٢٢ سم فى ارتفاع خمسة فى عرض عشرة ، ومن هذه الطينة ، تكون أيضاً مادة إلصاق الطوب وتشييد البناء .

وإذا كان الفلاح ذا سعة ويسار يبنيه على أساس من طوب أحمر أو من حجر لكى يكون أكثر صلابة ومقاومة للرطوبة وأملاح الأرض .

ولكى تكون الحوائط أكثر متانة ، وأفضل وفاء بالغرض ، من التهوية والتجفيف تحتوى على فتحات قليلة ضيقة وهى : باب ارتفاعه متر و ٧٥ س م ، وعرضه متر تقريباً ، يرتفع أسفله عن أرض الشارع ، بعشرة سنتيمترات ونافذة أو نافذتان صغيرتان (٣٠ × ٢٠ سم) ومنها ومن الباب يكون الاتصال بالجو الخارجى ، والتقليل من الفتحات هو أكثر ، فى نظر الفلاح أو من يبنون له ، وقاية وأحكم بناء ، يضاف إلى ذلك الاقتصاد فى الأخشاب لغلاء أثمانها ، إذ الغابات فى مصر قليلة ، والنخل والجميز والسنط لا يكفى ما يوجد منها لأكثر من تظليل بعض الجهات ، ولا يوجد منها فائض يكفى لاستخدامه فى المبانى . وصنع الأبواب والنوافذ وغير ذلك .

نعم تستخدم جذوع النخل ، فى بعض الجهات لإقامة السقوف ، ولكن الفلاح يقتصد فيها أشد الاقتصاد ، لأن النخلة الواحدة تدر عليه إيراداً يبلغ مائة قرش فى العام ، من ثمن البلح والليف والسعف .

والخشب الوارد من فنلاندا ، والسويد ، ورومانيا ، وروسيا ، والذى يستخدمه سكان المدن ، يتجاوز ثمنه طاقة الفلاح الصغير عادة ولذلك تكون الأبواب والنوافذ التى يصنعها الفلاحون لبيوتهم ، بدون خشب ، أو زجاج أو إطارات فى معظم الأحيان .

ولكن السقوف لا يستغنى عنها ، مهما كلف ثمنها ، إلا فى حالات نادرة ، فى بعض بلاد الوجه القبلى ، لعدم نزول الأمطار فيها .

وفيما عدا هذا ، تعرش السقوف بجذوع الأشجار ، وتوضع فوقها طبقة من حطب القطن ، أو الذرة ، أو سعف النخيل تغطى بطبقة من الملاط ، فوق حصيرة وطبقة من الرماد لكى يكون السقف أكثر متانة ، وأقوى على تحمل الأمطار ويتوصل إلى هذا السقف بسلم خشبي ، أو سلم مبنى بالطين ، والحاجة إلى سطح المنزل مستمرة ، إذ هو مستودع الأدوات والأمتعة ، وصناديق الحبوب ، والوقود وكذلك الطيور فى كثير من الأحيان .

والفلاحون يضعون الأحطاب والقش ، والوقود على أسطح المنازل ، وهى عادة ضارة تؤدى ، بسبب تلاصق البيوت وانخفاضها ، وضيق الأزقة لازدياد خطر الحرائق ، التى قد يمتد لهيبها حتى يشمل القرية بأجمعها ، إن لم تتداركها الأيدى ، وتسعفها المطافىء ، وتتغلب عليها . وهذه الحرائق من بلايا الريف المصرى .

وقد دمرت الحرائق بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٣٠ ستا وستين قرية ، وفى كل عام تسجل إدارة الأمن العام بسبب هذه الحرائق خسائر مرعبة .

ولكى نعطى القارىء صورة عما تحدث هذه الحرائق نسرد له أربع حرائق حدثت أخيراً :

ففى ١٤ يناير سنة ١٩٣٦ ، فى قرية ميت يعيش التابعة لمركز ميت غمر ، دمر الحريق ٩٤ منزلا وأصبح مئات من القرويين بدون مأوى .

وفى ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ ، فى بلدة العويسجة ، بمركز ههيا ، دمر الحريق ٤٣ منزلا تدميرا تاما ، وصيرها رمادا ، بجميع ما كان فيها من حيوانات وطيور ، وأمتعة وأقوات وقد حدث الحريق بسبب شرارة من منزل إحدى القرويات ، أشعلت ما كان على السطح من قش وأحطاب ، واتصل اللهب بالمنازل المجاورة ، بسبب هبوب الريح وتلاصق المنازل .

وفى ٥ مايو سنة ١٩٣٧ شب حريق فى بكتوش من بلاد مركز دسوق بمديرية

الغربية دمر ٤٠٠ منزل تدميرا تاما ، وأتى اللهب على ١٤ شخصا ، وأنقذ ١٣ إصاباتهم خطيرة .

وفى ١٤ يناير سنة ١٩٤١ شب حريق فى قرية الدير مركز طوخ فدمر ٢١٧ منزلا ، وتوفى بسببه ٢٠ وأحرق غلات ومواشى وقذف بأربعمائة أسرة إلى التعاسة ، وهذا الحريق نشأ عن خطأ سببته امرأة كانت توقد النار على سطح منزلها .

نعم . هناك قانون أصدرته الحكومة لمنع تكديس الوقود فوق أسطح المنازل ، وهناك لجنة لمقاومة الحرائق فى الأرياف ، لكن هذا القانون ، وتلك اللجنة ، لم يؤديا عملا يذكر ، لتحقيق ما أنشئا من أجله ، وظلت الحال كما كانت عليه .

والفلاح يحرص على أن تنام معه مواشيه ، لأنه لو تركها فى الخارج ، تكون عرضة للسرقة .

ومنازل الفلاحين من الداخل ، مظلمة ، قليلة الضوء ، تنبعث منها الرائحة الكريهة ، وتعشش فيها الحشرات ، ومسكن الفلاح عبارة عن حجرة واحدة ، عرضها ٥ أمتار أو ستة فى ثلاثة أمتار .

وقد لاحظت أثناء زيارة لى لإحدى القرى ، قلة المنازل ذات الأبواب ورأيت هذه المنازل عبارة عن جحور مربعة الشكل كل منها له فتحة واحدة بدون باب ، وكل مافى داخلها من أثاث هو تنور ، وجرة وحلة نحاسية ، وقلة ، وطبق ، وفى بعض المنازل ، يمد حبل فى زاوية الحجرة بين الحائطين لتعلق عليه الملابس ، فيكون بديلا من الخزانة الخشبية ، وفى بعض تلك الدور يكون السقف شديد الانخفاض إلى درجة تضطر الواقف فيه لإحناء جسمه .

غير أن المنازل ذات الحجرتين أو الثلاث حجر ، هى الأكثرية ، وهذا لحسن الحظ ، وهى تتكون من :

أولا :- قاعة (مندرة) بها مصطبة تصلح للجلوس وللنوم ، يستقبل فيها الضيوف ، وتقدم إليهم للنوم حينما يبيتون عند صاحب المنزل .

ثانيا . حجرة النوم والطهى فى إحدى زواياها الفرن ، وسطحه مستو ينام فوقه من يشاء ـ والدخان يتسرب من الحجرة ، إذ ليس للحجرة مداخن يمر منها .

ثالثاً : وفى الداخل - بعد هذا - مما يلى حوش الدار ، توجد زريبة المواشى وهى مغطاة إلى نصفها ، والنصف الآخر مكشوف لكى يسمح بدخول الشمس والهواء بكمية تكفى لتطهيرها وتجفيفها بالمقدار الضرورى .

لكن هذا التقسيم والتخصيص الذى بيناه ليس دقيقا ، فقد تستخدم القاعة كحظيرة أو حجرة نوم كما تستخدم الحظيرة حجرة للنوم صيفا .

والدجاج يقطن فى كل موضع بالمنزل والحمام يعشش فى ثقوب الحوائط أو فى صفائح متراصة .

وفى القرى التى بها أقليات كبيرة ، أو أكثريات ، من الأقباط تربى أسراب من الخنازير تبنى لها أسوار بعيدة عن المساكن . وهم يربونها لكى يبيعونها للقصابين الأوروبيين .

ولا ننس صديق الفلاح وحارس ثروته وهو كلبه الأمين .

وأرضية المنزل مرصوفة بطبقة من التراب المضغوط ، والأثاث يوضع بالمنزل ، بعد ذلك ، حيثما اتفق ، فيوضع موقد البترول ، وقدرة أو قدرتان نحاسيتان وطبلية خشبية ، مستديرة الشكل ، قطرها متر ، وارتفاعها نحو ٤٠ سنتيمتر ، وفراش للنوم من حصير وأغطية وملاحف قديمة وبطاطين ، أو أكياس من خيش ، وأحيانا تكون هناك أسرة من سعف النخل ، تشبه أقفاص الطيور .

ومن أدوات المنزل : « الطشت » وهو يستعمل لغسل الملابس ، وللاستحمام ، ومرآة صغيرة ، وصندوق خشبى ، يكدس فيه كل شىء ، وهو هدية الزواج ، والألوان الصارخة التى صبغ بها ، تشير إلى يوم مرح .

وهكذا تنطق هذه الدلائل ، والمظاهر بأن الفلاح يعيش ، على صلة قريبة من الأرض والشمس والماء داخل منزله .

وعن طريق المواد البنائية ، والأرضية وتطامن المبانى ، وقربها من الأرض ، يتصل المنزل بالأرض ، كما ينغمس فيها الفلاح ، بعمله وطعامه ، وأمراضه ، وموته:

منزل ليس به شىء من ضروريات المعيشة ، ولا نقول معدات الراحة ، لأن الفلاح يعيش فى الخارج ، فليس المنزل بالنسبة له أكثر من مأوى مؤقت : ينطرح

فيه وقت النوم ، مستغنياً عن الأثاث ، أو مستودعا ،أو عنبرا فى ذلك المعسكر الكبير الذى هو القرية .وتشابه فى المساكن . إذ الفلاح لاشخصية له . وليس له من المميزات مايخرجه عن كونه رقما فى المجموع ، وأسرته مثله ، تمثل السلبية والتفاهة .

والمنزل ليس به مخزن ، تخزن فيه حاصلات الزراعة ، لأن صاحبه أجير يعمل لحساب غيره فهو لايمتلك شيئا من خيرات الأرض .

ولكن هذا المسكن المحروم من جميع العناصر التى نعتبرها نحن أساسية ، يجده الساكن ملائما له ، ولحاجاته القليلة ، وهو ، حين يقيم فى مسكن من مساكن العزب النموذجية ، التى أعدت على نظام حسن ، يحوله طبق عاداته ومشاربه ، تحويلا يشوهه ويفسد نظامه ، لأنه لايفهم إلا ما ألفه ، وتعوده ، من الفوضى وسوء النظام .

والعزب ، بمنازلها ، مملوكة لملاكها ، فالفلاح يسكن مجانا ، فى غير ملكه ، أما فى القرية ، فهو يملك المنزل الذى يعيش فيه .

وأسرة الفلاح تتألف عادة ، منه ومن زوجته ، وأربعة أو خمسة من الأبناء ومن أبيه وأمه اللذين يعيشان معه ، فى بعض الأحيان .

وحينما يبلغ الإبن سن الزواج ، أو تدرك الإبنة سن البلوغ ، تتفق الأسرتان على المصاهرة ، ويعقد للزوجين ، ثم تزف الزوجة إلى زوجها ، ليكون الإثنان أسرة جديدة ، وحينما يتزوج الإبن ، يظل مع أبويه ، ويشاركهما الحياة والعمل فى الحقل ، فإذا شب الأخوة الآخرون وكبروا تزوجوا مثله ، وحينئذ ينفصل عن الأسرة ، ويكون لنفسه حياة مستقلة .

وتختلف عادات الزواج فى الأرياف ، بحسب اختلاف الأقاليم وعاداتها ، وإن كانت القواعد العامة هى ، إجراء العقد ، وإعلانه ، حسب قواعد الشريعة ، واجتماع أهل العروسين ، وأصدقاء الأسرتين فى حفل الزفاف ، للتهنئة والمشاركة فى الابتهاج ، وما عدا ذلك من التفاصيل ، يختلف من قرية لأخرى ، ومن إقليم لإقليم ، وهى كلها

تتسم بطابع البداوة ، وتنم عن تأصل بعض العادات الموروثة ، أو الخـــرافات والأوهام الساذجة .

وتزف العروس إلى زوجها ، فى موكب تنطلق فيه زغاريد النساء ، وطلقات بنادق الرجال .

وعادات الإسراف فى نفقات الزواج متأصلة عند الفلاح ، وهى مصدر لمتاعبه .

ويهتم القرويون بإنجاب الأطفال ، والزواج الذى لا يعقبه إنجاب الأطفال يعد زواجا فاشلا ، يترتب عليه ، إما المشاحنات ثم الطلاق ، وأما الزواج من أخرى ، وهنا تكون الغيرة النسوية ، والنفور بين الزوجات ، وغير ذلك من المشاكل .

والطلاق ، وتعدد الزوجات ، من المشاكل المزمنة عند الفلاحين .

وتأتى بعد ذلك ، فترة من المعاشرة ، والحياة المشتركة ، والعمل الشاق ، ومسئوليات المعيشة ، وتربية الأطفال ، تستقر بعدها الحياة العائلية ، وتثبت فيها أواصر الأسرة والبيت .

وهنا مناسبة عابرة للكلام عن الحب ، فى صورته الكاملة ، التى تستتبع التضحية ، والوفاء ، والمشاعر والعواطف السامية .

الواقع أن الفلاح إنسان كغيره ، لا يخلو من العواطف السامية ، لكن يجب أن يقال ، أن حياته الخشنة ، وعاداته الجامدة ، ومفاهيمه الخاطئة ، كل ذلك ، يجعل حبه ، وتعلقه بالمرأة ، يكتسى صورة مادية ، إن لم نقل حيوانية أو شهوانية ، فهو يحب أو لا يحب ، يشعر أو لا يشعر ، فى إطار مفاهيمه ، وعاداته ، وقيوده وتقاليده ، وتتطلب تقاليد القرية ، وظروفها المادية والمعنوية ، اتصالا محدوداً بين الجنسين ، ومثل هذا الاختلاط المحدود ، مع دواعى الطبيعة ومستلزمات التكوين البشرى ، حياة مختلطة محكومة بالعرف ، والعقيدة الدينية .

والفلاح بطبيعته محافظ ، شديد الغيرة ، ولهذا قل أن يفهم الحب إلا بمعناه المادى وفى حدود قوانينه وشرائعه ، ويندر أن يخرج عن هذه القوانين ، وإلا فالقرية لا تتساهل ، والدم وحده هو الذى يغسل العار ويمحو الجريمة .

وفى سن الثلاثين ، أى بعد نحو خمسة عشر عاماً من زواج الفتاة ، تبدأ الزوجة تفقد فتنتها ، ولكن الأبناء الذين أنجبتهم يربطونها بالزوج ويربطونه بها ، والقرويون شديدو المحبة لأبنائهم ، يضحون براحتهم من أجل تربيتهم وإسعادهم ، وهكذا تكتمل للزوجة أمومتها وشخصيتها الاجتماعية ، كربة بيت ، وسيدة محترمة ، ويتم للأب سروره ، برؤية أبنائه حوله ، يكبرون ويعاونونه ، ويتمتع بينهم بسلطة الآمر الناهى .

وهكذا كان النسل عندهم كثيراً ، فعدد الأبناء عادة يكون خمسة فى المتوسط إذ يتكرر الحمل ثمان مرات أو عشر ، يعيش منهم خمسة .

ونكرر أن المرأة ، تكتسب من الاحترام وكمال الشخصية . بقدر ما تنجب من الأطفال وتوفق فى إدارة المنزل ، والمحافظة على مصالح الأسرة . وبعض الفلاحات يضرب بهن المثل فى حسن تربية أبنائهن ، وتنشئتهم حتى يكونوا رجالا بين أقاربهم وأهل قريتهم ، وذلك حين يحرمهم الموت من رعاية آبائهم وهم فى سن صغيرة .

وتقوم الزوجة الفلاحة ، بطحن الحبوب وعجن الدقيق وخبزه ، وبتقديم العلف للماشية . وحلب الجاموسة ، وتربية الدجاج وإعداد السماد والوقود ، وإصلاح الملابس وغسلها الخ .

والقروية تخرج سافرة ، تذهب وتجىء فى القرية ، فى حدود التقاليد القروية ، فهى لا تختبىء من الرجال كالسيدات المحجبات ، وعليها أن تحمل الطعام إلى زوجها فى الحقل ، وأن تذهب لإحضار الماء عدة مرات فى اليوم ، وأن تذهب كذلك إلى السوق لتبيع البيض والزبدة ، وتشترى الزيت وغيره .

والحجاب هنا يتخلى عن مكانه ، والتقاليد تتراجع عن شدتها وصرامتها .

والأثاث الذى اشترته الزوجة يوم زفافها ، هو بطبيعة الحال ملك للزوجة .

وحينما ينشأ بين الزوجين ما يدعو للخلاف تذهب الزوجة إلى منزل والدها ، وحينما يطلب الزوج الصلح ، تطلب الزوجة أن يشترى لها الزوج من الحلى أو الثياب

الثمينة ، ما يجعلها ، تقبل الصلح ، والعودة إلى منزله ، والزوج دائماً ، أحوج للصلح من الزوجة . . .

وجرائم القتل بسبب العرض ، لا تزال مألوفة إلى حد كبير . حدث أن علم محمود عبد الله من أهالى إحدى القرى بمركز نجع حمادى ، بانحراف أخت له ، مات عنها زوجها وأنها على صلة غير مشروعة بأحد الأهالى ، فما كان أسرع من أن ذهب إلى منزلها ، وقتلها علنا ، وقدم نفسه ، والآلة التى استخدمها فى القتل لرجال النيابة ، واعترف فوراً بقتل إأخته مصرحا بأنه أراد بذلك القتل ، تطهير شرفه وشرف أسرته من العار .

ومن التقاليد الريفية المعهودة ، أن يظهر الزوج سيادته فى المنزل ، وأن يفرض على الزوجة والأبناء هيبة تبلغ درجة الخوف والرهبة ، دون سبب يدعو لذلك ، وأن ينادى زوجته ، لا باسمها ، بل بكلمة (بنت) وأن يتصنع الجد والوقار حيث لا داعى لها ، وهى تقاليد ريفية لا حيلة فيها ، لتأصلها ورسوخها ،

والمنزل الريفى ، رغم هذا ، مستقر ، هادىء على العموم ، والأسرة الريفية تحرص على العادات الحسنة ، وتتبادل المحبة ، ويسودها الصفاء ،

حدث أحد الفلاحين قال :

أن زوجتى أنجبت لى عشرة أولاد ، ليس بينهم واحد أحول أو أعمى ، يحيطون بى فأحس بالسعادة وبفضل أمهم ، تربوا على الاستقامة ، وحسن الخلق ، ربتهم فأحسنت تربيتهم ، محافظة على نظافتهم وصحتهم ، وكانت توصيهم دائما ، أن يقبلوا يدى عند رجوعى من الحقل ، أو ن يقفوا عند دخولى وألا يدخنوا أمامى .

والأم الفلاحة ، سهلة الحمل والوضع ، تعرف كيف تحافظ على صحتها أثناء الحمل ، وكيف تضع مولودها وتحافظ عليه ، وذلك لكثرة حملها وولادتها ، فهى تكون أما من الرابعة عشرة إلى الخامسة والأربعين .

وهى تجلس حين ولادتها ، على طريقة المصريات الفرعونيات ولا تتعسر ولادتها إلا فى أحيان قليلة ،

لكن هذا لا يمنع من اتخاذ الاحتياطات والإجراءات . لضمان سلامة الأم ووليدها ، والمحافظة على صحتهما . ومن هذه الاحتياطات . ما يستدعى الاهتمام أكثر من غيره ، وهو ما كان من قبيل السحر والرقى .

والأم تعتقد أن جميع ما سيقع عليه نظرها ، أثناء الحمل ، سيكون له أثره فى الجنين ، وسيظهر بعد الولادة ، فهى لذلك ، تتجنب إطالة النظر ، إلى الوجوه الدميمة ، وتتعمد إطالة النظر إلى صور ذوى الوجوه الجميلة من الرجال ، وهى أيضاً تحرص على ألا يفوتها ، بحال من الأحوال ، أكل ما تشتهيه نفسها أثناء الحمل ، فهى تسعى إلى الحصول عليه . والأكل منه . مهما كلفها السعى ، وذلك خوف أن يؤثر عدم الأكل منه على المولود الذى سيولد .

ولا يسمح باستحمام الطفل قبل مضى أسبوع على يوم ولادته ، وتتولى القابلة ذلك ،

وحينما يتلقى الوالد نبأ ولادة ابن له يكون ذلك من أيام سعادته ، وللمبشر به هبة طيبة تدفع عن رضى وسرور .

ومن العادات الكثيرة الشيوع . أن تعلق التمائم والتعاويذ على صدر الطفل ، بعد الولادة .

وحينما ينتهى أسبوع على الولادة ، تكون الأم قد استردت عافيتها ، وحينئذ تتهيأ للخروج ومغادرة المنزل .

وحينما تعمل الفلاحة فى الحقل ، تترك وليدها على الأرض . أو وسط الزراعة تحت ظل شجرة ، أو مجموعة من أعواد الذرة القائمة . يتدحرج ويلتقط طين الأرض فى فمه ، ويصيح وينام ويصحو .

وحينما يبلغ الطفل الخامسة من عمره ويكون قد ألف رؤية المواشى داخل المنزل ، يبدأ بالاشتغال برعيها وقيادتها إلى الحقل والمسقى ، ويتعود الركوب فوق ظهرها ، والجلوس أمام الساقية أثناء دورانها ، لكى يصيح على البقرة إذا كفت عن السير ، ويلوح لها بالعصا ليحملها على الدوران ، واستئناف السير . ويساعد أباه وأمه فى جنى القطن.

وغير ذلك وفيما بين ذلك ، يجد أوقاتا للعب واللهو مع الأطفال فى القرية بينما يكون الرجال فى المزارع ، مشغولين بالعمل فيها ، والنساء مشغولات بأعمال المنازل ، من عجن وخبز وإعداد طعام الخ . أو فى القنوات لغسل الملابس والأوانى .

إذ ذاك تخلو القرية وأزقتها للأطفال يلعبون فى طرقاتها ، أو يذهبون إلى البرك ، للاغتسال فى مياهها الراكدة ، عرايا الأجسام تبرز بطونهم الكبيرة المستديرة .

وفى سن السابعة تجرى عملية الختان وتعتبر مرحلة انتقال فى عمر الصبى إذ يدخل بعدها مرحلة الشباب. ويعامل معاملة الشبان ، ويلتحق بالمدرسة الإلزامية ، إذ الواجب إلحاقه بها ، إن لم يكن لشعور أهله بضرورة تعليمه ، فللخوف من العقوبة التى فرضها القانون على كل من لا يرسلون بأبنائهم إلى هذه المدارس فى تلك السن ، وهذه العقوبة هى غرامة ٢٥ قرشاً وإذا تكررت المخالفة تكون خمسين قرشاً .

ونسبة الأميين بين الفلاحين ٩٥ ٪ وهو عار لاصق بالبلاد ، تسعى الحكومة جادة لمحوه من سجل حياتها . وقد نص دستور سنة ١٩٢٣ على وجوب التعليم الإلزامى ولكن لم يبدأ فى تنفيذ العمل بهذا النص إلا فى سنة ١٩٣٥ ،

والآن تعددت المدارس فى البلاد ، وأصبحت القرى التى لم تر المربى والمدرس فى حياتها ، ترى المدرسين والمربين الذين يقومون بتعليم أبنائها ، وهكذا سيكون عدد المدارس الإلزامية المجانية فى سنة ١٩٤٦ : ٤٦٠٠ مدرسة ، وسوف يتلقى جميع أبناء الفلاحين تعليمهم ، ولكن الأهالى الذين لم يتهيئوا بعد لهذه المرحلة الجديدة فى حياتهم ، ربما وجدوا هذا الإلزام صعباً عليهم ، وودوا لو أن أولادهم بقوا بجانبهم ، يعاونونهم فى أعمال الزراعة ، أو ظلوا مطلقى الحرية ، لكى يستطيعوا العمل فى الحقول ، والحصول على أجر يساعدون به ذويهم . ولا تزال الكتاتيب ، فى بعض القرى ، كما كانت منذ زمن والفقيه الأعمى يجلس وحوله الصبية ، لتحفيظهم القرآن ، يعاونه « العريف » وهو صبى من بينهم ، يتقدمهم فى السن ، ويعرف القراءة والكتابة ، يتولى تعليم الأطفال الكتابة والقراءة ، وأجر الفقيه الذى يتقاضاه للقيام بعمله ، بضعة أرغفة فى الأسبوع عن كل غلام .

الفلاحه تحسن تدبير منزلها

والآن تتعلم البنات الصغيرات ، فيذهبن إلى المدرسة بعد الظهر ، أما قبل الظهر فى الصباح فيبقين فى المنزل لمساعدة أمهاتهن .

وأعمال المنزل التى تحتاج فيها الأمهات لمساعدة بناتهن لا تخرج عن ملء الجرار من النهر ، وجمع الأحطاب للوقود ، وصنع «الجلة» من روث الأبقار ، وما شابه ذلك .

والطفولة هنا ، فى الريف ، مضيعة لا تلقى من يعنى بها أو يرعاها، وحسب الأطفال الصغار عطف آبائهم وأمهاتهم وإن كان ذلك لا يجدى عليهم كثيراً نظراً لشدة فقر الفلاحين وجهلهم .

وليس هناك هيئات كبرى ، تقوم بهذه الرعاية ، أو برامج ووسائل معدة لخدمة الطفولة ، ولا رعاية الأمهات ، وإمدادهن بالإرشادات والمساعدات ، والطفولة ناحية اجتماعية هامة ، لأنها هى الجيل الجديد من الأمة .

ورغماً من أن للأب مكانته فى الأسرة الريفية ، فإن للأم مكانتها وشأنها كذلك فى تصريف شئون البيت والأولاد وخدمة رب بيتها ، وينشأ الأبناء على احترامها ومحبتها ومن الأقوال المأثورة «الجنة تحت أقدام الأمهات» .

وتختلف الأسرة هنا عنها فى الصين فهناك الأسرة ، يحتل فيها التعلق بالأجداد وشرف الاسم والعائلة أسمى مكان ، بينما الأسرة الريفية بلا ماض وبلا أجداد تمتد سلسلتهم فى التاريخ عدة أجيال ، وإنما هى بصفة الأفراد الذين يعيشون فى الزمن الحاضر ، وأقاربهم ، وأبناء عمومتهم ، وهم قليلو الاعتداد بماضى أجدادهم لا تمتد ذاكرتهم إلى أجيال بعيدة من ماضى أسرتهم .

وأكثر ما يشخص الأسر فى الريف ، ليس ماضيها البعيد ، أو شرف محتدها التليد ، وإنما هو حاضرها ، المتمثل فى كثرة عددها وشدة صلتها بالأرض والزراعة وما إلى ذلك ، أى أن الأرض ، فى النهاية ، هى التى تخلع على الأسرة ، شخصيتها ، ووجودها فالأسرة جماعة تعمل فى الأرض ، والأطفال يولدون فى الأرض ، والحياة العامة والخاصة تتتابع فى إطار من التقاليد التى تربطها بالأرض .

يسر الفلاح ويفخر بكثرة أولاده

بناء القرى والمساكن النموذجية .

يجب أن نراعى فى بناء المساكن النموذجية ، والقرى النموذجية ، عادات الفلاح ، واحتياجاته وأن نضع له ما يلائم معيشته ، وبعبارة أخرى ، يجب أن نراعى ، أن المسكن للفلاح ، وليس الفلاح للسكن ، وعلى هذا يجب أن نجعله ، قبل كل شىء ، صالحاً لسكناه ، ملائماً لما يراه هو وافياً بحاجاته ، حائزاً لرضاه ، قبل أن يكون مطابقا لما يراه غيره من وجهة نظر هندسية أو جمالية ، ولكنها تختلف عما يحتاج إليه ، وتبعد كثيراً عما ألفه وتعوده ، يجب ألا ينقله المسكن الجديد عن عالمه الذى عاش فيه ، وألا يقطعه عن عاداته التى تربى عليها منذ نشأ .

يجب ألا يقطعه عن عالمه الذى ألفه ، وينقله إلى عالم جديد لم يألفه ، بحيث يشعر بنوع من الغربة النفسية التى تعذبه وتسلبه اطمئنانه إلى الشىء المحبوب المألوف .

يجب أن يحقق له المسكن الجديد تقدماً ، أى تطورا ، لا أن ينقله طفرة وكما قال « جيد » « يجب أن يكون صعود الجبل سيراً لا قفزاً » . وللوصول إلى المنزل الذى يشتمل على ما نريده من تقدم ورقى ، يجب أن ندرس المنزل الحالى ، وأن نعنى بدراسة عادات الفلاح وتقاليده ، دراسة مستأنية هادئة دقيقة ، تكون أساساً لتخطيط المسكن الجديد ، وألا نكرر ما وقعنا فيه من أخطاء فى التجارب الماضية ، فى بناء ما تم بناؤه من المساكن النموذجية فقد لاحظنا النتائج الآتية :

فى الصعيد الأعلى ، بنيت هذه المساكن بالأسمنت المسلح ، ولما كانت الحرارة شديدة فى تلك المناطق ، فقد هجر الفلاحون هذه المساكن الجميلة ولم يطيقوا سكناها أو بنوا بجوارها حجرة بالطوب الأخضر ، وعرشوها ، بالحشائش الجافة والأحطاب لتكون صالحة لسكناهم .

٢ — كانت فتحات النوافذ كبيرة ، لا تمنع دخول البرد ، ولا تصلح للوقاية من وهج الشمس ، ويسهل على اللصوص النفوذ منها ، ولذلك كان السكان يسدونها بالطين .

٣ — لما لم يستطيعوا استعمال الأسطح ، التي بنيت مائله على شكل « جمالونات » عدلوها بطريقتهم لكي يستطيعوا الانتفاع بها .

٤ — كان السلم مبنيا من الخارج ، فوجدوه لايحقق أمنهم واطمئنانهم ، ويجعل بيوتهم عرضة للسطو والنهب ، فهدموه وبنوه من داخل المسكن .

٥ — محافظة على الصحة العامة ، كانت حظائر المواشى ، قد بنيت بعيدة عن المساكن . فأدى ذلك إلى تعرضها للسرقة ، فاضطر الفلاحون للرجوع إلى إعادة اتخاذ زرايب المواشى من داخل المساكن ، كما كانت .

٦ — فى القرى النموذجية . أريد إبعاد الوقود عن المساكن ، منعاً من انتشار الحرائق ، ولوحظ أن تكون المنازل متسعة كبيرة ، لهذا السبب وكانت مستودعات الأحطاب والوقود بعيدة عن المنازل ، يجمعها كلها مسطح واحد لجميع أهل القرية ، حدد جانب منه لكل أسرة ، لكن ربات البيوت ، لم يلائمهن هذا الوضع ، لبعد الوقود عن متناولهن ، فعدن إلى وضع الوقود على أسطح المنازل .

وكانت صنابيب المياه (حنفيات المياه) بالقرى شيئا لم يتعوده الفلاحون ، وأهملت صيانتها ، وأدى ذلك إلى تعطيلها ، وعودة الفلاحة إلى ملء جرتها من النهر . وكانت المراحيض داخل المنازل ، والفلاح غير متعود على استعمالها فأهملت إهمالا تاما . وكانت المنازل بدون أفران ، فبنى الفلاحون أفرانا داخل البيوت .

وبالاختصار : كانت هذه المساكن باشتراكها ، ووحدة بنائها ، أشبه بالسجون فى نظر الفلاح المطبوع على معيشة الخلاء ، الذى يفضل كوخه على هذه المعسكرات ذات الشكل الهندسى البديع .

وليس الشيء المهم هو إقامة البناء وتشييده ، وإنما المهم هو المحافظة عليه ، وحسن استخدامه والانتفاع به ، وهو مالم يتوافر لهذه المساكن ، فى معظم الحالات .

والفلاح الذى لم يتعلم ولم يتهذب غير قادر على صيانة مسكنه ، والحكومة أو المالك الكبير ، حين يبنى القرية ، أو العزبة النموذجية ، يعتقد ، حينما يفرغ من

بنائها ، أنه قد قام بواجبه ، ولم يبق عليه مايؤديه ، وهذا خطأ كبير ، لأن بناء منزل حديث ، ليس فى استطاعته أن يغير فى الحال ، من طريقة حياة الفلاح ، التى توارثها منذ أجيال طويلة .

والفلاح يعيش الآن من حياته فترة تشبه الطفولة ، ولا يمكن أن نقدم له منزلا على الطراز الحديث ، دون أن نهتم بإرشاده وتعليمه ، على الأخص كيف يستخدم مرافقه ، ونظام الحياة فيه والمحافظة عليه ، وأن نفهمه أسباب التعديل والتجديد التى استحدثت فى بناء البيوت . وهذه التربية ، والإعداد النفسى والذهنى أهم كثيراً من البناء المادى .

ومعنى ما تقدم كله . أننا لانستطيع أن ننشىء القرية المصرية الحديثة وأن نرقى بها ، دون أن نربط بين العمل البنائى الهندسى ، وبين النهضة التربوية والتعليمية الحقيقية . أن نظل نعمل مع الفلاح ونسهر على نهضته .

إعادة بناء القرية المصرية يستلزم إعادة تكوين وبناء الشعب الذى يقطنها ، وإكمال ثقافته ورقيه ، وما دام الأمر متعلقاً هنا بالمنزل ، فلنبدأ أولا بالمرأة ، بالأم ، إذ هى الأساس فى بناء الأسرة والمجتمع .

الفصل الثامن

التقاليد والعادات فى الريف

التقاليد والعادات فى الريف ، تبين لنا المستوى الاجتماعى والخلق لهذه الجماعات الساذجة ، إن صح أن لهذه الجماعات أوضاعا أو مستويات اجتماعية .

وهناك كثير من هذه التقاليد والعادات والأمثال ، والعبارات ، انحدر من الأزمنة القديمة ، والأجيال البعيدة ، وهى تقاليد توارثتها الأجيال ، بدون أن تفكر فيها ، أو تحكم لها أو عليها أو تهتم بمعناها أو مدلولها .

لكنها على الجملة تحمل طابعا بارزا هو الإشارة إلى علاقة الفلاح ، بالبيئة الطبيعية ، وهى الأرض والماء وثمارهما .

هذه الصلة العميقة ، كما شرحناها ، فى الفصول السابقة ، وحللناها تحليلا دقيقا ، عند الكلام على حياة الفلاح فى عمله الزراعى . وعلى أوصافه ، وملامحه وبنائه الجثمانى ومنزله .

ونحن الآن بصدد دراسته النفسية ، ومما يناسب تلك الدراسة ، ويتصل بها ، الكلام على هذه التقاليد ، والعادات ، والتصرفات ، التى تبدو من خلال حياته ، وتمثل تفكيره ، ومثله ، وأحاسيس نفسه ، ونظرته للحياة ، إن صح مثل هذا التعبير .

ولو أننا حاولنا تفسير هذه التقاليد ، أو معرفة تاريخها ، أو منشأ ظهورها ، لأدركتنا الحيرة فى ذلك ، وأعوزتنا مصادر البحث والمعرفة ، كما تدرك الحيرة هؤلاء الفلاحين أنفسهم ، إذ هم ، كما قلنا ، لم يفكروا فيها ولم يحاولوا فهم معناها .

ومع هذا ، فنحن نستطيع أن ننتزع منها فكرة عامة غامضة ، هى صلة بين الظهور والخفاء ، تربط الطبيعة بالإنسان وفيها مايوضح دائما ، شعور الفلاح بالانتساب إلى الأرض ، وفيها تعليل مايشاهد من الركود الغالب على طباع الفلاح .

إبتسـامة الرضى علـى وجـه الفـلاح

والفلاح يحس إحساسا عميقا ، باحترام الماء ، الماء الآتى من النيل ، وهو يحرص على عدم ترشيحه ، لأنه يتصور أن فى هذا انتزاعا للحياة منه ، والمسيحيون من أهل مصر ، يقدمونه بحالته ، للمرسلين الدينيين ، الذين يمرون بهم ليباركوه .

وهم يجدون فى تقديمه هكذا سرورا ، وشعوراً بأنه محبوب ، ومبارك إذ هو آت من النيل .

وفى يوم وفاء النيل ، والاحتفال بعروس النيل فى القاهرة ، لايحضر الفلاح هذا العيد ، ولا يساهم فيه ، ولكنه يكون أكثر شعورا ، من جميع سكان المدينة بأن النيل ذكر حى .

يجرى النهر متدفقاً فى مجراه ، من الجنوب إلى الشمال ، وسواء أكان الفلاح على الشاطىء أم كان قريبا منه ، فهو يشعر بصحبته ، ويلجأ إليه ، أكثر مما يلجأ إلى بنى الإنسان . نعم هو لايتوسل إليه ، كما كان يفعل أجداده من قبل ، ولكنه يعيش فى رحابه ، وحبه فى قرارة نفسه .

توجد بين النيل والفلاحين ، نفس الصلة التى بين المحيط وسكان بريتانيا الفرنسيين ، إذ يدعونه بالبحر . ويسمون حقولهم بالأرياف ، ومعناها الشواطىء ، أنهم يربطون فكرة الخصوبة فى النساء والصحة فى الرجال بفيضان النيل ، ويتفاءلون باحتفالهم بالزواج ، فى موسم الفيضان .

وحينما يكون الطفل ضعيفاً أو مريضاً ، يحملونه إلى شاطىء النيل ، و... نه يرمى فيه بتمر أو فطير تيمناً واعتقاداً أن ذلك يجلب الصحة للغلام .

وحينما يحتضر الفلاح يسقونه جرعة من ماء النيل . وهم يعتقدون أن طمى النيل بشير بالخير وجالب للصحة .

والفلاحة تبتلع قليلا من هذا الطمى عند حضور الولادة ليكون الوضع سهلا .

وحينما يحلق شعر الطفل ، لأول مرة ، يوضع فى قطعة من الطين ، ويرمى فى الماء ومن عادات الفلاحات أيضاً ، وضع الطين على رءوسهن ، عند الندب والبكاء

على الميت ، ومما يستحق الذكر كذلك من هذه العادات ، أن الميت عند دفنه ، يلحد فى باطن الأرض بدون تابوت.

وتوضع فى بطن الأرض كذلك ، الأوانى والقدور التى تشتمل على الأموال المدخرة . وعلى الطلاسم السحرية ، التى يجب أن تؤدى مفعولها ، وكل ولادة كذلك تنال بركة الأرض ، فالمشيمة ، تدفن فى المنزل ، وحبل السرة ، يوضع فى كيس مع قبضة من القمح ، ويغيب فى حقل الوالد فى جوف الأرض .

وحينما يبلغ عمر الوليد سبعة أيام يوضع فى غربال مع قليل من حب القمح ، لتشمله البركة فى مستقبل أيامه .

وهم يعبرون بكلمة الفطام ، « أى منع الطفل من الرضاع » ، عن السقية (الرية) العاشرة والأخيرة من ريات الذرة ، وفى ذلك اليوم ، تقدم الفطائر إلى العمال ، على نحو ما يصنعون عند فطام الطفل إذ تقدم الفطائر للأم عند الرضعة الأخيرة .

ومن تقاليدهم أيضاً ، أن يأخذوا قبل البدء فى الحصاد ، أحسن سنابل القمح ، ويحتفظوا بها كدمية تعلق فى المنزل وتظل به إلى السنة القادمة ، ويسمونها « عروس القمح » كما يقال عروس النيل ، وهى رمز للسعادة والخير عندهم .

ومن التقاليد ، ذات اللون الدينى المسيحي ماروواه مولاى خزام فى نوفمبر سنة ١٩٣٧ قال :

« كنت أدخل المنازل وأبارك الماء والخبز والقمح ، فالماء كانوا يشربونه ، ويرشونه على أنفسهم ، وعلى مواشيهم ، وفى منازلهم والقمح ، كانوا يلقونه فى حقولهم ، والخبز كان لابد لى من أن أكسره وأذوقه ، وعلى أثر ذلك ، كانوا يحفظونه ، فى مدخرهم ليباركه الإله » .

يشبع بسرور الحصاد والغلة ويشمل الذين لم يزرعوا ، ولكنهم يقومون بخدمة عامة لأهل القرية ، فلهؤلاء نصيبهم من الحصاد كل سنة ، وهؤلاء حملة القرآن ومرتلوه ، ومؤذنو المساجد وكذلك حلاقو القرية ، والفقهاء فى المكاتب الذين يقومون بتعليم أطفال القرية .

وجنى القطن وحده هو الموسم الذى خلا من التقاليد الرمزية ، وربما كان ذلك لأنه محصول حديث العهد فى مصر ، أو لأنه محصول رأسمالى ، لا يرمز إلى القوت ولا إلى الحياة اليومية .

وعلى عكس ذلك النخل ، الذى هو قديم قدم مصر الزراعية ، والفلاح يجعله من موارده الهامة ، ويصنع من مخلفاته ، الأقفاص والسلال ، والحبال ، والمكانس ويتخذ السقوف والأكواخ من جذوعه وسعفه .

والهوادج تزين بالسعف والخوص كما أن القبور يوضع عليها الخوص والسعف كذلك إستنزالا للرحمات على ساكنيها ، وتعبيراً عن المشاعر التى يكنها الأحياء للمتوفين الذاهبين إلى الدار الباقية .

ومن العادات التى تشعر بالبهجة والأيناس أن يجرد المتزوج صبيحة يوم الزفاف ، سعفة من خوصها ويشقها من طرفيها ، ويذهب إلى أصدقائه فيمسهم بها ، ليحمل إليهم السعادة ، فضرب الرجل بجريدة خضراء يجلب البركة .

والسعف هو زهور الفلاحين . إذ لا يوجد موكب سرور أو حداد بدون مساهمته ، وتناول طلع ذكر النخل ، ممتزجا بالماء شراب سحرى لإزالة العقم ، كما أن إبتلاع نواة ، أو نواتين أو ثلاث ، يمنع الحمل بقدر عددها من السنين .

ويختلط السحر بالطب فى الاستعمال التقليدى لبعض النباتات التى تستعمل للتداوى أو لحفظ الصحة ، وقليل من التجارب ، وكثير من الخرافات يفسران تلك المجموعة المدهشة من الوصفات ، والتعويذات ، التى يستعملها الفلاحون والتى توافرت لديهم على تراكم السنين ، ومن هذه الوصفات ، نقيع خوص النخل أو ورق الذرة ، لعلاج اضطراب الأمعاء ، وعصير البصل ، ورماد حطب القطن ، للأعين وصمغ السنط لكسر العظام ، وأربطة القنب للأورام وللروماتيزم .

والعلاج بهذه الأشياء ، مزيج من التجربة والإعتقاد المبنى على الوهم .

وهكذا تشغل هذه الخرافات والأوهام حيزاً غير قليل من حياة الفلاحين ، ويشتد تأثيرها على عقولهم .

وقد أسهب مسيو « بلاكمان » فى الكلام على هذه العادات والخرافات ، وخصص لها أكبر جزء من كتابه ، وأسرف فى الكلام عنها كما لو كانت هى كل حياة الفلاحين وشغل غيره من الكتاب بالكلام عن هذه النواحى حتى كادت تصرفهم عن كل ما سواها فى حين أن مثل هذه العادات فى حياة الفلاح ، وإن كان مجال الكلام فيها واسعاً إلى أبعد الحدود تعد من الكلام المعاد ، ومثلها فى معظم البلاد بين الطبقات العاملة ، وليست هى كل النواحى فى حياة الفلاح .

تلك التقاليد والأوهام الموروثة عن الماضى فى بلاد كمصر التى تمتد حياتها إلى أقدم عصور التاريخ ، وتقوم فيها مدنية مملوءة بالأمجاد والأسرار ، وضروب الفن ، وهيا كل المعابد والديانات القديمة ، والعلوم والمعارف ، وجميع ألوان الثقافات الفنية والأدبية بلاد كهذه ، لا غروا أن يترسب فى أعماقها كثير من الاعتقادات الصحيح منها وغير الصحيح .

ومع تسليمنا بأن الاستنامة لهذه الأوهام ، وتركها تفتك بالعقول ، ومع اعترافنا بأن الفلاح فريسة لها ، إلا أن هذه الأوهام ليست هى الوحيدة بين أسباب التأخر التى يعانيها الفلاح . بل أن هناك ما هو أشد منها ، وأعظم مجلبة للتعاسة والبؤس فى حياة الفلاح وقد عددنا منها ضغط الأرض والملاك والحكومات ، وعقوق المثقفين واستغلال الأجانب والرأسماليين وغيرهم .

الفصل التاسع

تحليل نفسية الفلاح

يعيش الفلاح فى عالمه منقطع الصلة بما هو خارج عن محيطه ، وهذا النوع من المعيشة فيه قوته وضعفه معاً .

هو لا يتلقى تأثيراً خارجياً ، ولذلك ينشأ وفيه كل خصائص البيئة القروية ، وعناصر تكوينها ، وهذه الخصائص النفسية والعقلية تلازمه حتى ولو انتقل إلى بيئة أخرى بعد ذلك .

هذه البيئة القروية ، وهى وادى النيل ، ومزارعه الخصيبة ، والنظام الاجتماعى وضغطه .

فى هذه البيئة يعيش الفلاح فيكون داخل قيودها وأوضاعها تابعاً لغيره مستعبداً لسواه ، فهو خاضع للقيود من كل نوع ، حتى أنه ليضيف إلى نفسه تابعيات جديدة ، أو قيوداً أخرى ، ويصير مزاجه مزاج التابع المقيد ، وحياته حياة الراسف فى الأغلال والقيود .

ومهما تكن الدراسة النفسية للفلاح شاقة وطريقها مطموس المعالم ، فإن من الممكن إدراك معالمها ، وخصائصها الأساسية .

فنفس الفلاح تحددها وتشخصها صفات الجنس ، والبلد ، والدين ، والحالة الاجتماعية ، ونوع المعيشة ، وكل هذه العوامل تعطينا صورة نفسية للفلاح لاتوصف بكونها اجتماعية ، بل تتسم بالانفرادية على الأرجح .

وإذا تتبعنا الآراء الكثيرة المتعارضة التى نسمعها عن الفلاح ، وصفاته النفسية فإننا نجدها متعارضة شديدة التعارض بحيث لانجد بينها مايسهل الاطمئنان إليه .

فهناك من يصف الفلاح فيقول : أنه كسول يشق عليه أى مجهود بدنى ، ولهذا يفضل البقاء على حالته حتى لا يتعب جسمه .

وهناك من يقول :

أن الفلاح الحافظ للجميل نادر ، ومهما يكن ما تصنعه له من خير فهو لا يقدره ولا يقابله بالشكر بل يجازى عليه بالجحود والنكران ، وهو لا يخلص فى عمله بل يخادع أصحاب الأعمال فيظهر أمامهم النشاط وحب العمل حتى إذا غابوا عن نظره استسلم للخمول والكسل وقعد عن عمله وخان واجبه .

ويقول آخر :

إن الفلاحين جبناء ، ميالون للشر مخادعون .

وهناك ملاك ونظار يقررون عكس هذا . فيقولون :

إن الفلاحين على أى حال مسالمون ، ودعاء سعداء بحظهم غير أنهم لا يحفظون الجميل لمن أحسن إليهم ، ولا يهتمون بشىء أكثر من الأرض والعمل .

وغير هؤلاء يقول :

إن الفلاح دائماً متفائل ، وحافظ للجميل متصف بالوفاء .

كل هذه الآراء وأمثالها تسمعها ممن خالطوا الفلاحين وعاشروهم ، وهى لا تعطى صورة صادقة عن الفلاح على أى حال ، ويصعب التوفيق بينها كما يصعب الانحياز إلى جانب منها دون الآخر .

ومع هذا فما يقولونه حقائق ، ولكنها حقائق متحيزة ، وجزئية ، الواقع الحى أكثر تنوعاً من هذا .

ولقد يكون من التسرع والخطأ أن نحاول التوفيق بين تلك المتناقضات بتفسيرات قصيرة النظر ، أو جنوح مع بعض الأهواء أو الأوهام ، فللآراء المتعارضة تفسيراتها وتعليلاتها ، ومناحى الخطأ والصواب فيها ، ولا بد للرأى من استجماع كل العناصر ودراستها ثم إصدار الحكم بعد ذلك ،

وما نراه نحن يتلخص فيما سنعرضه هنا ، وهو أن ذكاء الفلاح يتصف بالتعميم لا بالتخصيص فهو يحسن إدراك الأمور بنظره عامة ، ولكنه يعجز ، أو يقصر ذكاؤه عند التخصيص .

وجمود الفلاح أكثر من حركته ، وهو إلى السلبية ، أقرب منه إلى الإيجابية .

وحكمته وتجاربه ، تتجمع من أمثال ، ذات مغزى ، تطبق على الأحداث ، وفى المناسبات العارضة ، وتغنى من التفكير الشخصى ، ومن أعمال العقل .

والفلاح يحفظ ويتذكر ، ولكنه لا يبتكر ، وما يجد من التحسين فى أساليب الزراعة ، أو البناء فى الريف ، ليس مصدره الفلاح ، وإنما هو آت من غيره ، وليس له فيه فضل .

ولطول اعتماده على غيره فى الإصلاح والابتكار ، هزل ذكاؤه ، وأصبح سلبيا ، ولم يعد قادراً على تجديد الذهن وأعمال الفكر ، وأصبح محباً للخمول والدعة يكره الاجتهاد ونشاط الذهن .

وهذا الضعف والاستخذاء الفكرى أبعده عن تذوق الجمال وحب الفن وأفقده كل ثقافة فنية ، فهو فى نظام معيشته ، وشئون ملبسه ومسكنه وحياته يلقى العبء على غيره ، وينام ملء عينيه ويدع سواه يتحمل عنه مشقة التحسين والإصلاح والتعديل والتطوير .

ومع هذا . فالفلاح ، لشغفه بالأرض وما يدعو إليه العمل فى الزراعة ، ينشط إلى الحساب والمعاملات ، وله ملكة حاسبة مع أميته وجهله القراءة والكتابة ، يسبق بها أحياناً من يشتغلون بالكتابة والحساب من أهلهما .

وملكة التذكر عنده قوية ولكن كما قلنا . مع نقص فى ملكة الابتكار .

وأطفال الفلاحين ، إلى سن الخامسة عشرة ، يبدون من الذكاء ، أكثر مما يبديه غيرهم من أطفال الأوربيين ، لكنهم حين يكبرون ، ويصيرون رجالا ، ينطفىء ذكاؤهم ، ويتحولون إلى حالة من البلادة ، والتأخر ، تكون موضعاً للملاحظة والنظر . ولقد قيل فى تعليل هذه الحالة ، أنها ترجع إلى سوء التغذية ، ولكن هذا التعليل يمنع منه ، أن صحة الشبان فى الريف جيدة ، وهذا دليل على أن سوء التغذية ، ليس هو العامل المؤثر فى نقص الذكاء . وعزا بعضهم هذا للعادة السرية ، والكبت الجنسى ، لكن العادة السرية غير منتشرة فى الريف بهذا المقدار ، وشبان الريف

أقرب إلى الطهارة والاستقامة ، وهم يتزوجون فى سن مبكرة ، وأخيراً علل بعض الباحثين هذه الحالة بتأثير البيئة الطبيعية وقالوا ، أن هذه البيئة ، وهذا المناخ كالتربة القوية ، يسرع نباتها فى النمو ، ويشب قوياً ، ثم يسرع إليه الذبول والجفاف .

وأبناء الفلاحين ، حينما يغادرون هذه البيئة ، ويقيمون بالمدن ، ويلتحقون بمعاهد التعليم ، ينبغ منهم الأطباء ، والمهندسون ، والموظفون ، الذين يساوون نظراءهم فى البلاد الأخرى ، أو يفوقونهم ، وإذن فالبيئة الاجتماعية ، هى التى تقف بغتة ، ذكاء الشاب الفلاح ، وما يخيم فيها من جهل فظيع يحيط به ، بمجرد اندماجه فى الجماعة ونوع الحياة التى يحياها ، مكباً على الأرض ، مكررا عملا جثمانيا واحدا ، ذلك هو السبب الذى يقف نمو العقل عنده ، إذ الذكاء ينمو فى حياة متجددة ، تهب عليها ريح النشاط والحيوية ، وهذا لا يتوافر ، فى هذا العالم القديم جداً ، والمحافظ جداً ، عالم القرية المصرية .

والنساء الفلاحات أكثر ذكاء من الرجال ، وربما كان السبب فى ذلك أنهن أكثر ممارسة لشئون المعيشة وأمور الحياة ، فاتسعت دائرة معلوماتهن ، ونمت عندهن قوة الملاحظة بينما الرجال يسخرون لأعمال الحقل ، وهى بطبيعتها آلية ، وجسمية ، أكثر مما هى عقلية ، تؤدى على نمط واحد ، وحالة متكررة ، وسط الإرهاق الجسدى والاستغراق المادى ، تحت حرارة الشمس المحرقة ، وهذا من شأنه أن ينيم قوى العقل والذكاء ، ويعطل وظيفة التفكير .

والفلاحة بطبيعتها ، تلجأ إلى الحيلة والمداورة ، وهى أكثر دهاء من الفلاح وإن كان الفلاح أيضاً يتصف بالخداع والمخاتلة ، والكتمان والمراوغة ، ويخفى فى نفسه عواطفه ، من سرور وحزن ، ونواياه وسرائره ، بحيث لا يظهر شىء من ذلك على وجهه ، أو ملامحه ، فحينما يضمر أمراً ، أو يبيت فى نفسه شيئا ، يحسن إخفاء نيته ، والظهور بغير حقيقته ، ويحسن السبك ، ويجيد الكلام ، ويبدى ذكاء لا شك فيه ، ويجب الاعتراف به ، ولكنه ذكاء من نوع المكر الخبيث ، لا الذكاء المضىء .

وقد يبدو أن الفلاح يعوزه المنطق ، ولكن الواقع أن مفاهيمه مصطفة فى ترتيب ونظام ، وهو يحكم باستخدام المعادلة ، فأنت تسأله مثلا :

على أى مسافة نحن من قرية كذا ؟ فيجيبك :

على بعد قرش فى الأوتوبيس . . . والعمدة يفهم نفسية الفلاح فهماً لا يخطىء الواقع فهو يقول مثلا :

(موجهاً الخطاب إلى ابن الفلاح) ياولد . اذهب إلى والدك ، وقل له أن البيك « يعنى الدائن » ، ينتظره هنا وإذا لم يكن والدك هناك ، فقل له يأتى رغم ذلك ، لأن البيك يعرف أنه موجود !

ويحضر الوالد ، الذى يفهم ، بهذه الطريقة أنه لابد من حضوره .

والفلاح لا يفكر إلا فى حاضره ، ولا يهتم بمستقبله ، وهو مرتبط باللحظة الحاضرة ، أشد الارتباط ، فالزمان والمكان الخارجان عن الحالة الراهنة ، لا يكادان يؤثران فى عقله ، لأنهما لايؤثران فى حواسة أنه كالبدائى ، أو كالطفل ، يخضع عقله لشعوره ، فيظل على فطرته من الإحساس ، ومن الوقائع ، والأشياء

لا يبحث الفلاح عن علل الأشياء فى النظام العقلى ، ولكن يبحث عنها ، فى نطاق الرؤية ، وفى عالم الحس والمشاهدة ، وهذا هو السر فى أنه يبدو غير منطق وعدم عنايته بالمستقبل ، ناشىء من هذا العيب العقلى الذى يرجع لفقد التربية

والفلاح ، يحرم نفسه ، طول السنة ، ويقتر أشد التقتير ، فى نفقات المعيشة ولكنه عند ما تحل الأعياد ، يطلق لنفسه العنان ، فى التبذير والإسراف ، حتى يأتى على جميع ما ادخره ، فى يوم أو يومين ، مغاليا فى الإنفاق ، وشراء ما يلزم ، وما لا يلزم له ولأسرته ، فمن ملابس جديدة إلى توسعة فى المأكل والمشرب والتنزه ، ثم يستأنف حياته ، وقد فقد جميع ما لديه ، وعاد أشد فقراً مما كان ، وإذا ربح بعض المال ، لم يبحث عما تحتاجه زراعته أو حقله ، لزيادة الغلة ، أو تحسين التربة لينفق فيه هذا المال الذى حصل عليه ، بل يحث عن بضعة قراريط من الأرض

يشتريها ويضيفها إلى أرضه ، ليقال عنه أنه من الملاك ، ذوى الثراء ، وربما استدان لكى يشترى أرضاً مجاورة ، ليس معه شىء من ثمنها ، دون أن يحسب حساباً ليوم السداد .

وربة البيت ، لا تملأ قنديلها من الزيت إلا بعد أن يقترب الظلام ، والحراث لا يشحذ محراثه إلا فى لحظة الحرث وهو لايؤدى ماعليه من الدين إلا إذا أرغم على ذلك ، ولا يشترى البذور إلا ليلة البذر ، ولا يدعو الطبيب إلا بعد أن يتفاقم المرض ، وقصارى القول أن روح التهاون والتكاسل من خصائصه .

وقد قال المقريزى المؤرخ ، فى وصف الفلاح ، من أخلاق أهل مصر ، عدم النظر فى العواقب ، فلا تجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان الأخرى ، بل يشترون مأكلهم من الأسواق يوماً بيوم ، وقد قال العلامة ابن خلدون عنهم ، أنهم ينقصهم التفكير فيما يعملون وكان الحساب عنـــدهم شىء لا معنى له .

هم لايفكرون ولا يعملون إلا فى نطاق الحالة الراهنة ، حسب الضغط الحسى للمحظة الحاضرة ، أى أن الحاضر هو الذى يحددهم ، إن صح هذا التعبير ، ولهذا فهم سريعو التصديق ، وحذرون وفرديون ، وفى الوقت نفسه محبون للاجتماع وأشحاء وسفهاء وودعاء وسريعو الغضب .

حالات نفسية متشابكة ، ومتعارضة كونت نفس هذا الإنسان المسكين ، وصاغتها على هذا المثال العجيب .

وهم يثقون فى الأشياء والأشخاص الذين يعرفون ، كيف يوهمونهم ، أنهم قديسون أطهار ، أو سحرة قادرون ، يقربون لهم رغباتهم ومشتهياتهم ، كانجاب الأطفال ، أو قضاء الحاجات أو شفاء الأمراض ، أو الانتقام من الأعداء .

وخرافاتهم المتنوعة ، والهيبة التى يستمتع بها بينهم ، بعض من ينتسبون إلى الدين ، ويظهرون بمظهر الولاية ، ونجاح المحتالين المرتدين ثياب النفاق ، كل ذلك أمارة استسلامهم إلى سرعة التصديق . وسهولة الانقياد

وفى الوقت نفسه يسودهم الحذر ، والشك حتى فى محيطهم العائلى ، وبين الأخوة ، والأقرباء .

وهم يحذرون رؤساءهم ، أو من هم منهم بمثابة الرؤساء ، ويسيئون الظن بهم حتى ولو أحسنوا إليهم كأنهم أطفال يعاملون بالخديعة ويحال بينهم وبين مشتهياتهم ، وهم يعتقدون فى الحسد و « العين الخبيثة » .

هذا الحذر وتلك الرهبة اللذين لهما ما يبررهما فى جو المظالم والوشايات يجعلان من الفلاح شخصاً فردياً ينطوى على نفسه ، كما رأيناه فهو يخفى شئونه الخاصة ، ويحرص على أن تكون فى مكان عميق من الكتمان ، وإذا ما حاول أمراً هاماً ، يرجو من ورائه الخير لنفسه حاوله فى الخفاء محاذراً أن تندثر منه كلمة واحدة تدل عليه أو تشى بمكانه لأن الشقاء يتبع السعادة عن قرب ، كما تقول الأمثال السائرة ، ولكن حينما يكون الأمر لا يتعلق بالمنافع أو النساء أو الأرض ، وهى الأمور التى تجلب التفرقة تسود المودة ، ويسود التعاون .

وفى الفلاح ، كما قلنا ، صفة الألفة والاجتماع ، وهو حين يواجه مع أهل قريته خطراً عاماً يهدد الجميع ينسى نفسه ، ولا يذكر إلا ما يواجهه ويواجه أهل القرية ، وفى هذه الحالة تبرز صلته بالجماعة ، واندماجه فيها ، والاعتزاز بمكانه منها ، وتزاوله صفة الحذر والتردد .

هو مرح لأنه لا يفكر فى الماضى ، ولا فى المستقبل ، وقد طرح عن نفسه أعباء التفكير فيهما ، والتوجس أو الخوف من العواقب ، أو الندم على حرمانه فى الماضى ، ولا يعرف إلا اللحظة الحاضره وحينما يطرأ ما يمنعه من الاستمتاع بحاضره يسوف ويؤجل إلى الغد لكى يكمل تفرغه للمتعة الحاضرة ، بل هو حين يطيع ويعد بالتنفيذ لا ينوى ما يقول ، وتكون نيته المماطلة والمراوغة ، وكلمة الموافقة عنده خالية من المعنى وإنما معناها السكون الطويل ، والنوم المستيقظ ، نوم من يشتغل « بلا شىء » ويفكر فى « لا شىء » .

أنه صبر من نوع عجيب تعلمه من الأرض ، وكأنه يحتفظ بروحه ، كالسراج

الضعيف الساهر ، وينتظر بدون نشاط ظاهر ، ويغرق فى أحلام داخلية ، ويحيا من هواجسه وهمومه فى شبه ترنم نفسى ، يهدهد النشاط ، والروحات والجيئات كذلك الترنم الذى يهدهد به الطفل فى المهد .

بطء وتراخ يهرب بهما من مواجهة العمل والنشاط ، وشعور فى حالة من التخدر والشلل يظن أن فيه راحته من النصب ومهربه من المسئولية .

وليس عنده من معنى لضبط المواعيد ، وتحديد الوقت سوى المعنى الذى يتخيله ، فهو حين يريد ركوب القطار ، يصل إلى المحطة قبل الموعد بساعات ، وحينما يرتبط مع الغير بموعد يصل بعد الموعد الذى حدده بساعات ، أما التحديد والضبط ، فليس فى حسابه .

وهو إذ يعيش فى حدود اللحظة الحاضرة وحدها لا يشعر بضرورة السرعة ، ولا البحث عن المجهول ، ولا الطموح . . .

هو مسالم ، وديع لأنه صبور ، وصبور لكثرة خضوعه للناس ، وللأشياء ، وهو لهذا السبب أيضاً بطىء أكثر منه كسولا ، أشبه بالنيل فى سيره الوئيد ليس النشاط حاجة من حاجاته ، وهو فى تفكيره جبرى ، وفى محاولاته قدرى ، مكبل بقيود الزمان والجمود والركود .

ومع هذا فقد يحدث أحياناً ، والضيق مطبق عليه آخذ بمخنقه وحياته مكبلة بما أشرنا إليه ، والظلام والبؤس يخيمان عليه حتى ليمتنع عليه أن يفكر فى الانتحار ، ويحدث وسط هذه الحالة أن يقع حادث تافه مفاجىء ، كأن يسرق جاره من حقله شيئاً ، أو تضيع من مسكنه دجاجة ، أو أوزه ، وكأن ينازعه جار له فى ماء الرى ، أو يترك بماشيته تعبث فى زراعته ، أو أن يعتدى طفل من جيرانه على ابن له ، أو أن يقع شجار بين زوجته وزوجة جاره ، أو أن يتأخر صديق له فى رد ما اقترض من قروش ضئيلة ، أو أن ينقل إليه أحد أن بعض الناس قد تحدث عنه فى غيبته بما ينقص من قدره ، أو يخدش كرامته ، أو أن أحد جيرانه حاول أن يمس شرف زوجته ، أو أطال النظر إليها . هذه الاحتمالات كلها ، وقد لا تكون سوى ظن

كاذب ، أو خطأ غير مقصود تنقل الفلاح فجأة من هدوئه إلى ثورة عاصفة قد تؤدى إلى القتل ، وسفك الدماء ، وإلى العداوات والثارات والويلات .

هذا الفلاح الذى احتمل زمناً طويلا ظلم من هم أكبر منه لا يصبر على الإهانات التافهة ، والبدوات التى كان يمكن الإغضاء عنها حين تقع من جاره أو مساويه وينقلب الأمر ثورة عارمة تضيع فيها الأرواح بلا حساب .

وفى الصعيد حينما تنشب المعارك ، وتثور المصادمات لا يكون لها من الأسباب ما يستحق القتل وضياع الأرواح . بل تنشأ عن أسباب تافهة يجسمها ما نشأ عليه أهل الصعيد من مغالاة فى استعمال القوة ، والاعتداد بالعصبية ، واستفحال عادة الأخذ بالثأر .

وهذا الأخذ بالثأر هو آفة الحياة فى الأرياف خصوصاً عند أهل الصعيد ، فكثيراً ما توقد النيران فى أجران القمح والغلال ، أو فى الحقول عند استوائها ، واستعدادها للحصاد والجنى .

ومن صور الأخذ بالثأر تسميم المواشى .

وهناك جرائم يكون سببها اختلال الأمن ، وهذه جرائم السرقات ، والسلب ، والنهب ، والتهديد .

والفلاح وإن كان يصبر على مظالم الملاك الأقوياء ، لا يعرف الصبر ولا الخوف عند الاعتداء على عرضه ، أو محاولة حرمانه من أرضه . إذ هو فى هذه الحالة يبرز لمحاربة خصمه مهما كان خصمه قوياً ، محاربة الند للند ، ولا يبالى بأية قوة تقف فى طريقه ، وهنا لا يكون ثمت قوى وضعف ، وغنى وفقير إذ لا تستطيع هنا السلطة ، ولا المال أن تصنع شيئاً ، والملاك على بينة من هذا ، ولذلك فهم يبتعدون عن مسائل العرض أشد الابتعاد ، وكل من تحدثه نفسه منهم بالاعتداء على شرف إحدى القرويات يكون جزاؤه القتل ، والحوادث من هذا النوع غير قليلة .

والقتل عند الفلاحين يدل أو ينشأ من حدة الطباع ، أكثر مما يدل على امتلاء النفس بالشر وانطباعها على الإجرام .

وكم من مرة هدأ الغضب والهياج ، وصفت النفوس ، وعاد السلام ، وحل الصفاء محل الجفاء ، وهذا يكشف عن سلامة النفوس وبرئها من مرض الإجرام .

وللفلاحين أمثال كثيرة تدل على مدح الحلم، والصبر ، والتسامح فضلا عن الأوامر الدينية والخلقية .

ومن طريف ما رواه المقريزى فى خططه ما يأتى :

« عن كعب الأحبار أن الله لما خلق الأشياء جعل كل شىء بشىء ، فقال العقل أنا لاحق بالشام . فقالت الفتنة وأنا معك ، وقال الخصب : أنا لاحق بمصر . فقال الذل : وأنا معك . وقال الشقاء : وأنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك » .

عاش الفلاح فى ذلته واستكانته ، وألف ظلم الحكام والسادة وقسوتهم ، فصار الخضوع عادة له . لا من فقر ، بل من الظلم والقهر يسومه السادة المتسلطون حكم الطغيان ، ويعاملونه كطفل يؤمر ، وليس له حق المناقشة . ألف من الحكام جانب القسوة والشدة فأصبح لا يعرف علاقته بمن هم فوقه إلا على هذا النحو ، وإذا وجد من بعضهم جانب اللين استكثره . ورآه شيئاً يفوق ما ألفه أو تعوده .

أصبح لا يفهم الشفقة ، ولا يعرفها لكثرة ما قاسى من الظلم والهوان ، وما عومل به من الشتم والضرب والفظاظة .

ليكن الفلاح سيىء الطوية كافراً بالعدالة مجانباً للصراحة ، والأمانة ، محروماً من الكفاءة .

ليكن كل هذا صحيحاً ، ولكن أليس من الصحيح أيضاً إننا لم نعلمه هذه الفضائل ولم نبذل أى جهد لرفع إنسانيته ؟

ليكن صحيحاً أن الفلاح يباشر عمله بدون سرور ، وبدون إخلاص وبدون إكمال أو إتقان ، وليس لديه شىء من ملكة الابتكار أو الاجتهاد قد نسلم بهذا كله . ولكن الذنب فيه هو ذنب الطبقات المثقفة ، والمسئولة ، التى أدى تجاهلها له ، وظلمها إياه إلى هذه العزلة التى يعانيها ، ويرسف فى أغلالها حتى أصبحت نفسه محاصرة بين الجهل والطغيان على حد تعبير الدكتور القللى .

أن الأرض وطبيعة العمل فيها يخلقان عند الفلاح طبائع الصبر والثبات والصلابة ، ولكنهما يطبعانه بالطابع المادى .

ومع تعود الفلاحين فى بيئتهم عادات ، وأشياء تدل على فهمهم للمسائل الجنسية فهما يقرب من الممارسة ، إلا أن هذا لا يلتبس بالدعارة فالأسس الأخلاقية سليمة على الجملة والرقابة المتيقظة ، والروح المحافظة ، وغريزة الحياء تجعل الجنايات على الأخلاق شيئاً نادر الحدوث أقل كثيراً مما هو فى البلاد الأخرى ، وجنايات الأعراض أقل أنواع الجنايات عدداً حسب الإحصاءات الرسمية ، والفقر ، وتقاليد البيئة هى عوامل التقشف فى الريف ، والبعد عن الانغماس فى الشهوات فالترف ، ونعومة الفراش والملبس والمسكن ، ولذائذ المائدة ، ومراتع اللذة ، والترف ، كل هذا بعيد عن حياة الفلاح ، وفى ذلك حماية لأخلاقه .

والإيمان بالله ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه ، والبعد عن مثار الشكوك والمناقشات ، وبساطة الحياة ، وبعدها عن التعقيد كل ذلك هو أساس الحياة عندهم ، وهم لا يعتزمون أمراً ، ولا يتحدثون عن نية إلا أضافوا كلمة « إن شاء الله » . . .

اسمع هذه القصة وأمثالها كثير ، محاورة بين تاجر أغريقى ومزارع ريفى :

التاجر الأغريقى للفلاح :

هل ستسلمنى قطنك غداً ؟

الفلاح : إن شاء الله . . .

التاجر الأغريقى : خمسة قناطير لا أقل ؟

الفلاح : نعم إن شاء الله . . .

الأغريقى : هل ستجد جمالا للنقل ؟

الفلاح : إن شاء الله .

الأغريقى : ينبغى أن تصل إلى البضاعة حتما قبل الظهر ؟

الفلاح : إن شاء الله . . .

التاجر الأغريقى : ليست المسألة مسألة إن شاء الله نحن نتحدث عن عمل وأنا أريد وعداً حاسماً ؟

الفلاح : إذا لم تكن هناك إن شاء الله يا سيدى ، فليس هناك قطن .

وإلى اللقاء . . .

كثير من العبارات التى يرددها القرويون فى مجرى أحاديثهم ، أو اتفاقاتهم ، أو مساوماتهم يتضمن الاعتماد على المشيئة الإلهية ، وعلى تسليم الأمر لله ، وتشير إلى الجبرية والقدرية ، ولكنها جبرية فيها جمال الرضى ، ورحابة الإيمان والنية الصالحة .

إن الفلاح يؤمن بالله إيماناً فطرياً ، ويتجه إليه فى أعماله ونواياه ، ومقاصده ، وهو مع فقره العقلى ، وجهله بالدين لا ينقصه الأساس الدينى والخلقى ، ولم تذهب الخرافات الكثيرة بجوهر العقيدة ، وأساس السلوك عنده . فهو يصلى ، ويتعبد ، ويتجه إلى الخالق .

والفلاح المسيحى مؤمن يؤدى عبادته بإخلاص شديد ، ويحافظ على وصايا السيد المسيح ، والفلاحون الكاثوليكيون — وهم الذين نعرفهم أكثر من سواهم — يقدمون أجمل المثل للحياة الدينية ، بل للقداسة والبطولة ، وقسسهم الذين هم فلاحون يعيشون بينهم ، ولأجلهم حياة زهادة وإخلاص ليس المرسلون الآتون من أوروبا بقادرين عليها مثلهم . ويجب ألا ننسى أن أوائل رجال الدين فى العالم المسيحى وهم رهبان طيبة ، كانوا فلاحين .

الفصل العاشر

تطور الفلاح

فى ميدان محطة القاهرة ، الرحب الجوانب أقيم تمثال نهضة مصر .

أبو الهول ، ينهض على رجليه الأماميتين ، تقف بجانبه فتاة جميلة ، يدها ممسكة بعنقه ، ويدها الأخرى ترفع النقاب عن وجهها ، رمزاً لنهضة مصر الحديثة من سبات القرون الماضية

وقد استيقظت مصر ، ونهضت تستعيد ماضيها المجيد ، منذ نحو نصف قرن ، وسبقت جميع بلاد الشرق الأدنى ، وتقدمت غيرها ، من البلاد الإسلامية . وتحررت من الحكم العثمانى ، ثم تخلصت أو كادت من الاحتلال الإنجليزى ، بعد كفاح وتضحيات ، قام بهما شعبها المناضل وبنوها الأحرار ، ولم تأت سنة ١٩٢٩ حتى صارت دولة مستقلة ، لها سفراء وممثلون فى الخارج ، وحكومة وطنية وحياة نيابية ، وأحزاب وبرامج إنتخابية ، ومعارضة ترفع صوتها ، وتتمتع بحريتها ، وصحف تمثل مختلف الأحزاب والآراء ، ووزارات ، ووكلاء وزارات ، وبالاختصار ، كل عناصر الحكم المستقل ، والسيادة الوطنية .

ومع هذا ، فقد كانت هذه الحياة السياسية ، لا يشترك فيها إلا نسبة من أهالى البلاد ، لا تزيد على العشر ، وتسعة أعشار الأهالى من الفلاحين ، لا يكادون يشعرون بها ، وليست لهم مساهمة حقيقية فيها ، أكثر مما كان لهم من مساهمة قبل ذلك ، يوم كان الأتراك ، أو الإنجليز يقبضون على أزمة البلاد .

وكل هذه التطورات ، والأوضاع التى حدثت ، لم يكن لهم فيها إشتراك حقيقى ، بل لم يكونوا يفهمونها ، أو يعرفون وجودها يقال أنهم تابعون لحزب كذا ، ولكن على معنى أن العمدة ، أو السماسرة ، قد قيدوا أسماءهم فى الحزب ، لكنهم ليسوا من المناضلين ، ولا من الأشياع كما يكون القرويون الروسيون ، فى روسيا ، مثلا .

إن أحداً لم يعلمهم مبادىء حريتهم ولا حقوقهم ، ولم تكن الصورة الديموقراطية فقط ، خادعة وزائفة ، فى أى مكان آخر ، كما هى فى مصر .

* * *

ولم يكن الازدهار ، والنجاح الاقتصادى ، أقل وضوحا ، وكانت الأحوال المالية تبدو على أحسن حال .

كان الدخل القومى حوالى ٧٠٠ مليون جنيه فى العام ، وكان الاحتياطى حوالى ٣٠ مليوناً من الجنيهات ، والزيادة المطردة ، فى إيرادات الجمارك ، والسكك الحديدية ، ورءوس أموال الشركات المساهمة الأجنبية ، والمصرية ، ونجاح الصناعات المحلية كانت مصر تستوعب من الأيدى العاملة نحو ٢٠٠٫٠٠٠ مائتى ألف عامل . وكان مكان مصر فى أسواق القطن العالمية ، ونجاح زراعاتها ، وامتداد مشروعات الرى والصرف فيها ، وما يترتب على ذلك من نمو المحاصيل الزراعية ، كان كل هذا من الدلائل الواضحة ، على نمو الثروة القومية .

وبين سنتى ١٩٠٩ و ١٩٣٩ زادت حاصلات البلد الزراعية بنسبة ٢٨ ٪ فى حين لم تكن الزيادة ، فى المساحات المزروعة إلا بنسبة ٨ ٪ ، ومعنى هذا أن الزراعة المصرية فى نجاح ملموس .

لكن هذا النجاح ، لم يعد بشىء على الفلاح ، إذ ظل مستوى معيشته على حاله ، وظلت وسائله للاستغلال كذلك ، بدون تعديل ، أو تحسين والسبب فى ذلك واضح ، وهو أنهم كانوا يعتبرونه ، كأساس المنزل الأدنى ، وكان بقاؤه فى تأخره وعدم فهم حقوقه ، مما يساعد على هذا النجاح الذى تعود ثمرته على غيره .

وقد كتب أحد الاقتصاديين فى ذلك . قال .

إن أغنى أنواع الزراعة ، وأكثرها غلة وهما ، زراعة القطن ، وزراعة القصب ، سيؤثران فى تطور الفلاح . إذ أن رأس المال المجلوب للأولى من الخارج سيؤدى

إلى تحسين أساليبها الزراعية ، أما الثانية ، فسيؤدى جلب الأدوات الصناعية من الخارج وتعليم ، الفلاح طريقتها ، إلى تحسين هام فى حالة الفلاح .

لكن الفلاح لم يستفد أى فائدة ، لا من رءوس الأموال ، ولا من الصناعات ، وظلت حالته كما هى ، واستمرت شئونه المالية كما هى ، وظل الفقر يخيم عليه ، كما كان ، فى أى وقت مضى كما استمر تدهور مستوى معيشته .

ويميل بعضهم إلى تعليل التدهور فى مستوى معيشته ، إلى إزدياد عدد السكان المستمر ،

ويرى على الشمسى باشا ، أن لسوء توزيع الثروة الزراعية يدا فى ذلك إذ أنه ، فى بلد غنى كهذا ، أهله يعيشون فى الفاقة ، يوجد ملاك يبلغ دخلهم السنوى ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جنيه ، وإذا كان نصف مساحة الأراضى الزراعية يملكها ١٢٠٠٠ ، شخص فإن هناك أيضاً ، من مظاهر سوء توزيع الثروه ما يضاف إلى ذلك وهو أن معظم الودائع بالبنوك مملوك لأفراد قليلين ، وأن صغار المودعين لا يملكون إلا الجزء الضئيل ، أما رأس المال أى الأسهم فيملكه نحو ١٠٠٠٠ شخص .

أما العقارات فى المدن فيملك ٥٨ ٪ منها نحو ١٨٠٠٠ شخصاً .

وفى معظم الحالات ، نجد ملاك الأسهم ، هم ملاك المبانى ، وهم منحصرون فى بعض الأسر ، أى أن هذه الأسر قد حصر فيها أكبر قسم من الثروة القومية .

ومهما جره سوء توزيع الثروة من بؤس الطبقات العاملة ، وحرمانها ، فنحن نقول ، أن الحرمان المادى ، والفقر ، ليساهما أسوأ ما يعانيه السواد الأعظم من المواطنين ، فأسوأ مصائب الفلاح هو الجهل ، والحرمان العقلى .

* * *

على أن البلاد الآن ، قد خطت ، فى نهضتها العلمية ، خطوة كبيرة ، وأنشئت فيها المعاهد ، ودور التعليم ، والمؤسسات العلمية ، وصارت الجامعة تضم نحو ١٤٠٠٠ طالب ، مع أنها لم تنشأ إلا فى سنة ١٩٢٥ ، وأصبح التفكير متجهاً إلى الإكثار من عدد الجامعات ، فى العواصم الكبرى للبلاد .

وبلغ عدد المدارس الابتدائية والثانوية رقماً كبيراً ؛ وأصبح عدد التلاميذ الذين تضمهم هذه المدارس يبلغ مئات الألوف ، يدرسون على أرقى الأنظمة ، وأحسن المناهج ، وهذا فضلا عن معاهد التعليم الحر ، وهى قديمة تسير على نفس الأساليب والنظم والمناهج.

وقد نمت ميزانية التعليم حتى بلغت خمسة أضعاف ما كانت عليه منذ عشر سنوات وأعيد تنظيم الجامعة الأزهرية وأصلحت مناهجها ، وأنشئت فيها الكليات على المثل الحديثة ، وزاد عدد المعاهد التابعة لها ، إذ أنشىء معهد أسيوط ، ودمنهور ، وغيرهما

وأصبحت الصحافة قوة كبيرة فى مصر . وصار لها صوت مسموع فى توجيه سياسة البلاد ، بفضل كفاح الكتاب الأحرار ، وأصبحت مدرسة للشعب بفضل ما أصبحت عليه من تنوع وإتقان ، وما تحمله إلى القراء من أنباء وتغذيهم به من ثقافة فى كل باب ، حتى أنها أصبحت لا تقل عن صحافة أرقى البلاد الأوروبية ، وصارت مثالا يحتذى فى جميع البلاد العربية.

وأكبر هذه الصحف وأوسعها انتشاراً ، هى جريدة الأهرام وجريدة المصرى وهاتان الصحيفتان يصل ما يطبع منهما يومياً نحو ١١٠٠٠٠ عدد

والعلماء والأدباء ، ورجال الفنون الذين يفدون من البلاد الأوروبية فى فصل الشتاء لحضور المؤتمرات ، وإلقاء المحاضرات أو مشاهدة المعارض ، والمتاحف والآثار ، يجدون فى القاهرة والاسكندرية ، جمهرة كبيرة من المصريين المثقفين لا يقلون ثقافة عن أمثالهم فى باريس وهم يبدون دهشتهم وإعجابهم حينما يعودون إلى بلادهم .

والمفكرون والكتاب فى مصر يتابعون الجهود العلمية والفكرية للنهوض بوطنهم . وهم يعنون بترقية الجماهير ، والنهوض بالمسرح ، والموسيقى ، والسينما ، وتمصير هذه الأدوات كلها وجعلها تعبر عن الروح المصرية ، وتمثل بيئة البلاد وطبيعتها

ومن الشيق أن نتتبع مظاهر هذه النهضة الفكرية ، ولكن من الواجب أن ننظر فى الوقت نفسه إلى الطبقة الدنيا من الشعب لنرى هل أفادت شيئاً من هذه النهضة ؟

وهل شملها هذا التطور ، كما شمل الطبقة المتعلمة ؟

الواقع أن هذا التجديد لم يشمل الطبقات الفقيرة ، فقد ظلت هذه الطبقات بعيدة عنه كأنها لا تراه ولا تعرفه ، ولا تتأثر به حياتها .

هذه الطبقات لا تزال الأمية مطبقة عليها ، سائدة فى محيطها ، وسواء أكانت هذه جريمة المسئولين الذين نموا كل شىء فى مصر ماعدا التعليم ، أم كانت جناية الفلاحين على أنفسهم ، إذ عاقهم الجمود عن تعليم أنفسهم ، ومحو عار الأمية عنها وانتشالها من الجهل ، أم كانت جناية المناهج والأساليب ، سواء كان الأمر هو هذا أو ذاك من الأسباب ، فالذى يبدو الآن أن نسبة الأمية فى الشعب هى ٩٥ ./. من المجموع ، وحتى من يعرفون القراءة والكتابة يظلون أميين بعد ذلك ، لأن البرامج لا تعنى بعد هذه الخطوة بتعليمهم ما يحتاجون إليه لتنوير أذهانهم ، ومعرفة مايفيدهم فى حياتهم ، واطلاعهم على مجرى الأفكار والثقافات .

ومع أن السينما ، والإذاعة من وسائل التعليم وهما ينتشران بسرعة ، ولكن فائدة الفلاح منهما تظل قاصرة على اللهو والطرب ، ولا تفيدانه فى تنمية معلوماته وتنوير ذهنه وذلك لأميته وقصوره الذهنى

وسر هذه الأخطاء والعيوب كلها هو جهل الفلاح بحقوقه وعدم حرصه عليها وتمسكه بها .

نعم أن موطن الضعف فى حياة الفلاح ، ومصدر المصائب والآلام هو جهله وبؤسه العقلى فى عالم متطور . وتلك النهضة العقلية التى وصفناها وتحدثنا عن مختلف مظاهرها ، لم تزد على أن أبرزت جهل الفلاح ، وزادت فى عزلته . ومع ذلك فهناك مظاهر تحول وتغير يمكن اعتبارها من علامات التقدم والتطور ، فى حياة الفلاح. وبعض هذه المظاهر يأتى من خارج حياة الفلاح ويتصل بها ، وبعضها يشاهد من الداخل ويؤذن بالتطور .

ومن أعظم مظاهر هذا التطور الإجتماعى ، أن طبقة المثقفين ، أخذ ينمو عندها الوعى الاجتماعى ، وأصبحت تفكر فى الطبقات العاملة ، وتعنى بشئونها ، وتسعى

للأخذ بساعدها ، وإن كان هذا يحدث فى معظم الأحيان ، بطرق تنقصها المهارة والخبرة ، والمثابرة والدأب ، والدراسة .. والمناهج ، وهى لا تزال فى نطاق المحاولات ، ولم تتقدم نحو المناهج المدروسة ذات الأسس العلمية ، لكن هذا دليل على اتجاه الرغبة ، من جانب هؤلاء المثقفين ، فى تحسين حياة الجماهير التى لا تستطيع تحسين حياتها بنفسها .

ومن نتائج هذا التحول ، أن الفلاح أصبح له الآن ملكية عقارية شخصية ، ولم يعد تحت نظام السخرة ، ورحمة السادة وأصبح يتمتع بالعدالة ، وحماية القانون ، والمحاكم .. وإن كان لا يستطيع أن ينتفع بذلك فى كثير من الأحيان ...

ومن علامات التحسين ، الذى أشرنا إليه وضع حد لقسوة الباشوات ، والبكوات ، والإبقاء على أمتعة الفلاح وعلى قوته الضرورى رحمة به ، وبزوجته وأطفاله .

وقد ألغى السوط (الكرباج) ولو من ناحية المبدأ ، ونظمت الضرائب ، وحددت نسبها ، ومواعيد سدادها ، على أساس أقرب إلى العدالة ، وقل كثيراً خوف الفلاح ورهبته من الصراف ، وصار يعرف حدود ما يدفعه وما لا يدفعه ، وأصبح يعفى من ضريبة الأرض ، إذا أتلف الفيضان ، أو الجفاف زراعته ، أو ألمت بالزراعة كارثة من حريق أو نحوه . غير أن آفة الرشوة ، لدى الموظفين والشره المتمكن من نفوس الملاك . يكادان يذهبان بهذه المزايا ، والتحسينات التى حصل عليها الفلاح .

وقد صدر فى سنة ١٩١٢ قانون الخمسة الأفدنة . لمصلحة الفلاح . وهو يقضى بمنع الحجز على الفلاح ، إذا كان يملك خمسة أفدنة فأقل ، وعلى عدم جواز الحجز على أدوات عمله وعلى منزله فى حدود معينة .

وأسست صناديق الإدخار فى القرى ، ليودع فيها الفلاحون مدخراتهم ، لكن هذا المشروع لم يلق نجاحاً ، وألغى بعد الحرب ، لأن الفلاح لم يألف الإدخار بعد .

وفى سنة ١٩٠٢ ، عقب تجربة ، قام بها البنك الأهلى ، أسس « البنك الزراعى المصرى » لإقراض صغار الزراع بفائدة ٩ ./. وأنشأ فروعاً له فى عواصم الأقاليم . وكانت ديونه تحصل من الفلاحين ، قبل الضرائب الرسمية ، ونجح أول الأمر فى عمله ، بيد أن تعقد الإجراءات وكثرتها وبعد فروعه عن عملائه ، فى القرى الصغيرة ، بعداً شاسعاً ، والتشدد فى تقاضى دينه ، تشدداً غير مألوف ، جعل الفلاح يفضل عليه ، خدمة المرابى لقلة إجراءاتها ، وسهولة الحصول عليها ، ومع ذلك ، فإن ما أدركه البنك ، من نجاح نسبى ، كان يمكن أن ينمو لو أن تطبيق قانون الخمسة أفدنة ، الذى محا كل ضمان لقروضه ، لم يصوب إليه الضربة القاصمة ، مما جعله يصفى أعماله فى سنة ١٩٣٠ .

وفى عام ١٩٣١ ، أنشأت الحكومة « بنك التسليف الزراعى المصرى » بمعاونة كبار مصارف القاهرة .

والفكرة من إنشائه ، هى نفس الفكرة التى قام عليها إنشاء البنك الزراعى المصرى ، بعد أن نقحت ، وروعى فى تنفيذها ، ضمان النجاح ، وتجنب الأخطاء ،

ولكى تسهل الحكومة نجاحه وافقت على إقراضه مليوناً من الجنيهات ، ووقفت العمل بقانون الخمسة أفدنة

هذه المؤسسة الجديدة ، التى صارت بعد ذلك ، هى « بنك التسليف الزراعى والتعاونى » تقدم إلى صغار الملاك بفائدة ٧ ./. ، وإلى الجمعيات التعاونية بفائدة ٥ ./. المبالغ الضرورية للزراعة ، وجنى المحصول ، وشراء المواشى ، وتحسين الأرض ، وهى تبيع السماد والبذور المنتقاة بالأجل لصغار الملاك (وكذلك المستأجرون والشركاء) وتقرضهم إلى ٨٠ ./. من قيمة غلاتهم المودعة فى الشون الكثيرة ، المنتشرة فى أنحاء الريف .

ولما كانت تفهم العقلية القروية ، وقد أفادتها تجربة « البنك الزراعى » فقد منحت فروعها وعمالها ، سلطة كافية ، وبسطت الإجراءات إلى أقصى حد ، وبذلك ربحت ثقة الفلاحين ، وإقبالهم عليها ، وابتعادهم عن المرابين . ومع ذلك فربما لوحظ ،

أنها توجه أكبر عنايتها ، إلى متوسطى الملاك ، وكبارهم ، مفضلة أياهم على الملاك الصغار ، وهذا مما يؤخذ عليها .

وهى تشجع الجمعيات التعاونية وتعاونها على القيام بمهمتها ، وذلك بإقراضها ما تريده بشروط حسنة .

وقد أولت الحكومة هذه الجمعيات عناية كبيرة ، وأصدرت قانون سنة ١٩٢٣ المعدل بقانون سنة ١٩٢٧ ، والمكمل بعد ذلك بقانون ١٩٤٤ ، وأمدتها بالقروض والتشجيعات ، لكى يتضاعف عددها ، ومقدرتها ، وتصبح قادرة على شراء البذور والأسمدة والمواشى ، والآلات الزراعية ، بأفضل الأسعار .

وفى سنة ١٩٣١ ، أسندت هذه المهمة ، إلى بنك التسليف ، فقام بها خير قيام وبفضله زاد عدد هذه الجمعيات من ١٤٧ فى سنة ١٩٢٧ إلى ١٦٤٠ فى سنة ١٩٥٠ ، ووصل عدد المشتركين إلى نصف مليون مشترك .

ومزايا هذه الجمعيات ، لا جدال فيها ، فقد كفت يد المرابين ، ونظمت الإنتاج ، ورفعت الأثمان ، وأدخلت التحسين على جميع أنواع المحاصيل ، فى الجودة ، وفى الكمية .

وحرصت على البيع والشراء بأفضل الشروط ، كما عنيت بالمساهمة فى الخدمات.

وفى الوجه البحرى ، وفى إقليم البحيرة ، على الأخص ، عدد كبير من هذه الجمعيات ، وهى رغم كثرتها ، قليلة بالنسبة لمجموع الأهالى ، ومضاعفتها واجبة ، للقيام بحاجات الفلاح ، الذى هو فى أشد الحاجة إليها ، لمداواة تأخره الإجتماعى ، وتحقيق تقدمه المادى .

ومن أجل حماية الفلاح ، والأخذ بناصره ، أصدرت الحكومة ، القوانين والمشروعات الآتية :

١ — قانون سنة ١٨٩٦ لتحريم الربا الفاحش ، وتشديد العقوبة على الإقراض بفائدة تتجاوز الحد القانونى .

٢ — إنشاء حلقات الأقطان (قانون سنة ١٩١٢) حيث يراقب البيع والوزن. ويتم حسب الأسعار الرسمية ، وحسب الوزن الرسمى .

٣ — ألغيت فى سنة ١٩٢٠ ضريبة النخيل .

٤ — ألغيت فى سنة ١٩٣٦ ضريبة الغفر التى كان الفلاح ملزماً بدفعها .

* * *

وإذا كان الفلاح فى حاجة إلى يد قوية ، تمتد لمساعدته على تنظيم حالته المادية ، فإنه أشد من ذلك حاجة إلى العناية بحالته الصحية . وهناك مشروعات كثيرة ، فكر فيها المختصون ، ولكن لم ينفذ منها إلا القليل ، الذى لا يكاد يذكر .

وفى مقدمة هذه المشروعات :

١ — الماء الصالح للشرب .

يتمتع بشرب الماء النقى الآن عدد من السكان ، لا يتجاوز ٣٥٪ وهؤلاء هم أهل المدن . وقد أنشأت الحكومة ، فى بضع السنوات الأخيرة ، كثيراً من محطات الماء النقى ، وكان قد بدىء بمحافظة الفيوم فى سنة ١٩٤٩ ، لأنها أبعد المديريات عن النيل ، وجاء فى خطبة العرش فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥١ ما يأتى :

« وعنيت حكومتى ، على الأخص ، برفاهية المدن والقرى ، وعلى الأخص ، بإيصال الماء الصالح للشرب ، للقرى وبتحسين حالتها الصحية ، وتنفيذاً لما وعدت ، تابعت بعناية شديدة ، عنايتها بمسألة الماء النقى ، وقد تم من ذلك تقديمه لنحو ثلاثة آلاف قروى . وقد قدمت عملية تنفيذ محطة فوه للمقاولين ، وهى معدة لتغذية نحو مليون من السكان » .

ولكن الفلاح ، بطبيعته ، قليل المسارعة إلى الانتفاع بهذه الإصلاحات ، ففى بلدة نكلا ، على سبيل التمثيل ، وهى قرية كبيرة عدد سكانها نحو ٢٠٠٠ نسمة ، وهى قريبة من مركز أبو تيج ، أدخل الماء النقى إلى هذه القرية ، فكانت كل فلاحة تدفع مليما ، عن كل صفيحة للحنفيات العمومية ، وقد جعلها هذا المبلغ اليسير ، تفضل الذهاب إلى النهر ، لملء جرتها من ماء النهر الغنى المجانى ، وقد اضطرت الجهات

المسئولة ، إلى تعيين حراس ، لمنع هاته النسوة ، وإرغامهن على استعمال هذا الماء النقى الذى يكرهن إستعماله .

٣ — القرى النموذجية .

إتجه إهتمام الحكومة ، قبل الآن ، إلى إنشاء القرى النموذجية ، وقد أنشىء منها ، عدة قرى ، فى عهد محمد على ، وكان المعتقد ، أن يقبل الأهالى على محاكاتها ، والبناء على مثالها ، لكن الذى حدث ، هو أن نموذجها لم يعجب الفلاحين ، والآن ، يمر بها الناظر ، فلا يجد لها ميزة على ما عداها من المساكن .

وقد حولت بما طرأ عليها من التعديل والتغيير حسب حاجة الفلاح فأصبحت كغيرها من المساكن المجاورة .

وفى عام ١٩١٤ . أنشئت ثلاث قرى نموذجية متراصة ، تحتوى كل واحدة منها على ١٨٠ منزلا منها ١٦٩ للفلاحين وباقيها للمرافق العامة ، وكل منزل منها ، يحتوى على حجرتين وردهة .

ولم يؤد إستعمال هذه المنازل النموذجية ، إلى تحسين عادات الفلاح ، واضطر أصحابها ، إلى تعديلها على ما يوافق حاجاتهم .

وبعد عشرين سنة،عادت الحكومة إلى التفكير فى بناء القرى النموذجية وأنشأت بعض الدوائر الزراعية الكبرى لفلاحيها ، مساكن من هذا الطراز فى تفاتيشها .

وأحسن هذه النماذج هى عزبة بهتيم ، التابعة للجمعية الزراعية الملكية، بدىء فى تأسيسها سنة ١٩٣٤حيث أنشىء ثلاثون منزلا ، لسكنى المزارعين ، و٣منازل للموظفين وللإدارة ، وقد بنيت المنازل ، من الشمال للجنوب ، على خمسة صفوف مقسمة إلى مجموعتين ، بينهما شارع ، يتسع فى الوسط ، على شكل ميدان ، وكل صفين ، بينهما شارع عرضه ستة أمتار ، يسمح للشمس أن تتخلل جميع المساكن .

والمنازل مبنية بالآجر ، وسقوفها من الأسمنت المسلح ، والأرض مرتفعة بعلو ٣٠ سنتيمترا ، والارتفاع ٤ أمتار ومنها عشرون منزلا كل منها يتألف من غرفتين ، وفناء داخلى ، وحظيرة للماشية ، ولكل منزل مرحاض ، على طراز صحى .

وعشرة منازل أخرى ، أكثر إتساعاً ، يتألف كل منها من ثلاث حجر ومدخل ، وملحقات أخرى ، وهذه المنازل يسكنها رؤساء العمال ، مع عائلاتهم ، وهى فى الغالب الزوج والزوجة ، والأبناء .

وقد بنيت الأفران للخبز وعددها ستة ، على بعد كاف من المنازل ، منعاً لمضايقة السكان . ولكل أسرة حق استعمالها ، كل فى دورها .

وبنى ستة حمامات ، منها ٤ للرجال ، و٢ للنساء ، ويمكن استخدامها لغسل الملابس

وبها صالة اجتماع تسع ٧٠ شخصاً تستخدم للحفلات ، فى الزواج ، وفى الوفاة للاجتماع .

والمسجد مبنى على سطح ٦٠ متراً مربعا .

والمدرسة ، لتعليم الأطفال ، على برامج المدارس الأولية الإلزامية ، وهى مفتوحة للبنين والبنات .

وهناك بضع حوانيت للبيع والشراء ، لكى يتمكن سكان القرية من شراء حاجياتهم بدون انتقال إلى جهة بعيدة .

ودوار كبير ، يشتمل على ستة مخازن ، لتخزين مختلف أنواع المحاصيل ولتخزين علف الماشية ، والآلات الزراعية ، وصهريج الماء ، الذى يملأ بآلة رافعة ، مركبة على بئر ارتوازى .

لكن هذا البناء الذى يتطلب نفقات كبيرة (عشرة آلاف جنيه) يعجز الأفراد عن تقليده ، أو بناء مثله ، وعلى هذا يجب أن نجد مثالا أقل نفقة وأقرب إلى عادات الأهالى ، دون تضحية الاعتبارات الصحية .

ففى سنة ١٩٣٦ ، قدمت الجمعية الزراعية للملاك ، مثالا آخر ، ٢٠ منزلا من نوع آخر مختلف وهو عبارة عن مجموعات ، كل مجموعة ٤ مساكن متلاصقة ، تتخلل هذه المجموعات ، شوارع عرضها ستة أمتار ، وهى مبنية من الطوب غير المحروق (الأخضر) والسقوف من الخشب ، وكل حجرة مسطحها ٤ أمتار ونصف متر فى ٣ أمتار ونصف ، ولها فناء صغير ، وبها فرن خاص ، وكل منزل مكون من حجرتين .

والحكومة ، من جانبها ، تبنى ، من وقت لآخر ، قرية نموذجية فقد بنت قرية ميت فارس (مصر السفلى) التى كانت قد أتت عليها النيران ، فتهدمت منازلها عن آخرها .

وقد أعد تصميم هذه القرية على أن تكون منازلها ذات طابق أو طابقين ، مجهزة بالماء الصالح للشرب ، متصلة بالمجارى ، ذات شوارع واسعة ، تصطف الأشجار على جانبيها وفى وسطها صالة للاجتماع ، ومسجد ومدرسة . وخارجها ساحة للسوق الأسبوعى ، ومستودعات ، ومخازن للأخشاب ، وللسماد والحبوب ، ومضخة للحريق ، وأن تكون معدة لسكنى (٢٠٠٠٠ عشرين ألف ساكن) على طراز بديع ، وعلى مساحة ٤٥ فدانا .

وهناك قرية كورنا ، فى وادى الملوك بالأقصر ، روعى فى بنائها أن تكون على الطراز المصرى الزراعى .

لكن قرية نموذجية واحدة ، تبنى وسط محيط كبير ، تكون كنقطة ماء وسط المحيط ، ولا ينتفع بها سوى أفراد قليلين ، وأقل منهم من يستطيع أن يجعلها مثالا يقلده الفلاح ، ويبنى مثله لعجز وسائلهم المالية .

وعلى هذا يحسن إنفاق المال فى مشروعات أكثر فائدة ، وأوسع نطاقا ، كما يقول معارضو هذه الفكرة ، هذا إلى أن من شأن تخصيص بعض القرى ، دون البعض ، فيه ظلم بين ، إذ لماذا تكون قرى معينة ، هى دون غيرها ، القرى النموذجية ، بينما تكون بقية القرى محرومة من هذا الحظ ، باقية فى التعاسة .

وقد كان هناك مشروع لإعادة بناء ٤٠٠٠ آلاف قرية ، فى مدى خمس سنوات وهذا العدد هو كل قرى مصر وقدر لهذا المشروع مبلغ ثلاثين مليونا من الجنيهات ؛ ولم يكن مثل هذا المبلغ مغالى فيه ، ولا صعب التحقيق إذا لاحظنا أن الحكومة أنفقت على بناء القناطر وإنشاء مشروعات الرى نحو ٤٥ مليونا من الجنيهات .

ولم يتحقق مشروع إعادة بناء القرى ، وعدلت الحكومة عن تنفيذه ، أما بسبب أعباء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وما تقتضيه من ميزانية كبيرة ، وأما لضعف الدافع القومى والوطنى لدى المسئولين إذ ذاك .

٣ — إصلاح النظام الإدارى :

كانت اللجنة التى شكلت لإصلاح نظام العمد الإقطاعى ، وتحسين القرية ، قد اقترحت تعميم نظام المجالس البلدية التى كان يوجد منها حينئذ عدد كبير ، يعد بالمئات فى المدن الرئيسية .

وكانت هذه المجالس تؤلف من المدير أو المأمور ، ومفتش الصحة ، ومن أربعة أعضاء منتخبين ، وأعضاء آخرين يعينهم وزير الداخلية .

وهناك المجالس القروية ، وهى أصغر نطاقا من المجالس البلدية ، بطبيعة الحال .

وقد أنشئت سنة ١٩١٨ وعددها الآن ٢٤٠ وهى نوع مصغر من المجالس البلدية ، وتتألف بنفس الطريقة ، ومواردها محدودة ، وتقوم عادة برصف الشوارع الرئيسية وتشرف على المتنزه العام المنشأ بالقرية ، وعلى مصابيح الإضاءة ونظافة القرية ، وهناك مجال لنهوض هذه المجالس حتى تكون أقوى مما هى الآن وأكثر تمثيلا للقرية .

ومن النواحى الهامة ، فى إصلاح القرية ، مسألة العمد ، وهل يكون تعيينهم بالانتخاب من أهالى القرية أم بالتعيين ؟ وإذا كان بالانتخاب فهل يكون للعمدة من القوة ، ما يجعله قادراً على القيام بعمله ؟

وهل يلغى نظام العمد نفسه ، ويعين فى القرية موظف يقوم بتصريف الأعمال المحافظة على الأمن .

٤ — إصلاحات أخرى :

ويتداول التفكير فى شأن الريف الآن عدة نواح أخرى منها مسألة الحفاء ، وما يسببه من مرض الإنكلوستوما ، وضرورة النظر فى وقاء للرجل ، يستعمله الفلاحون ، ومن تلك النواحى أيضاً ، بناء المراحيض العامة ، وكذلك يدور البحث حول تشجيع قيام الصناعات الزراعية ، منعا لأضرار البطالة وتحسينا لدخل الأسرة .

ويجب إلزام الملاك بالإقامة فى أطيانهم عشرة أشهر فى السنة ، وبإلزامهم أيضا

بأن يبنوا لفلاحيهم مساكن تصلح لسكنى الآدميين ! ، وتحسين المواصلات ، التى تسهل ربط القرية بالعالم المتمدن .

وأخيراً جميع ما يجب أن يعمل من أجل رفاهية هذه الجماهير العاملة فى الزراعة . كل هذا تناوله البحث ، وكان مجالا لعدد من التجارب والمحاولات .

لكن التجربة التى نالت أكبر حظ من النجاح ، كانت تجربة المراكز الاجتماعية أى هذه الخلايا الريفية التى تتكون من ، طبيب ، ومهندس زراعى ، ومرشد إجتماعى ، وتمد القرية ، بالخدمات ، الصحية والاقتصادية والاجتماعية ، متعاونة فى ذلك ، مع سائر الأجهزة باذلة جهدها ، لتوعية الفلاح ، وترغيبه ، فى المساهمة فيما يعود عليه بالمصلحة .

وقد أنشىء المركزان الأولان من هذه المراكز فى عام ١٩٤١ ، أنشأتهما الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، والآن ، بلغ عدد هذه المراكز ١٥٠ مركزاً تابعة لوزارة الشئون الاجتماعية ، وهذه المراكز ، تقوم بخدمة مليون ونصف مليون من الفلاحين .

وقد أسست هذه المراكز بمشاركة القرى ، إذ تقوم القرية بتقديم قطعة من الأرض ، مساحتها فدانان ، ومبلغ ١٥٠٠ جنيه مصرى ، وتقوم الحكومة بدفع ٦٠٠٠ جنيه . وقد زرنا أحد هذه المراكز ، وطبيعى أن الحكم بمدى نجاحها غير مستطاع الآن ، ولا بد من مضى عشر سنوات على الأقل ، حتى تظهر نتائجها .

والمنازل القروية لا تزال على حالتها . أما الطرق ، والحارات ، فقد طهرت من القمامة ، وقد زاد دخل الأراضى ، وتعلم الفلاحون تربية النحل ونجحت المناحل عندهم نجاحاً طيباً .

وقد وجدنا الأهالى ، بالتعاون بينهم ، قاموا بردم بركة ، وأقاموا فوق مكانها ناديا لجلوسهم وسمرهم وبه أماكن وأدوات الرياضة ، ووجدنا هذا النادى ، تسوده روح التعاون والتفاهم .

ولا تزال الأراضى القابلة للإصلاح تشمل مساحة واسعة .

والمستفيدون من هذه الخدمات حتى الآن ، لا يزالون قليلى العدد لا يتجاوزون بضعة آلاف من المليون والتطور بطىء ، لا يكاد يحس ، ولا يزال ملمح الركود بادياً على هذه الجماهير .

لا جدال فى أن حالة القرى بالغة نهاية السوء . والوزراء الذين يتولون الحكم ، وكذلك زعماء المعارضة ، والخبراء الاجتماعيون من مصريين وأجانب ، وكذلك بعض كبار الملاك ، هؤلاء كلهم يجمعون على ذلك ،

وبعد الحرب العظمى ، التى جلبت الثراء للكثيرين من الناس ، وبعد ما أصاب البلاد من وباء الطاعون الذى كاد يفتك بها ، رأى المسئولون أن حالة الفلاح أصبحت محزنة ، وفكروا فى اتخاذ إجراءات ملائمة . فصدر قرار مجلس الوزراء سنة ١٩٤٦ بتأليف « اللجنة العليا لمكافحة الفقر والجهل والمرض » .

واشتملت المذكرة التفسيرية للقرار المذكور على أربع وثلاثين نقطة لشرح المهمة التى نيطت بهذه اللجنة . وعلى أثر ذلك أعدت بضعة مشاريع ، ولكن بأيها يكون البدء ، وما هو المشروع رقم ١ ؟ .

وقال أحد المسئولين :

« إنى لا أتصور أن تكون هناك جهالة خطيرة ، إذا كانت هناك ثروة ، ويسر مادى ولا أتصور غنياً يكون مريضاً بسبب سوء التغذية ، أو العجز عن العناية بصحته . وعلى هذا ، يجب أن نكافح الفقر أولا .

فليكن الأساس الذى نبدأ به هو الإصلاح الزراعى . لنبدأ بتوزيع الأراضى المستصلحة حديثاً على صغار الزراع ، لكل منهم خمسة أفدنة ومنزل ، وجاموسة . وما يلزمه من السماد . على ألا يدفع شيئاً خلال عامين . وبعد ذلك . يدفع عشرة جنيهات سنويا لمدة ثلاثين عاماً . وفى نهاية هذه المدة يصير مالكا للأرض .

وعلى أحد الأبنية ، فى إحدى القرى النموذجية ، علقت لوحة مكتوب عليها « لا جوع ولا عطش ، فى عهد حكومتنا ، الفقير ليس مسئولا عن فقرة وإنما المسئول هو الغنى » .

فلنعط الفقير حقه ، لنعطه إياه بدون أن يطلبه» .

وهذه العبارات كانت بعض التصريحات التى تضمنتها خطب الحاكمين إذ ذاك .

وهناك ، مع ذلك ميول طيبة نحو محاربة الفقر ، وتحقيق العدالة الاجتماعية وفى مقدمة هذه الجهود ، التأمينات الاجتماعية ، وتقديم وجبات الغداء للتلاميذ مجاناً ، وإلغاء مصروفات التعليم ، والعناية بصحة التلاميذ .

لكن لم تخصص إلى الآن ميزانيات أو إعتمادات للقيام بإصلاح زراعى .

وبعض المفكرين ، يفضل الاهتمام أولا بعلاج الأمراض التى تغزو أجسام الأغلبية الكبرى من الأهالى ، واتخاذ الاحتياطات الصحية للوقاية من الأوبئة التى تفتك بنسبة لا تقل عن عشرة فى المائة من مجموع السكان ، وهذا عدا الذين ينجون من الموت ، ولكن يظلون مصابين بفقر الدم وضعف الأجسام بسبب هذه الحميات الخبيثة .

والواقع أن هؤلاء المرضى المنهوكى القوى , قلما يستطيعون العمل المنتج أو يتجهون إلى تعليم أنفسهم بأنفسهم وهم فى هذه الحالة من الإعياء والمرض .

ومع هذا فقد قامت الحكومة بعدد من الأعمال والإنشاءات ، فبنت عدداً من محطات المياه ومن المجموعات الصحية ، والمستشفيات ، كما أنشأت كليات طب جديدة .

وبين عامى ١٩٤٥ و ١٩٥٠ صعد عدد الوحدات الصحية الريفية من ٨٥ إلى ١٧٨ ، وأصبح عدد من تخرجهم كليات الطب كل عام نحو مائتى طبيب .

وأصبحت كليات الطب تمد وتغذى بخدماتها الصحية سكان المحافظات وهذا يدل على مبلغ الجهد الذى قامت به الدولة من هذه الناحية .

غير أن هذه الجهود ، يجب أن تصحبها جهود مثلها لمحاربة الأمية ، إذ أن هذه الأمية هى أكبر أسباب الضعف من ناحية معرفة ما ينقص الشخص من المعلومات المثقفة ، التى تعينه على التقدم فى مهنته ، ومن ناحية معرفة المعلومات الصحية التى تجعله قادراً على إتقاء أسباب المرض والمحافظة على صحته .

قال الدكتور « كليلاند wendel Cleland » « إن محاربة الأمية هى فى الوقت نفسه محاربة الفقر » .

وقال الأستاذ عبد القادر حمزه باشا :

« إننى أعتبر أن كل إصلاح لا يكون على أساس تعليم الشعب ، يكون مآله الإخفاق أو على الأقل ، إطالة الزمن إلى حد كبير ، وهذا الزمن ، نحن فى أشد الحاجة إليه ، وعلى هذا ، يكون بناء القرى النموذجية أو إذاعة النصائح الاجتماعية أو الصحية عن طريق السينما أو الإذاعة ، عملا لا فائدة منه ، إذا لم يتعلم الجمهور ، ليصبح قادراً على الاستفادة من هذه الوسائل والانتفاع بها .

وكتب الأستاذ محمد العشماوى باشا :

« إن أول مرض يجب مكافحته ، لأنه هو مصدر المرضين الآخرين ، هو الجهل ولن يجدى أى مجهود ، ما لم نتغلب على هذا العدو ، وبعد ذلك نهاجم زميليه الفقر ، والمرض ، كلا فى دوره .

ولقد قامت الدولة ، من جانبها ، بما عليها ، وأظهرت رغبتها الكاملة فى أداء واجبها ، وأنفقت من المبالغ ما تشكر عليه ، وحققت إنجازات تستحق التقدير ، فى السنوات الأخيرة ، ولكن النجاح لم يكن بنسبة ما بذل من جهود فلماذا ؟

يرجع السبب إلى أنه ليس هناك برنامج متكامل ، متصل ، يستمر إتمامه ، مهما تغيرت الوزارات ، وإن السياسة تتدخل فتوقف المشروعات التى أعدتها وزارات سابقة ، ويعاد النظر فيها وتغييرها حتى لا يكون للعهد السابق فضل فى المشروعات العامة ، بل يكون الفضل للوزارات التى تأتى بعدها ، وربما سقطت هذه الوزارات قبل الإتمام فتمثل الرواية من جديد وهكذا .

ومن ناحية أخرى ، فالمشروعات والإصلاحات ، يعدها أناس بعيدون عن فهم شئون الفلاح ، وينفذها موظفون ، ينقصهم العطف على القرية ومحبة الفلاح ، وهذه المشروعات تحمل طابع التقليد ، والمحاكاة للبلاد الأخرى ، وتكون للدعاية الحزبية

أكثر مما تكون لحاجة الفلاح الحقيقية ، وبيئته المحلية ، ولايعنى واضعوها ، بما عليه الفلاح من عادات وأفكار ، بل يعنون بالنماذج المقلدة ، الموضوعة لبيئات أخرى ، أو المعدة حسب فكرة غير محددة ، فهى ترسم فى الذهن ، ثم تفرض على الفلاح رغما عنه ، فتثير عنده رغبة المقاومة والتمرد ، وتكون كالطلاء لا تصل إلى أعماقه ، ولا تختلط بروحه ، ولاتوقظ فى نفسه الحماسة ولا المساهمة فيها ، على نحو يجعله يشك فى حسن قصد الحكومة ، ولا يقدر لها عطفها عليه ، بل يخضع لها ، كما يخضع للضرائب ، أوكما يذهب الطفل إلى المدرسة وهو كاره ، إن لم نقل كما يتقبل المحكوم عليه الغرامة والحبس وهو مرغم .

وقد كان للأعمال والجهود الخاصة أثرها الطيب ، فى حقل الرعاية الصحية والاجتماعية مع بساطة مظهرها ، وتواضع ميزانياتها ، بالنسبة للمؤسسات والجهود التى تقوم بها الدولة لأن هذه المؤسسات ، استجلبت برفقها محبة الفلاح أولا وكسبت ثقته ومعاونته ، فهى تعمل معه وله ، وتنصحه ولا تأمره أو ترغمه وقد حرصت على إرضاء كرامته الإنسانية ومشاعره وإحساساته ولهذا حققت نجاحا طيبا وأدت خدمات تستحق الثناء .

وأنشأت المستشفيات ، والعيادات ، فى كثير من قرى الريف النائية ، وقد كان الفلاحون يهرعون إلى هذه المستشفيات والعيادات البسيطة المتواضعة البناء ، التى يجدون فيها من روح المحبة الإنسانية والرحمة والشفقة ، ما لايجدون مثله فى المؤسسات الحكومية ذات البناء الفخم .

من هذه المنشآت الخيرية ، مستشفيات البروستانت ، ومبرة محمد على الكبير ، ومستشفى الهلال الأحمر ، الذى يسجل له ما أبلى من جهد مشكور ، أيام ظهور الكوليرا بالبلاد .

كما أنشأ هؤلاء الخيرون قرى نموذجية عديدة منها قرية سنديس التى قامت مؤسسة روكفلر بإعادة بنائها على نمط حديث ، وقرية العجايزة التى جددها بنك الكريدى ليونيه ، وقرية كراكوس التى بناها الآباء الجزويت .

ومن تلك الأعمال والجهود الطيبة أعمال اجتماعية ، وعناية بشئون الفلاحين وإدخال السرور عليهم فى أعيادهم واجتماعاتهم إذ أخذ كثير من ملاك الغرب يهيئون لفلاحيهم فرص السرور والاحتفالات وإشاعة روح المحبة والتعاون .

تلك كلها جهود قليلة ، ولكن ـ كما قال كونفوشيوس « أن إيقاد شمعة فى الظلام خير من البكاء طول الليل فى الظلام » .

وبعد ، فإن عشرين عاما من العمل لا تعد شيئاً يذكر ، فى سبيل أنها من شعب عاش أجيالا طويلة ، وهو يعانى الإهمال والضياع حتى أو شكت أن تنطفئ شعلة النور التى تضىء له ، من داخله وتوجهه فى طريق نهضته .

خاتمة

بؤس الفلاح

يتمثل بؤس الفلاح فى صورتين ، الأولى ، بؤسه المادى ، وحرمانه من مقومات حياته الجسمية فهو فقير ، لا يكاد يجد القوت ، والملبس ، والمسكن .

أما الصورة الأخرى لبؤسه ، فهى معنوية تتمثل فى حرمانه من التعليم ، وجهله ، وذلته وهوانه على نفسه وعلى غيره ، حتى أصبح دون المستوى الإنسانى من هذه الناحية .

والفقر المادى يحس فى الحال ، وتظهر آثاره ولذلك فهو مثار الاهتمام السريع العاجل ، بالبحث عن المسكن وعن الغذاء والكساء وهو السبب الواضح لآلام الفلاح ومتاعبه . ومنه وجدت الخطب والدعايات ، مادة حديثها فى الترشيحات النيابية والخطب البرلمانية .

وقد قال على الشمسى باشا من خطبة ألقاها فى مجلس النواب سنة ١٩٣٩ ما يأتى .

«ليس هذا الموضوع جديداً فقد ورد الحديث عنه فى جميع خطب العرش التى تتابعت منذ بدء حياتنا النيابية ،أن ما نعانيه ليس عدة أمراض مختلفة ، يمكن علاجها ، كلا على حدة ، وإنما نحن نعانى مرضا واحداً هو السبب الأساسى لجميع أمراضنا ، ذلك هو إنخفاض مستوى معيشة السكان فى الريف ، وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ،إنخفاضاً صارخا يجرح الشعور الإنسانى ، ويشين كرامة الشعب المصرى ، أن الشعب المصرى ليس هو المائة والستين ألفاً أو المائتى ألف شخص الذين يعيشون فى سعة نسبية ، بل الشعب المصرى هو الستة عشر مليوناً من الأنفس الذين يعيشون فوق الرقعة المصرية » .

إن انخفاض مستوى المعيشة فى مصر يتمثل أيضاً فى ذلك الحرمان والبؤس الأدبى والنفسى ، الذى يصل إلى حد نضوب المعين النفسى والأدبى ، وتحطم الروح البشرية ، ذلك الفقر والجوع المعنوى المخيف الذى يخيم على الأفراد والجماعات .

هذا الجوع الأدبي والمعنوى ، الذى يتزود منه الفلاح بأوفى نصيب ، جهله ، وغفلته ، وإظلام روحه ، وعبوديته ، بجانب ما عليه القلة التى تحكمه من علم وثقافة وترف وشموخ وثراء ، هذا الاختلاف بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة وما يبدو فيه من ظلم صارخ . ذلك هو الذى يجسم المأساة ويجعلها أشد فداحة من الفقر نفسه ومن الحرمان المادى .

وليس عدم إحساس الفلاح بهذا البؤس الصارخ مما يهون من المصاب ، وحينما يبدأ الفلاح يشعر بالظلم ، ويحس الألم والمضض ، فستبدأ ساعة التحرر والخلاص .

أى ظلم أفدح ، وأى وضع أنكى من وضع الفلاح ؟ لقد حرم من نعمة التثقيف والترقية ، والتربية والتعليم ، ثم عوقب من ولاة أموره ، الذين تجب عليهم المسارعة إلى إنتشاله مما هو فيه ، بالتنكير والعقوق بل بالاحتقار والإهمال .

تلك المآسى من فقر وجوع وجهل ومرض ، من أسبابها التفكك والتمزق ، وانقطاع الصلة بين البلاد ، فبين الوجه البحرى ، والوجه القبلى قطيعة وتباعد ، ومثل ذلك بين العاصمة وسائر البلاد ، وكذلك بين البلاد ، بعضها وبعض .

هذا ، وحينما تدعو ضرورة العيش والتماس الرزق ، بعض أهالى الريف للهجرة إلى المدن ، يظل هؤلاء الريفيون حالهم من الخشونة ، وسوء المظهر ، ويبلغ عدد من يهاجرون ، من الريف إلى القاهرة والإسكندرية وباقى العواصم نحو خمسمائة ألف شخص كل سنة .

وفى القاهرة أحياء تتجمع فيها طوائف النازحين من الريف ، وهذه التجمعات تكون ما يشبه القرى داخل المدينة إذ يتجمع الألوف من إقليم واحد متجانس فتكون كأنها قرية انتقلت برمتها إلى هذا المكان المتخلف من أمكنة المدينة ، كما نجد فى حى الشرابية ، والقللى وغيرهما .

وسكان هذه القرى الصغيرة ، عادة ، يحافظون على وحدتهم ، وعلى علاقاتهم ويجتمعون فى قهاويهم ، ومنتدياتهم الخاصة وهم ، فى معظم الحالات ، لا تتركهم عاداتهم القروية .

وهم حينما ينزحون من قراهم ، يترك الكثيرون منهم أطفالهم وزوجاتهم فى قراهم ويجيء الرجال منهم فقط ، لأنهم على نية العودة إلى بلادهم .

ويلتحق كثير منهم بصناعة البناء والعمارة ، كمساعدين وحمالين ، تابعين لرؤسائهم من المقاولين والمتعهدين الذين ينقدونهم أجوراً سخية ، لكنهم يكونون معرضين للبطالة ، ويقيمون إقامة غير مستقرة ، فى أماكن ضيقة ، مزدحمة .

وبعد سنوات قليلة من التجربة ، يعود بعضهم إلى قراهم ، أشد فقراً مما كانوا ، وبعضهم يكون قد ادخر مايكفيه لشراء قطعة أرض صغيرة فى قريته ، ظل طول العمر يحلم بشرائها . وبعضهم يصبح من اللصوص والمجرمين نزلاء السجون . وكثير منهم تتهيأ له ظروف الاستقرار ، والعيش فى المدينة حيث يصبح من أهلها ، ويستتب له العمل فيها مقاولا أو متعهداً أو خادماً أو بائعاً متنقلا . وبعضهم ربما ساعده الحظ ، أو شاءت له الأقدار أن يصبح ثريا ، ويسكن الأحياء النظيفة .

وهم ، كما قلنا ، يظل بينهم وبين أهل المدينة فارق العادات والصفات على أن منهم تجاراً كباراً ، ومقاولين ورجال أعمال ، وسماسرة .

ومنهم من لا يعرف لأهل بلده ، من كانوا يعاشرونه أيام فقره ، حق الوفاء والولاء فلا يمد لهم يد المساعدة كما يفعل أبناء الجاليات والأقليات الأخرى بل ربما كان أشد وطأة عليهم وأكثر استغلالا لهم من سواه .

والمترفون من أهل المدن ، حينما يذهبون إلى الأرياف ، لضرورة عمل ، أو لقضاء أجازة ، قلما يزورون الفلاحين أو يتوددون لهم فى مساكنهم وقلما يعنيهم أمرهم ، أو يهمهم تعرف أحوالهم أو استطلاع شئونهم . وهم لا يعرفونهم إلا من أجل تحصيل الضرائب ، أو غلة الأرض ، أو لأجل الانتخابات أو للأعمال الحكومية .

ومدرسو المدارس ونظارها ، فيما يختص بتلاميذهم ، والملاك ، فيما يختص بمستأجرى أراضيهم ، أو مشاركيهم من المزارعين هؤلاء جميعاً ، يعرفون أن نجاح أعمالهم يحتاج إلى العناية بهؤلاء الفلاحين وأبنائهم وربما كان بعضهم ، يعرف واجبه الإنسانى نحو هؤلاء البؤساء .

وقد أصبحت الصحف تعنى بأبناء الريف ، وتهتم بشئونه ، وصارت السينما تهتم بعرض المشاكل الريفية وتعالجها بشجاعة ومن أهم الأفلام التى عرضتها دور السينما عن الريف فيلم « عاصفة على الريف » ، و « ليلى بنت الريف » و « ابن النيل » الخ.

وهنا يجىء دور المثقفين ويعرض التساؤل عما صنعوه من أجل مواطنيهم ، والواقع أن هذه الفئة المستعليه بالجاه والعلم والرفاهية ، قد تعودت أن تدير ظهرها للجماهير من مواطنيها ، محتفظة بثمرات ذكائها وثقافتها ومعارفها وثروتها ، لنفسها ، وللمغامرات السياسية ، وللأدب ، ولأوروبا ، وسم هذا بما شئت من تحلل ، أو ميوعة أو ضعف فى الوطنية . . .

ولا شك أن هذه الفئات المترفه ، تدرك من بعيد ، وتشعر بما للفلاح من فضل وبما يجب له من حقوق ، ولكنها لم تبذل من أجله جهداً يستحق الذكر .

وحينما تتظاهر الحكومات ، بالعطف على الفلاح ، يكون عطفها أشبه بالتمثيل المسرحى الخالى من الجد والصدق .

وقد ألقى النائب عبد الحليم أبو سيف راضى فى مجلس النواب خطبة جاء فيها ما يأتى :

« حينما يقوم أحد رؤساء الوزارات عندنا بجولة يزور فيها الريف ، ويتفقد أحواله .

يزوره فى ركب مؤلف من نحو ٣٠٠ جندى وضابط ، وعدد ضخم من كبار موظفى الدولة ولا يكون ثمت مجال لتفقد حالة الأهالى ولا لتعرف حاجاتهم عن كثب بل يكون المجال للزيارات والاستقبالات والولائم والحفلات وحدها » .

وعلى هذه الصورة ، نرى الفلاح كالطفل المهمل ، يشب ، وينمو ، دون أن ينمو معه وعيه وتفكيره ويظل لاصقا بالأرض ، راسبا فوق أديمها ، والأرض تحفظه فوق سطحها ، وتمنعه من أن يغوص فى أعماقها ، وهذا هو كل ما تستطيعه ، وليس من شأنها أن ترفعه إلى أعلا .

ولقد يتساءل الإنسان ، أليس فلاحنا أقل حظا من التعليم ، وأحط دركا من جميع فلاحى العالم ؟

والواقع أنه لا يشاهد فى أى بلد آخر ما يشاهد عندنا من هوان الفلاح ، وصغر شأنه فى بلده ، ولقد نشأ عن هذا الهوان أن أصبح ينظر بعين الكراهية إلى عمله ، وإلى حياته .

وأن الفلاح ليعرف أنه عماد الحياة الاقتصادية لبلده ، وأنه هو القوة المنتجة ولكن هذه المعرفة ، التى تثير لدى الجماهير الكادحة فى الشعوب الأخرى ، الاعتداد بنفسها والشعور بقيمتها ، لا ترفع من قيمة الفلاح فى نظر نفسه عندنا ، ولا تلهب فيه التحمس للمطالبة بحقوقه ورفع الغبن عنه .

وليس هذا ذنبه ، وإنما هو ذنب من يظلمونه ويستغلونه ويتحكمون فيه .

الأمر إذن متعلق بإذكاء الشعور الإنسانى فى نفس هذا الجمهور الشهيد ورفع معنوية أفراده وجماعاته ، وهذا واجب المتثقفين من أبنائه ، وعلى الأخص منهم ، من لهم أعمال ، ومصالح ، تدعوهم إلى زيارة الريف ، ومخالطة الفلاحين ، مثل ملاك الأراضى ومهندسى الزراعة والرى ، وذوى الأعمال التجارية ، وموظفى الحكومة ، ومندوبى الشركات والمصارف المالية وغيرهم ، هؤلاء يجب ألا تكون علاقتهم بالفلاحين قاصرة على ما تستدعيه مصالحهم وأعمالهم المادية بل يجب أن يعنوا بهؤلاء الفلاحين من النواحى الإنسانية ، وأن يبسطوا لهم ظلا من الصداقة والمودة ، فهذه الروح المشربة بالود والإخلاص هى وحدها ، التى يحتاج إليها الفلاح ، وهى القادرة على إنهاضه من عثرته .

ولقد لاحظنا أن بعض الزيارات الودية التى كان يقوم بها بعض السادة من الوجهاء ، أو من سكان المدينة لمدارسنا الريفية ، كانت تترك أحسن الأثر فى النفوس الريفية الطيبة حينما يشعر الريفيون أن هؤلاء السادة يجيئون إليهم ، لزيارتهم ، ويبدون لهم مثل هذه العناية والمجاملة .

هذه الرسالة السامية ، هى رسالة المعلمين ورجال الدين ، قبل غيرهم وهم الذين تدعوهم طبيعة عملهم ، إلى الاندماج والاختلاط بطبقات الأهلين وكل من يسهل هذه الرسالة ويساعد على أدائها ، يؤدى للوطن أنبل وأقدس واجب إنسانى .

والسيدات من زوجات وبنات كبار الملاك عليهن واجب نبيل ، تدعوهن إليه طبيعة وضعهن ، كسيدات مجتمع ، وكافراد عائلات كريمة ، نحو هؤلاء الفلاحين وأسرهم وأولادهم ، على الفتاة المهذبة ، أن تكون ملاك رحمة ، ومثال بر وشفقة فى هذا الوسط الريفى البائس ، حينما تذهب لتقضى شطراً من الوقت أو لتمضى الإجازة الصيفية بالعزبة ، عليها أن تعنى بجمع الريفيات ، كل مساء ، لتلقى عليهن نصائحها ، وإرشاداتها ، ولتذيع عليهن ثمار ما تعلمته وما عرفته بالعلم والدرس عما يفيد ويثقف ، ويعلم ويوسع المدارك ، وهذا هو واجب الفتيات والسيدات الذى يطالبهن المجتمع بأدائه ، الأمر ، بالاختصار ، يتطلب إعداد برامج للتعليم والتثقيف ، يدعمها الفهم السليم ، والنية الصادقة والعمل الجاد ، وليس الأمر أمر خطب وبيانات أو لجان وقرارات ...

يجب أن نوقظ ، بدون إزعاج أو إهاجة ، وأن نبذل المعونة ، فى تواضع ودون استعلاء ، أو استطالة وخيلاء ، أن نساعد على النمو والنهوض من غير اقتلاع للجذور .

ذلك هو واجب العاملين المخلصين ، عليهم أن يبدءوا وأن يستمروا ويثابروا فى صوفية وإنكار للذات ، من أجل هذا الوطن الذى هم أبناؤه المدينون له بنعمة الوجود والحياة

ونختم هذا الكتاب بهذه الفقرة التى اقتبسناها من رسالة لأحد كبار المفكرين من قادة الإصلاح وزعماء العصر وهى كلمة بيوس الثانى عشر .

« من مشاكل الفترة الحاضرة التى يمر بها العالم، مشكلة تفرض نفسها على المفكرين والمصلحين ورجال الأديان ، وهذه المشكلة حدثت بسبب ما يشاهد من زيادة الاتصال بين العالم الزراعى ، وعالم الصناعة والحضارة وما ينشأ عن ذلك من تعارض وتضارب بين النزعات والتيارات .

ففى الوقت الذى ترتفع فيه الأصوات بحق مطالبة بالعدالة الاجتماعية لجماهير أهل الريف ، وبرفع مستوى الحياة لهم ، يجب ، فى الوقت نفسه ألا تفوتنا حمايتهم من الآراء والنزعات الهدامة ، فى الوقت الذى تضاعف فيه الاتصال بين المدينة وبين

الريف يجب أن نحافظ على المثل والقيم الدينية والخلقية وأن ندفع عنها أسباب الضعف وغوائل التبدد والضياع .

ولكن يجب فى الوقت نفسه ألا نصم الآذان عن نتائج التجربة ، ومتطلبات التطور الذى تقتضيه سنة الحياة .

يجب أن ندع الخوف والضعف والجمود على القديم ، إذ العدالة الاجتماعية تتفق مع القيم الدينية ، وتتلاقى معها ، والسير تحت لوائهما معا ، يحقق الخير الكثير للعالم الزراعى .

الفلاح بعد الثورة

١ ـ الإصلاح الزراعى
٢ ـ التعاون والإنتاج
٣ ـ الوحدات المجمعة
٤ ـ مديرية التحرير
٥ ـ مشروع ناصر
٦ ـ الوادى الجديد
٧ ـ مياه الشرب
٨ ـ النهضة العلمية فى الريف
٩ ـ الصناعات الريفية

الإصلاح الزراعى

(إشتراكية تمليك — زيادة إنتاج — عدالة توزيع)

فى سبتمبر عام ١٩٥٢ أصدرت الثورة قانون الإصلاح الزراعى الأول الذى ألحقته بعد ٩ سنوات بالقانون الثانى فى يوليو ١٩٦١ . والقانون لا ينكر حق التملك ولكنه يحارب الاستغلال وسيطرة رأس المال ، والقانون جعل من عبيد الأرض ملاكا لها .

وقد حقق تطبيق الإصلاح الزراعى مكاسب ضخمة تتحدث عنها الأرقام التالية:

المنطقة	المحصول	إنتاج الفدان بالقنطار قبل الاستيلاء	إنتاج الفدان بالقنطار بعد الاستيلاء
شبين الكوم	قطن	٥ر٣	١ر٦
المنيا	قطن	٤	٣ر٧
إيتاى البارود	قطن	٦ر٢	٤
نجع حمادى	قصب	٦٢٦	٩١٥
أرمنت	قصب	١٠١٩	١١٠٧

ولقد تحققت العدالة الاجتماعية فأفاد من القانون مليون فرد كانوا معدمين فأصبحوا بعد القانون ملاكا . وتم الاستيلاء على حوالى مليون من الأفدنة تم التوزيع منها على ١٢٠ ألف أسرة ويتم توزيع ١٦٠ ألف فدان على ٥٣ ألف أسرة قريباً .

وتضمن القانون تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر فوضع حداً أعلى للقيمة النقدية الإيجارية وهو سبعة أمثال الضريبة كما أعطى المستأجر حق الحصول على نصف المحصول الناتج من الأرض عند الإيجار بالمشاركة ، كما حقق للمستأجر استقراراً فى الأرض التى يزرعها لآجال طويلة تمكنه من بذل الجهود وزيادة الإنتاج .

التعاون والإنتاج

حرصت الدولة على ضمان زيادة الإنتاج بأن ربطت البنيان التعاونى الزراعى بالقطاع الزراعى الذى يعمل بمختلف أجهزته وخبراته لرفع إنتاج الأرض . وصدر القرار الجمهورى عام ١٩٦٠ بضم التعاون الزراعى لقطاع الزراعة ، وأنشئت لهذا الغرض مؤسسة تعاونية زراعية عامة تشرف على الجمعيات التعاونية الزراعية وتستفيد من إمكانيات بنك التسليف الزراعى التعاونى فى القروض والموارد لهذه الجمعيات .

وهكذا أصبح التعاون بالنسبة للإصلاح الزراعى دعامة واقية وسياجا للصرح الإقتصادى الشامخ ضد أى انهيار . وقد أصبحت جمعيات الإصلاح التعاونية رائدة للجمعيات التعاونية الأخرى فى الجمهورية .

فبلغت قيمة التقاوى الممتازة للحاصلات الرئيسية التى قدمتها الجمعيات لأعضائها ٥٦٠ ألف جنيه وبلغت قيمة الأسمدة الكيماوية مليوناً و ٩٥٠ ألف جنيه وقيمة المبيدات الحشرية والمقاومة مليوناً و ٩٠٠ ألف جنيه حسب إحصائية سنة ١٩٦٣ .

الوحدات المجمعة

اتجهت الدولة إلى العناية بالريف ونظراً لأن أبناءه يكونون ثلاثة أرباع الأمة وهم أشد أبنائها حاجة إلى الخدمات الصحيه،لتوفر لهم العلاج والوقاية والبيئة الصالحة والخدمات الاجتماعية لتثبت فيهم الوعى الاجتماعى وروح التعاون وتعدهم لخدمة أنفسهم ، والخدمات التعليمة ، لتربى صغارهم وتثقف كبارهم وتخلق منهم المواطنين الصالحين .

فقد أنشئت الوحدات المجمعة لكى تنسق خدمات الوزارات المختلفة وتوفر لكل قرية أو مجموعة متقاربة من القرى مؤسسة واحدة تؤدى هذه الخدمات متعاونة مع أهلها وفقاً لبرنامج شامل متكامل للنهوض بالمجتمع الريفى .

وقد أقر الرئيس جمال عبد الناصر مشروع الوحدات المجمعة في ٧ أبريل سنة ١٩٥٤ ضمن برنامج ضخم للرعاية الاجتماعية أعده المجلس الدائم للخدمات العامة ويقضى المشروع بأن يقسم الريف إلى مناطق تضم كل منطقة حوالى ١٥٠٠٠ من السكان تقوم بخدمتها وحدة مجمعة ، وقد بلغ عدد الوحدات العامة ٨٦٨ وحدة منها ٢٦٨ منطقة تضم مجموعات صحية ومراكز إجتماعية والخطة الموضوعة لتعميم المشروع تتضمن إنشاء ٦٠٠ وحدة جديدة ثم استكمال المراكز الاجتماعية والمجمعات الصحية لتحويلها إلى وحدات مجمعة .

وقد خطت برامج التوسع فى الخدمات الريفيـــة خطوات واسعة إذ أصبحت الخدمات متوفرة فى مناطق تبلغ حوالى ٤٢ ٪ من الريف .

أهداف المشروع : يستهدف المشروع رسم خطة شاملة منسقة للنهوض بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى والتعاونى والصحى وكذا رفع مستوى الوعى وبث الروح التعاونية والخدمة العامة بين أفراد المجتمع حتى يعملوا لتحقيق الرخاء لمجتمعهم ، ولما كان هذا المجتمع وحدة متكاملة فلا بد أن يكون العلاج شاملا وأن تقوم الخدمات التى ترمى إلى التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى إطار واحد لتحقيق هدف واحد هو النهوض بالمجتمع نهوضاً شاملا ويتطلب هذا أن يعمل القادة من أهل القرية وموظفو الوحدة متعاونين كفريق واحد لتحقيق هذه الغايات ، وأن تكمل البرامج بعضها بعضاً . وأن رفاهية أفراد الأسرة الريفية هى غاية كل نشاط .

أقسام الوحدة المجمعة : تتكون الوحدة المجمعة من أربعة أقسام رئيسية .

١ — قسم الشئون الصحية .

٢ — قسم التربية والتعليم .

٣ — قسم الشئون الاجتماعية

٤ — قسم الشئون الزراعية .

مديرية التحرير

اتجهت الثورة إلى استصلاح وتعمير أكبر مساحة من الأراضى البور فحققت بذلك خمسة أهداف .

١ — توسيع الرقعة المنزرعة من الأرض لتناسب زيادة السكان .

٢ — تجربة استصلاح الأراضى التى جهزت لاستقبال مياه السد العالى .

٣ — اكتساب الخبرة فى استخدام المعدات الميكانيكية للإصلاح .

٤ — بث الثقة فى نفوس الأفراد بقدرتهم على القيام بالمشروعات الكبيرة .

٥ — خلق مجتمع ريفى نموذجى يقوم على أسس اشتراكية ديمقراطية تعاونية .

وكانت مديرية التحرير هى المثل الشامخ لهذه التجربة الكبرى ، فقد بدأ العمل بها فى أكتوبر ١٩٥٣ فى المنطقة الجنوبية ، وفى ١٩٥٦ وافق مجلس الوزراء على قيامها باستصلاح ١٥ ألف فدان على امتداد النوبارية وبلغ مجموع ما تم استصلاحه ما يقرب من ٥٠٠٠٠ فدان .

وقد أثبتت الزراعة فى المنطقة الجنوبية صلاحيتها وكفايتها ، وكانت طبيعة الأرض فى منطقة النوبارية مناسبة جداً لزراعة العنب والزيتون .

وقد تمت زراعة المنطقة الثالثة وهى على جانبى الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية ، وقد زرعت عدة حدائق فى بعض مساحات المنطقة وهذه مساحتها بالفدان .

مانجو ١٤٩٥ يوسفى ١٢٩٥ نخيل ٨٠ ليمون بلدى ١٤٥ ليمون أضاليا ٣٥ برتقال ٧٨٥ عنب ١٦٠ توت ٢٠ .

أما إنتاج اللبن بالمديرية فقد ارتفع من ٨٨٨٩ كيلو عام ١٩٥٥ إلى ٢٨٢٥٠٠٠ كيلو سنة ١٩٦٦ وأنشئت بالمديرية مصانع للتعبئة والحفظ تصدر الفواكه إلى الأسواق الأوربية كما أنشىء مصنع للعلب الصفيح وغرف للتبريد .

وقد تم تعمير وإنشاء خمس قرى بالمديرية هى أم صابر — عمر شاهين — عمر مكرم — صلاح الدين — أحمد عرابى ، والمركز الصناعى « بدر » .

وقد أقيمت مستعمرة سكنية فى ٢٥ وحدة زراعية قسمت بالمنطقة الصحراوية الواقعة على جانبى طريق مصر الاسكندرية الصحراوى وتبدأ من الكيلو ٥٠ إلى الكيلو ١٣٠ من القاهرة .

مشروع ناصر

تم إنشاء ١١ مزرعة متخصصة فى الإنتاج الحيوانى تربى فيها الحيوانات وبلغت مساحتها حوالى ٢٠٠٠ فدان ومنذ بداية المشروع حتى عام ١٩٦١ تم شراء ٣٥٧٠ عجلة زودت بها مزارع المشروع كنواة للتربية والتوزيع وتم توزيع ٣٠٩٣ عجلة عشراء على المنتفعين تسدد أثمانها على أقساط بلا فوائد فى مدة سبع سنوات وفى مناطق الإصلاح وزعت بمنطقتى (اذكو وابيس) ٢٢٥٧ عجلة عشراء .

ويقوم المشروع بتوزيع وتهجين الدواجن المعروفة بالإنتاج العالى فى البيض واللحم ، وقد تم توزيع حوالى مليونين ونصف من الكتكيت على المنتفعين بأرض الإصلاح الزراعى ، وقد أنشىء خمس محطات للتفريخ والتربية يقدر إنتاجها عند التشغيل بأربعة ملايين كتكوت كل موسم .

الوادى الجديد

أعلن السيد رئيس الجمهورية بدء العمل فى هذا المشروع الحيوى الكبير عام ١٩٥٨ وهو يستهدف زراعة ٣٫٥ مليون فدان بالمياه الجوفية تحقق الاكتفاء الذاتى من حاصلات الأراضى الطينية والثروة الحيوانية .

وقامت أجهزة الدولة بالبحث العلمى والتخطيط الاقتصادى والاجتماعى ، وأخذت الدراسة طريقها إلى تقدير إمكانيات الموارد المائية فى المياه الجوفية ، ووضع برنامج للبحوث يهدف إلى تحديد إمكانيات الخزان الجوفى من حيث المياه

الجندة ، والتغذية السنوية ، وسياسة استغلال هذه الموارد، ثم دراسة التربة ، والأبحاث الزراعية ، والإنتاج الحيوانى ، والبحث الاجتماعى وكل ذلك فى حقائق وأرقام أكدت نجاح المشروع التجريبى .

وبناء على هذا بدأ العمل فى تنفيذ المشروع عام ١٩٦٠ وذلك لاستصلاح ١٣١ ألف فدان .

وقد تمت زراعة عشرة آلاف فدان ظهرت ثمارها بالفعل . وهناك مساحات أخرى تمر بالمراحل الأخيرة لإصلاحها تصل إلى ٣٠ ألف فدان وقد بدأ الوادى فى عام ١٩٦٢ يصدر كميات لا بأس بها من الحبوب واللحوم والمنتجات الحيوانية والخضر والبلح .

ما تم إنشاؤه حتى الآن :-

١ — معمل الأبحاث للتربة للتعرف على الصالح منها .

٢ — فى كل مزرعة حظيرة تسع ٥٠ رأس ماشية ، سلالة محلية ، واختير لها فحول أجنبية ممتازة .

٣ — أنشىء مصنع لتجفيف وتعبئة البلح تبلغ طاقته الإنتاجية حوالى ١٢ طن كل يوم وبلغت تكاليف إنشائه ٦٠ ألف من الجنيهات .

والمنتظر الانتهاء من الأعمال التالية :

١ — استثمار كامل لنحو ١٣١ ألف فدان .

٢ — بناء ٦٠ قرية ، ١٢ مركزاً إدارياً و ٣ مدن رئيسية .

٣ — إنتاج غزير من القمح .

٤ — إنتاج اللحوم ومنتجات الحيوانات والدواجن والخضر لتموين سكان وادى النيل بعد الاكتفاء الذاتى لسكان الوادى الجديد .

٥ — إنشاء جمعية تعاونية فى كل قرية من قرى الوادى للصناعات والحرف اليدوية التى تعتمد على المواد الأولية للبيئة ذاتها .

تمليك الأرض بعد التعمير : ونتيجة لاتجاه سياسة الدولة إلى توزيع الأرض فى

المستقبل أن تكون أولوية التوزيع للفلاحين المعدمين من أهالى الواحات ، ثم يليهم عمال التراحيل ، وغيرهم من الفلاحين .

مياه الشرب

بلغت قيمة ما أنفق على أعمال المياه فى الريف حوالى ٢٥٠٠٠٠٠٠ جنيه بينما لم تزد جملة ما صرف على هذه الأعمال خلال الخمسة عشر عاماً السابقة للثورة على ٧٥٠٠٠٠٠ جنيه

وقد بلغ عدد المنتفعين بالمياه الصالحة للشرب بالريف حوالى ١٢٠٠٠٠٠٠ نسمة أى حوالى ٨٠٪ من جملة سكان الريف بينما لم تجاوز هذه النسبة ١٥٪ قبل الثورة .

النهضة العلمية فى الريف

(العلم للجميع) كانت هذه العبارة شعار الثورة فأصبح التعليم بالمجان فى كل المراحل وقد بلغ ما أنفق على التعليم فى سنى الثورة أكثر من ٦٠٠ مليون جنيه بينما كان مجموع ما أنفق على التعليم من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٥٢ لم يزد على ٢٠٠ مليون جنيه . وقد أنشىء فى القرى مدارس كثيرة أكثرها ابتدائية مجانية إلزامية ، ووحدت الوزارة أنظمتها بحيث تضمن حدا أدنى من التعليم لجميع المواطنين. وتبدأ هذه المرحلة من سن السادسة إلى الثانية عشرة وقد كانت نسبة المقبولين بهذه المرحلة ٣٠٪ عام ١٩٥١ ووصلت الآن إلى ١٠٠٪ فى كثير من القرى .

الصناعات الريفية

تمشياً مع مبدأ رفع مستوى الفلاح الاقتصادى تبنت الدولة مشروع الصناعات الريفية والبيئية لإنعاش المجتمع الريفى فى المجالات التالية :

١ — الدعم الاقتصادى عن طريق صندوق دعم الصناعات الريفية بمنح الجمعيات والهيئات العاملة بالصناعات الريفية قروضا بلا فوائد سـواء لأغراض إنتاجية أو

للتدريب والارتقاء بالصناعات وتيسير تصرف المنتجات عن طريق المعرض الدائم للصناعات الريفية .

٢ — إدخال أنواع جديدة من الصناعات الريفية والبيئية وكذلك تحسين مستوى الصناعات القائمـــة وأهمها :

(أ) الصناعات الزراعيـة : كتجفيف الخضر والفاكهة وصناعات الشراب والمربى والتخليل وصناعة الألبان ودودة القز .

(ب) الصناعات التطبيقية : وأهمها صناعة السمار واستعماله فى صناعة الشنط والبرافانات والستائر وغيرها وتجفيف الأخشاب المحلية والاستفادة منها فى صناعة الأثاث الشعبي وصناعة الفخار .

(ج) الصناعات النسوية : وتتضمن تشجيع أنواع من الصناعات المنزلية التى يمكن أن تقوم بها الفتيات تأكيداً لدور المرأة فى الإسهام فى تنمية المجتمع الريفى وقد تكون — نتيجة لتشجيع الوزارة جماعات من نساء القرى ونشاطها بلغ عددها ٣٥٠ جماعة ينتهى إليها مايزيد ١٥٠٠٠ فتاة للتدريب على أعمال الحياكة والتطريز والتريكو

٣ — مساعدة الهيئات الأهلية فى المجتمعات المحلية على تدريب المواطنين فى المجتمع المحلى لاكتساب المهارات اللازمة فى الصناعات الريفية المختلفة وذلك حتى تتمكن هذه المجتمعات من الاعتماد على هذه الأيدى المدربة فى تعميم هذه الصناعات ونشرها وقد بلغ عدد الهيئات حتى الآن ٣٧٣ هيئة قامت بتدريب ١٥٨٤٠ فتاة، ٤١٢٠ شابا

نوع الجمعية	عددهـ	بنين	بنات
مراكز اجتماعية	١٢٠	١٨٥٠	٢٣١٤
جمعيات خيرية	١٧٣	١٤٥٠	١١٣٥١
ساحات شعبية	٤٥	٤٥٠	١٥٢٥
جمعيات إصلاح ريفى	٣٥	٣٧٠	٦٥٠
المجموع	٣٧٣	٤١٢٠	١٥٨٤٠

٤ — تهتم الوزارة بمساعدة الجمعيات المحلية فى تصريف وبيع منتجات هذه الصناعات الريفية مستخدمة المعارض الدائمة ، وإثارة الوعى ، والاهتمام بهذا النوع من النشاط .

فهرس

صفحة

التعريف بالكتاب ٧
تصدير ٩
ايضاح ٢٣
الفلاح ٢٧
الفصل الأول — الريف الخالد ٣٦
الفصل الثانى — مصر بلد زراعى ٤٣
حياة الفلاح ٥٣
الفصل الثالث — حكومة مصر ٦٠
الأراضى الزراعية فى مصر ٦٢
أراضى الأوقاف ٦٧
الملكية الخاصة ٦٨
السلطة التنفيذية (أداة الحكم) ٧٥
النظام النيابى ٨٧
الفصل الرابع — الفلاح العامل الكادح ٩١
الأعمال الزراعية ٩١
كيف يعد التربة ويهيؤها ٩٢
٢ — رى الأرض ١٠٥
٣ — التسميد ١٠٩
كيف يجنى الفلاح ثمار الارض ١١٥
(ا) زراعة القطن ١١٩
(ب) قوت الفقير ١٢٧
(ج) القمح ١٣١
(و) البرسيم ١٣٢

صفحة

(هـ) الزراعات الغذائية	١٣٣
٢ — كيف يقوم الفلاح بعمله وعلاقته بصاحب الأرض	١٣٥
السخرة	١٣٥
الفلاح الأجير	١٣٧
نظام المزارعة (الشركة الزراعية)	١٣٨
نظام الايجار بالنقد	١٣٩
صغار الملاك من الفلاحين	١٤١
الفصل الخامس — بنية الفلاح وتكوين جسمه	١٥٠
الزى والملبس	١٥٩
الملابس والأزياء	١٦١
الصحة والمرض	١٦٥
الأطباء والمستشفيات	١٦٨
غذاء الفلاح ومشربه	١٧٣
الفصل السادس — القرية والمجتمع الريفى	١٨٩
الفصل السابع — مسكن الفلاح ومعيشته	٢٢٤
بناء القرى والمساكن النموذجية	٢٤٣
الفصل الثامن — التقاليد والعادات فى الريف	٢٤٦
الفصل التاسع — تحليل نفسية الفلاح	٢٥٣
الفصل العاشر — تطور الفلاح	٢٦٥
٣ — اصلاح النظام الادارى	٢٧٧
٤ — اصلاحات أخرى	٢٧٧
خاتمــــة — بؤس الفلاح	٢٨٤

الفلاح بعد الثورة

١ — الاصلاح الزراعى	٢٩١
٢ — التعاون والانتاج	

صفحة

٣ — الوحدات المجمعة ٢٩١
٤ — مديرية التحرير ... ...
٥ — مشروع ناصر ... ...
٦ — الوادى الجديد ... ...
٧ — مياه الشرب ... ...
٨ — النهضة العلمية فى الريف ... ...
٩ — الصناعات الريفية ... ...
الاصلاح الزراعى - اشتراكية تمليك - زيادة انتاج - عدالة توزيع ٢٩٢
التعاون والانتاج ٢٩٣
الوحدات المجمعة ٢٩٣
أهداف المشروع ٢٩٤
أقسام الوحدة المجمعة ٢٩٤
١ — قسم الشئون الصحية ... ...
٢ — قسم التربية والتعليم ... ...
٣ — قسم الشئون الاجتماعية ... ...
٤ — قسم الشئون الزراعية ... ...
مديرية التحرير ٢٩٥
مشروع ناصر ٢٩٦
الوادى الجديد ٢٩٦
ماتم انشاؤه حتى الآن ٢٩٧
تمليك الأرض بعد التعمير ٢٩٧
مياه الشرب ٢٩٨
النهضة العلمية فى الريف ٢٩٨
الصناعات الريفية ٢٩٨

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنــى: حســن كامــل

هنرى حبيب عيروط

الفلاحون

من حق التاريخ أن يسجل جهود الفلاح، لا فوق بساط الأرض الأخضر، ولا من وراء الثورة الزراعية والحيوانية، بل ليسجل له نتاج سواعده فى شق الترع والجسور وتعبيد الطرقات وتهذيب مجرى النهر، بما أنشأ من سدود، ويسجل له جهوده فى إقامة العمارة فى المدن المختلفة والحصون العتيدة والقلاع المتناثرة فى العواصم المصرية من فجر التاريخ إلى يومنا الراهن، ويسجل له الأرواح التى أزهقت فى الصحراء الشرقية وهو يشق قناة السويس ينعم بخيرها العالم كله، إلا البلد الذى شقت فى كبده، ثم يسجل له ما قدمه فى الجنوب، فغير مجرى النهر بإقامة السد العالى، وأنه أبدا الجندى الصادق النية يلبى أمر القائد الحكيم فى معارك السلم والأمن وعمارة الوطن.

تصميم الغلاف: أسامة العبد